جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان

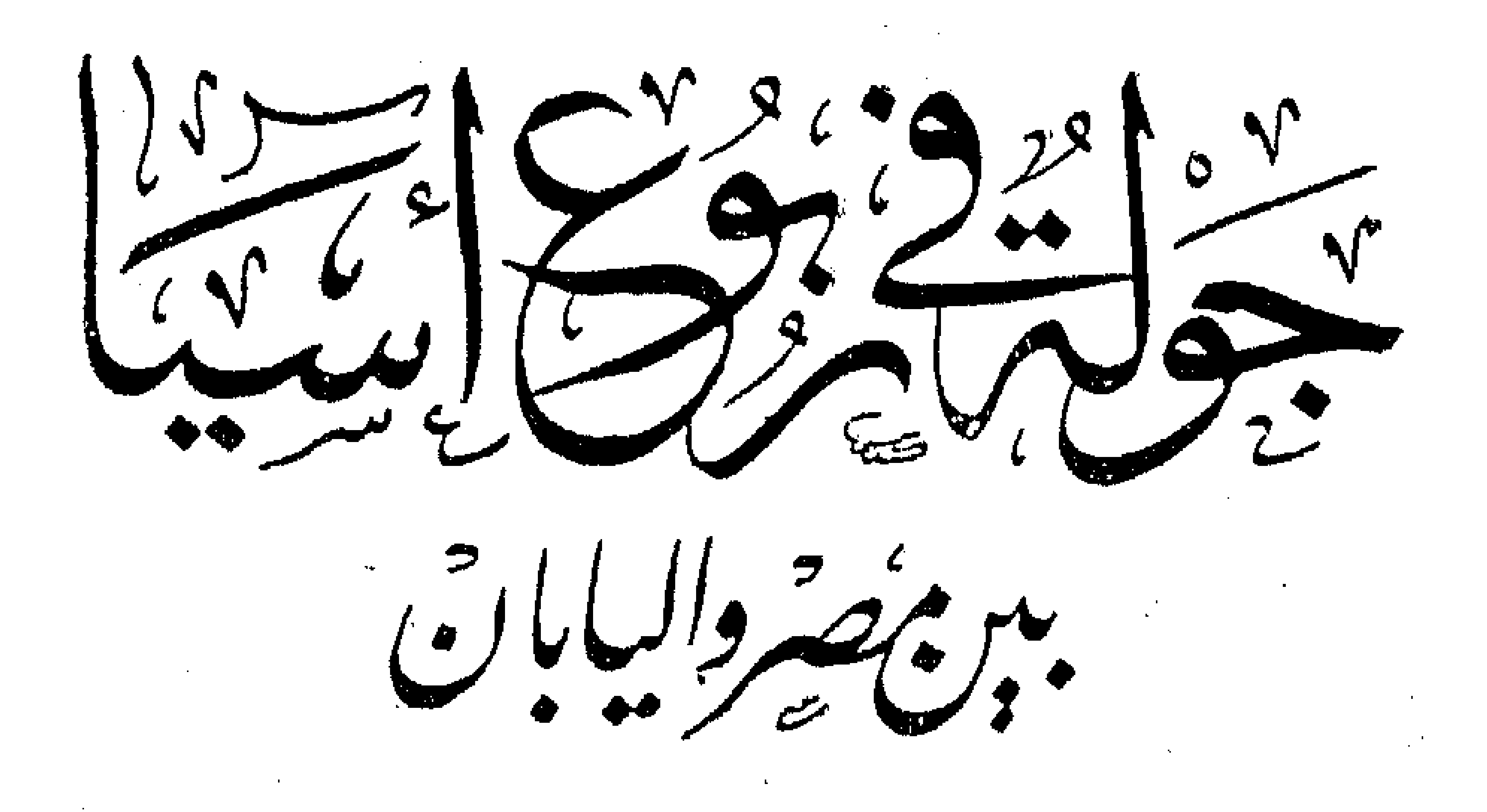


من مشاهدات سائح مصري

محمد ثابت

مدرس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية

المطبعة الرحمانية بمصر



جولة في ربوع آسيا
بين مصر واليابان

من مشاهدات سائح مصري

محمد ثابت

مدرس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية

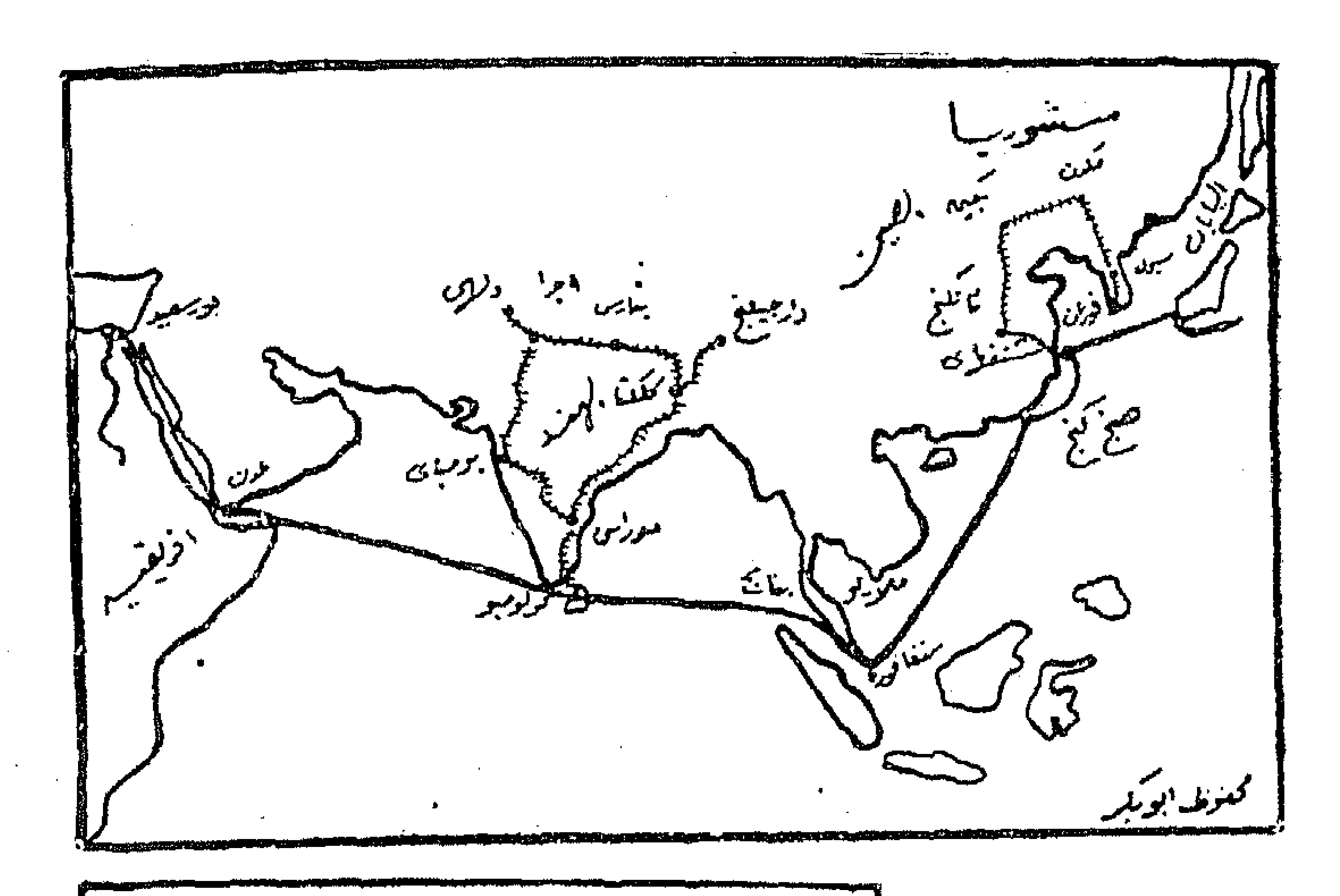
الطبعة الأولى

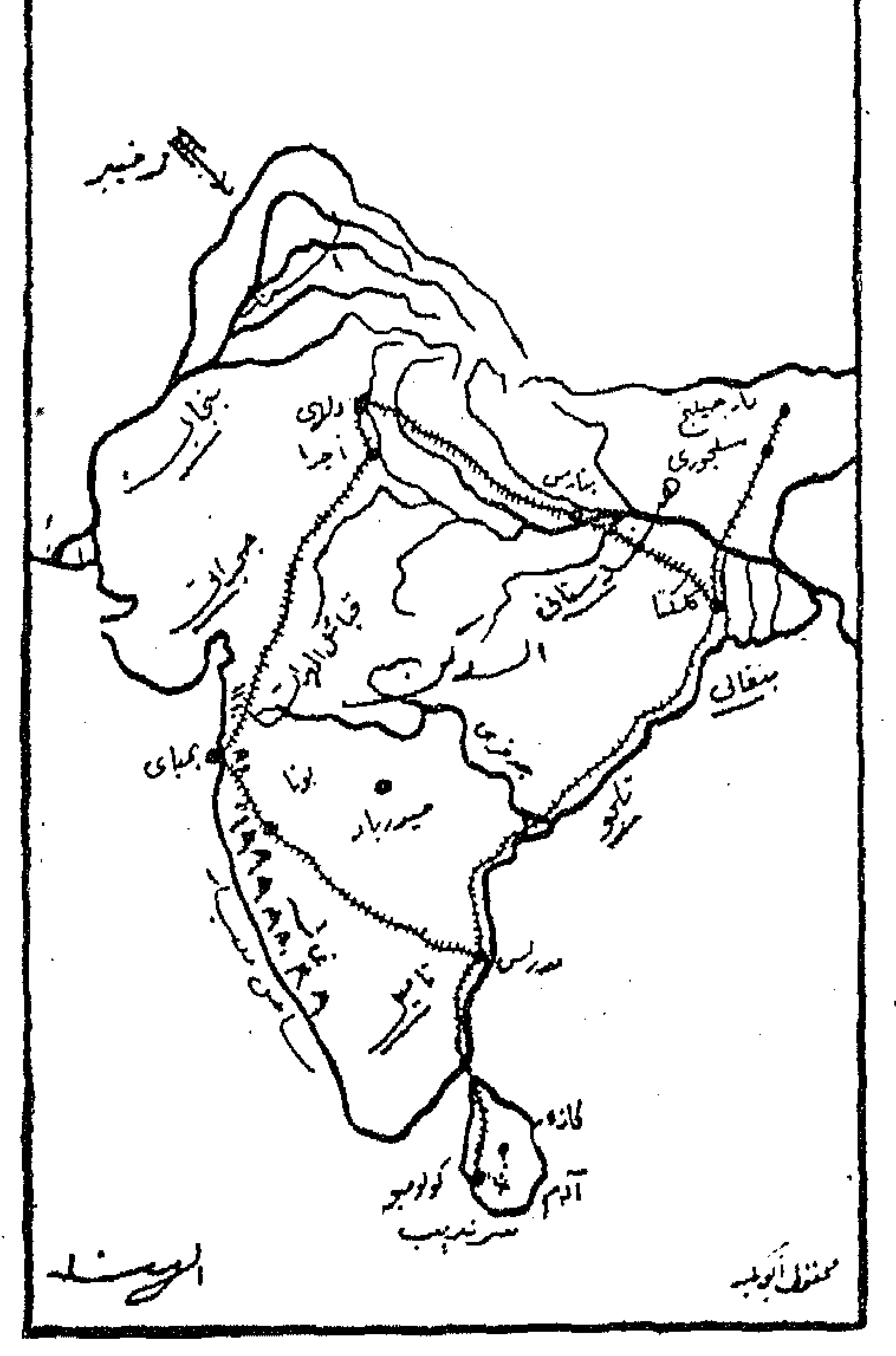
١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هأنذا أقدم للوطن المحبوب ولأبنائه المخلصين أولى جولاتى فى ربوع الشرق بعد أن تقدمتها (جولتى فى ربوع أوروبا) راجياً أن أكون قد أصبت بعض الشيء فى تفهم تلك الشعوب التى تربطنا بها روابط عريقة توثقها العاطفة وأنى لأصورها هنا كما رأتها عين مصرية شرقية غير مغرضة لا تبتغى من وراء ذلك إلا النفع ، ولقد حاولت جهدى استقراء عناصر نهوضها وقعودها علنا نستنير بطرائقها الموفقة فنهتدى ، وعسانا نعتبر بما أصابها ، فنأمن العثار الذى يتهدد الأمم فى فجر نهوضها وطور انتقالها ونحن أحوج ما نكون للمُثُل العليا نترسم خطاها — ولنا فى اليابان أسوة حسنة فلنسلك نهجها ، ولنا فى الصين وما يحيط نهوضها من قذى وشباك أكبر العبر سدد الله خطانا وهدى الوطن وأبناءه سبيلا رشداً .





طريقنا إلى الشرق الأقصى يناهز ٨٠٠٠ ميل ذهاباً ومثلها إيابا وإلى اليسار البلاد التى حللناها فى الهند وبعض اللغات السائدة وضع تحتها خط .

الهنــــد

نبذة تاريخية : قصة الهند سلسلة من غارات شنها أقوام متعاقبون وفدوا من الشمال الغربى وبخاصـة عن طريق ممر خيبر وأخضعوا البلاد لسلطانهم .

ويتلخص تاريخ الهند فى عصور ثلاثة : عصر الهندوس بين ٢٠٠٠ ق م ، ١٠٠٠ م، العصر الاسلامى بين سنة ١٠٠٠ ، ١٧٥٧ ميلادية ، عصر سيادة الأور بيين و يبدأ من سنة ١٧٥٧

العصر الهندوسى : ولا نعرف مبدأه بالضبط وغاية ما نعرفه أن كثيرا من الشعوب الآرية لبثوا يهاجرون من بلاد الفرس وأواسط آسيا واحتلوا شمال الهند وأخضعوا السكان الأصليين ولقد اهتدينا مما ورد فى بعض الأساطير (Vedic hymns) أن هؤلاء كانوا مشتغلين بالزراعة وأن الرباط العائلى كان ميثاقهم الاجتماعى منذ البداءة ولم يكن لهـم معابد ولا أنصاب وغاية ماهنالك أن رؤساء الدين منهم كانوا يوقدون النار المقدسة كل فى حظيرته و يقدمون القرابين من أغذية وغيرها لنور آلهتهم اعترافا بنعمائهم وكانوا فى صلاتهم يتوسلون ان تنصر الآلهة النبلاء الآريين على ذوى البشرة السوداء ، ومن ذلك نستنتج أن فوارق الألوان والطبقات نشأت فى الهند منذ القدم

ولم يتقدم الآريون في فتحهم الا في الشمال حتى جبال (Vindhya) وقلما تخطوا هذه الى الدكن حيث كان يقيم جماعة (الدرافيديين) الأشداء الذين كانوا على جانب من الحضارة . أما في حوض الكنج فقد ترعرعت دول كبيرة قامت على أنقاض القبائل المتفرقة . ولما أن فتح الاسكندر الهند سنة ٣٢٦ ق م وجد أمامه عدداً من الدول والقبائل المستقلة وكان للملك الذى قهره أدوات حربية وفيلة وخيل ورجل

بعد ذلك قامت دولة قوية في حوض الكنج تحت حكم شندرا جو بتا (chandragupta) وسع ملكها ما بين الشاطئين ولبثت سيادتها ١٥٠ سنة ومن بين عواهلها الامبراطور الزاهد أسوكا (Asoka) الذى قرأنا مراسيمه التي نقشت على الصخور الى جانب تعاليم جوتاما بودا الذى بدأت تعاليمه الخلقية منذ ٢٥٠ سنة و بفضل هذا الامبراطور ساد مذهب بودا في الهند وانتشر منها الى الصين و بعد انحلال الامبراطورية المورية (Mauriyan) أغار السنديون على البنجاب ولبثت ولاياتهم هناك حتى أعقبتهم أسرة تركية عرفوا بملوك الكوشان (Kushan) وهؤلاء فتحوا البلاد الى بنارس شرقا

وفي القرنين الرابع والخامس الميلادى ساد قبائل الآريين تحت ملوك جو بتا (Gupta) وهذا يعد العصر الذهبي للهندوس اذ بعده بدأ يتشتت شملهم بدخول الهون (Huns) سنة ٤٨٠ وهؤلاء زالت دولتهم تماماً بعد ٣٠٠ سنة حين ساد الاضطراب فقام بعض قبائل الراجبوت (Rajput) وأقاموا لهم دولا متفرقة حول غالب المدن الهندية الكبرى على ان التنافس

والتنابذ بينهم لم يمكنهم من تكوين جبهة متحدة أمام الفتح الاسلامى الذى بدأ سنة ١٠٠٠ ميلادية

العصر الاسلامى : لما أن اعتنق سكان وسط آسيا الاسلام قاموا بدعايتهم الدينية يقتحمون بلاد العالم بما أوتوا من شدة و بأس ولبثت جموع الترك والافغان والمغول تغير على الهند من ممر خيبر وتقاتل لبسط نفوذها هناك حوالى خمسمائة سنة وأخيرا أقام بابر (Baber) التركى دولة المغول سنة ١٥٢٦ فحكم هؤلاء الملوك الهند حكما مطلقا لمدة ١٨٠ سنة كانوا خلالها مثال البأس الشديد وبلغوا من الترف ما أدهش العالم تشهد بذلك مبانيهم الفخمة وحاشيتهم الفاخرة وكان عصرهم الذهبى فى عهد شاه جهان (١٦٢٧ — ١٦٥٨) وقد استخدموا الهندوس والراجبوت فى الأعمال المدنية (خصوصاً الزراعة) والعسكرية ، و بدأت دولتهم تنحل لما أن عجز (اورانجزيب) عن رد قبائل الماهراتا من شعوب الدكن الشرسة ، وكاد يعود النفوذ للهندوس حتى باغت الهند جيش فارسى من ممر خيبر وأباد قوى الهندوس .

ملاحظة — نرى أن كل الغارات التى فتحت الهند وفدت عن طريق ممر خيبر أمنع الممار الطبيعية فى الدنيا (اذا استثنينا فتوح البرتغال وهولندا وفرنسا وانجلترا التى جاءت عن طريق البحر) نذكر من بينها فتح الاسكندر سنة ٣٢٦ ق م الذى خلف فى الهند أثر الحضارة الاغريقية وجنكيز خان وإن لم تتعد فتوحه هناك جهة السند وتيمورلنك الذى تقدم الى دلهى وفى القرن السادس عشر جاء خلفه بابر فأسس دولة المغول التى ظلت إلى أن جاء حكم الانجليز

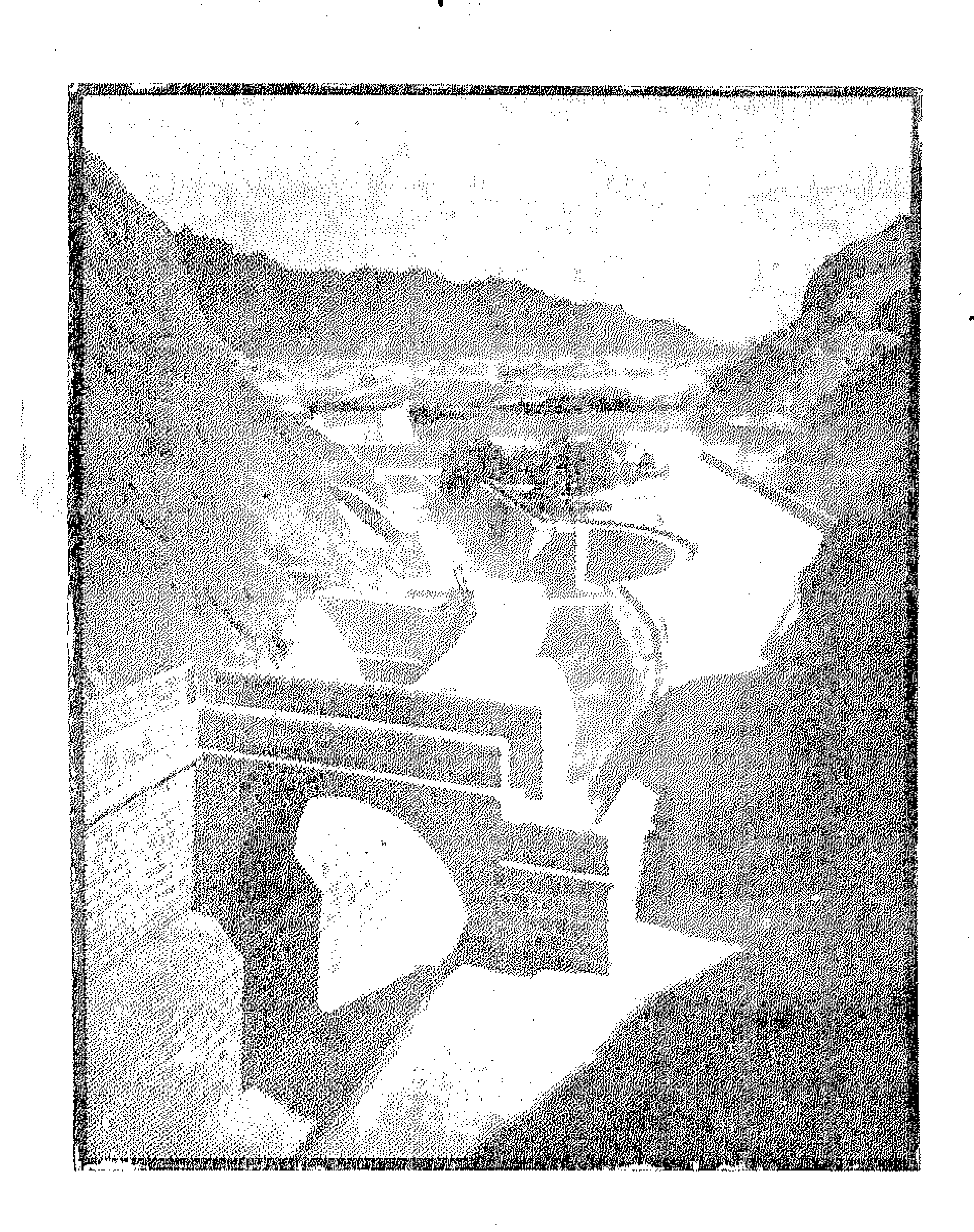
العصر الانجليزى : بينا كان هذا الاضطراب الداخلى سائداً تقدم الفتح الأوربى من البحر فأسس تجار البرتغال وهولندا وفرنسا وانجلترا لهم محطات تجارية ثم تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ لتزيد الموارد التجارية وقد مكنت سيادة الأساطيل البريطانية الانجليز أن يغلبوا منافسيهم وكان الاضطراب الذي حل بالامبراطورية المغولية فى داخل الهند مبرراً لتدخل الانجليز تحت ستار متاجرهم فهُزم نواب بنغاله سنة ١٧٥٦ ونواب أوده سنة ١٧٦٤ و بدأت الشركة تباشر السيادة السياسية الى جانب التجارية كى تحافظ على تلك المقاطعة الشاسعة (بنغاله) ولكثرة مشاغلها السياسية وحروبها تدخل البرلمان الانجليزى فى شؤونها فحفظ لنفسه حق الادارة والتشريع وكان للشركة تعيين الحاكم العام وفى سنة ١٨١٧ خضعت طوائف المهراتا وفى ١٨٤٥ أمم السيخ وأعقب ذلك عصيان سنة ١٨٥٦ الذى ضمت على أثره الهند للتاج البريطانى

الى عدن وأرض سرنديب

ماوافت الثالثة من مساء الخميس الرابع من يونية سنة ١٩٣٢ حتى أقلعت بنا الباخرة اليابانية (سوامارو) تسير الهوينا وهى تشق مياه قناة السويس جنوبا وكانت بين آونة وأخرى تقف منتحية جانباً لتفسح المجال للبواخر التى كانت وافدة من الجنوب خشية أن يحدث مرور السفينتين معاً تفريغاً فى الوسط يدفع بهما الى التصادم ولم نصل السويس إلا الخامسة صباحاً و بعدها أوغلنا فى خليج السويس ولبثنا بجانب الشاطئ المصرى وكانت

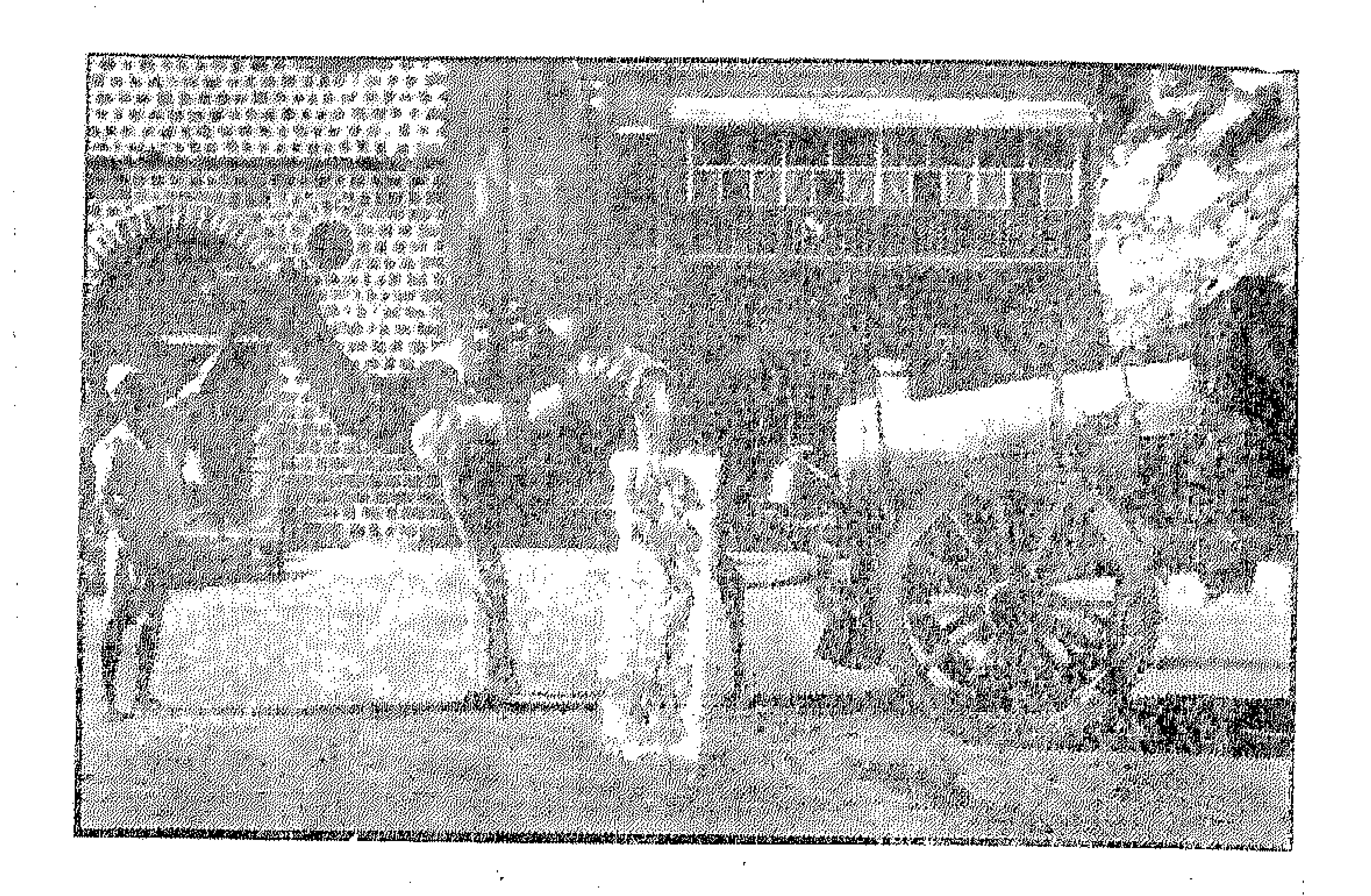
ذرى جبال سيناء المقدسة ترى فاترة الى يسارنا وفى السادسة مساء أتينا على
اخر الخليج وأوغلنا فى البحر الأحمر الصميم وكان بدء خليج العقبة يبدو على
بعد منا جهة الشرق وكانت أسراب السمك كبير الحجم تقفز من حولنا،
وسرعان ماشعرنا بزيادة محسوسة فى درجة الحرارة فى الهواء والماء وظلت
تتزايد ولبثت تهاجمنا جموع الجراد فى كثرة مخيفة رغم أنا كنا نبعد عن
الصحارى المجاورة بمسافات شاسعة باضطراد فى شدة لا تحتمل حتى تضايقت
أنفاسنا ولم نستطع النوم ليلتين كاملتين وليس فى الهواء من نسمة تنعشنا،
بعض الشيء بل ظل الهواء طوال أيامنا الأربعة فى البحر الاحمر راكدا،
خانقا وكانت حرارة الماء أشد من حرارة الهواء خصوصاً عند عودتنا فى سبتمبر
وتلك بقية من وهج يونيه حفظتها المياه لأنها رديئة التوصيل للحرارة ولقد
استنجدت بنا سفينة أرهق ركابها الحر حتى أشرفوا على الهلاك لافتقارهم
إلى جانب من الثلج تسلمنا برقيتها اللاسلكية لكنا لم نستطع معاونتها
لحاجتنا نحن إلى ما كان عندنا من جليد وأذكر أنى ورفاقى كنا نسمى البحر
الاحمر على سبيل التفكهة (Bloody Sea) من شدة ما قاسينا من حر قيظه
وكانت تبدو على بعد أزاء شواطئه جزائر صخرية مجدبة يكاد يحرقها لفح
الشمس وفى مساء اليوم الرابع دخلنا بوغاز باب المندب ومررنا بجزيرة پرم
الانجليزية في وسطه وما كدنا نبرحها داخلين فى خليج عدن حتى تنسم
الجو وشعرنا بانتعاش كبير وبعد ذلك بساعات أقبلنا على :

عدن : فرسونا فى تقوس من البحر تحفه الصخور القديمة العاتية من



مستودع المياه ذائع الصيت فى عدن

الشيست المهشم فى حمرة قاتمة أو سواد منكر عريت عن النبت فى كل مكان
استقلينا الزورق الصغير ونزلنا الشاطئ وعلى امتداده تقوم الأنزال والمبانى الرئيسية وفى طرفها الجنوبى المعسكرات والمعاقل التى اختير من أجلها المكان فكان مفتاح البحر الأحمر وقد أقلتنا سيارة عشرة كيلومترات الى الحى الوطنى المترب القذر بعد أن اخترقنا ممرا بين الربى كأنه النفق يعلوه سور قديم يمتد بعيداً وكان طريقنا يعلو ويهبط بين ربى ووهاد صحراوية مجدبة



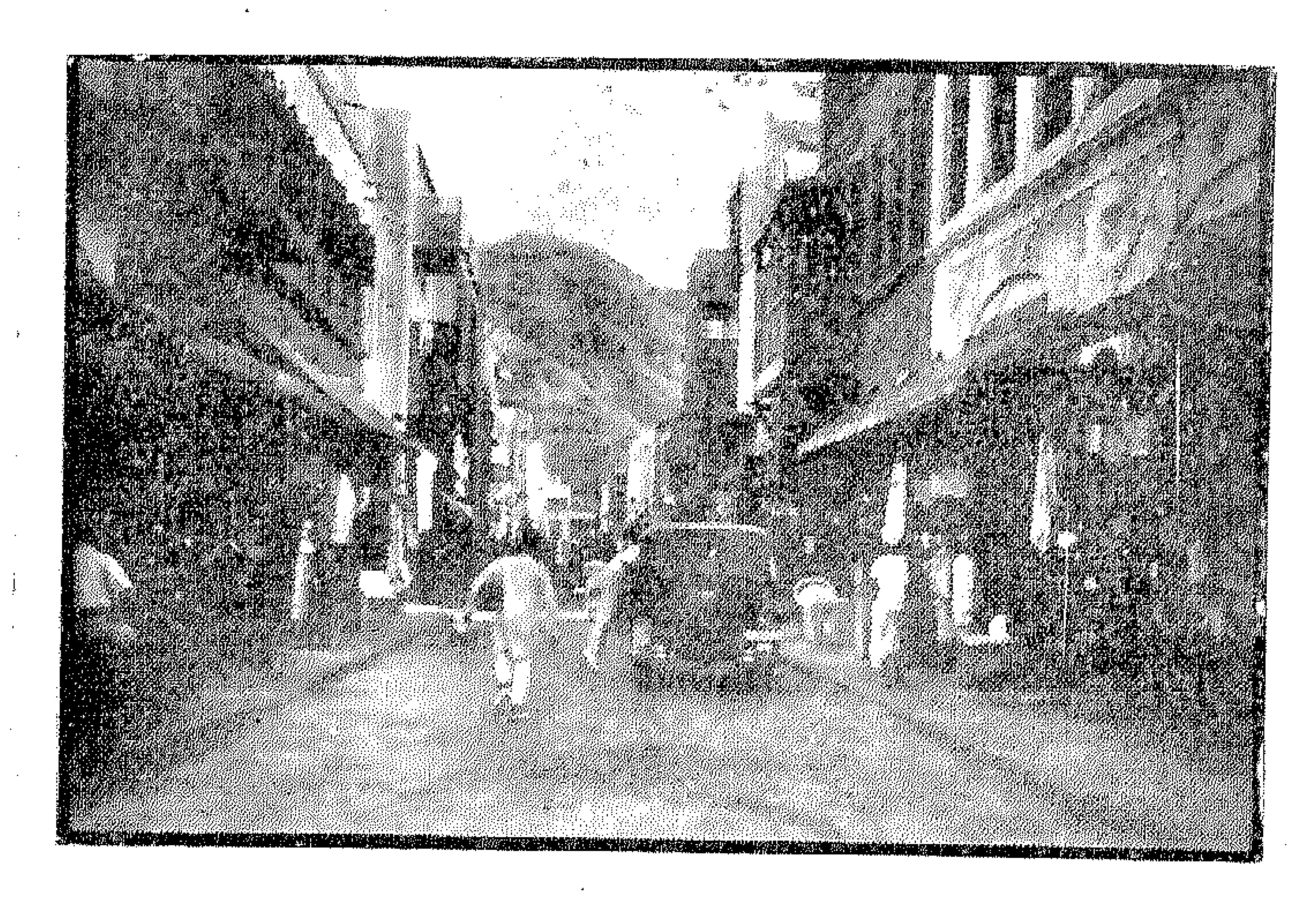
الماء العذب ثمين فى عدن الجدبة وهو يوزع بالعربات ويباع فى الحوانيت

والحى الوطنى هو عدن الحقيقية فى وهدة أصلها فوهة لبركان خامد بيوتها واطئة ومن طابق واحد وتطلى باللون الأبيض وفوق المرتفعات رأينا مستودع المياه الذى يمد المدينة كلها وهو بمرشحاته وأحواضه يشغل مسافة كبيرة ويطلق عليه القوم (حوض سليمان) ظنا منهم أنه قديم يرجع الى ذاك العهد وبعضهم يرى أنه بنى سنة ألف قبل الميلاد ولقد أصلح سنة ١٨٥٦ ولما كان المطر هناك نادراً والماء عظيم القيمة حافظ القوم على كل قطرة تسقط منه فيسيل المطر فى وديان وأخاديد جافة تؤدى الى الحوض وأنت ترى سلسلة من أحواض الواحد فوق الآخر بحيث اذا امتلأ أعلاها فاض الماء الى الثانى ثم الثالث وهكذا ويسع فى مجموعه ثمانية ملايين جالون والحوض الأعلى يتصل بمجموعة من آبار فى قرية تبعد عن عدن بسبعة أميال وقد لا يفى كل

ذلك بحاجة المدينة من
الماء فيرشح ماء البحر
لسد العجز وغالب ماء
الشرب من تقطير ماء
البحر لأنه أنقى وأبعد
عن التلويث وعلى
شاطئ البحر مكان
الملاحات يرفع ماء
البحر بمضخات
فيتبخر ويترشح الملح
فيستغلونه ويصدرون
كثيراً منه وكنا نرى
على بعد بقايا لسكة
حديدية كانت تصل

أمام مدخل عدن ويبدو السور القديم
فوق الربى المجدبة

عدن باليمن لكنها هدمت لأن أمام اليمن أبى عليهم بقاءها وفى تقوس من البحر
نائى جهة يسمونها (الشيخ عثمان) غنية بالمزارع ومن خلفها تبدو جبال اليمن فاترة
وسكان عدن ٣٥ ألفا غالبهم من العرب بقاماتهم النحيلة ووجوههم الشاحبة
ثم الصوماليون بسحنهم الجميلة فى سواد براق وأنوف شماء وشفاه رقيقة ثم
يليهم الهنود ولغة البلد السائدة العربية بتحريف بسيط ويتكلم غالبهم



احد طرق عدن الرئيسية.

الانجليزية وعدن حماية بريطانية عليها حاكم يتصل بحكومة الهند ونقودها هى نفس النقود الهندية التى لاتزال تتخذ الفضة قاعدة لها احتلها الانجليز سنة ١٨٣٧ ولاحتلالها قصة عجيبة ذلك ان سفينة انجليزية تحطمت على صخور عدن فأساء أهلها معاملة من نجوا منها فأعقب ذلك أن طلبت الحكومة البريطانية شيئاً من الترضية والتعويض من السلطان فأجيبت مطالبها لكن السلطان قد مات وخلفه ابنه الذى لم يبر بوعد أبيه فلجأ الانجليز الى القوة وفتحوها عنوة ووضعوا فيها حامية صغيرة وزادت أهميتها بعد فتح سكة حديد السويس سنة ١٨٥٨ ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ أصبحت محطة عسكرية هامة مذ عدت مفتاح البحر الأحمر خصوصاً بعد ماسارعت انجلترا الى احتلال جزيرة (پرم) وسط بوغاز باب المندب وكانت فرنسا تتطلع

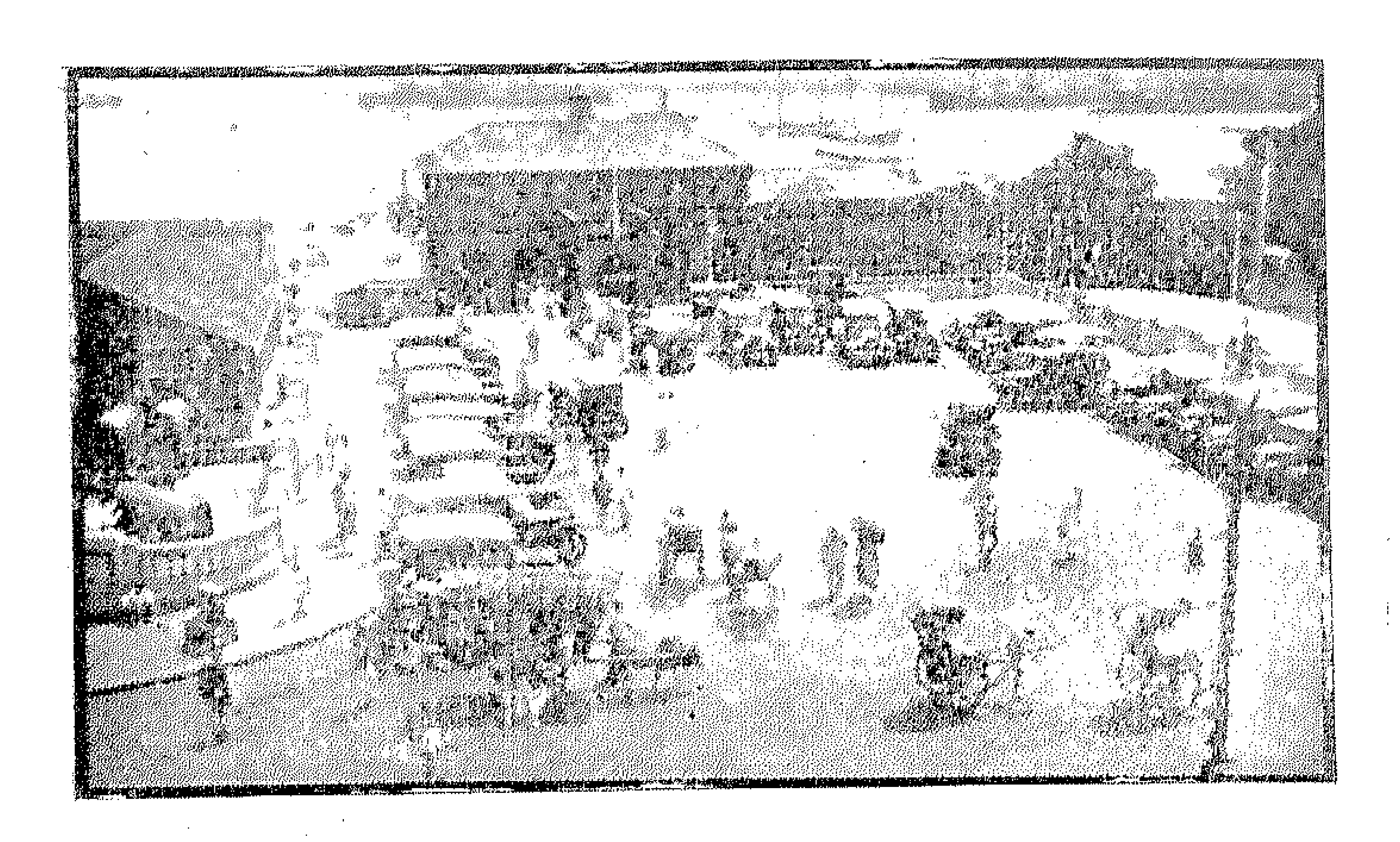
اليها من قبل وأعقب ذلك احتلال الصومال البريطانى قبالتها لأنه المورد الرئيسى الذى منه تستمد عدن و پرم الصخر يتان المجدبتان حاجتهما من الغذاء.

لبثت الباخرة طوال النهار تحمل وسقها من الجلود الخام وأقلعت عند الأصيل وكلما أوغلت بنا فى المحيط الهندى أرغى ماؤه وعلا موجه كالجبال مما جعلنا نؤمن بعظمة المحيط الذى بدأت تجتاحه الرياح الموسمية دافقة صوب الهند فى عنف كبير ولبثنا فى شدته هذه ثمانية أيام حتى أقبلنا على جزيرة سيلان وكنا من يوم ركو بنا نلاحظ سرعة فى اختفاء ضوء الشفق مذ كان الظلام الحالك يرخى سدوله عقب غروب الشمس مباشرة شأن سائر البلاد القريبة من خط الاستواء .

جزيرة سرنديب

وفى باكورة اليوم الثانى عشر من مغادرتنا بور سعيد تجلت كولمبو بمينائها الكبير وقصورها السامقة فى أحيائها الأفرنجية ، وما أن بدت طلائع الحى الوطنى — وهو غالب المدينة — حتى راعنا منظر الناس البشع فى مظهرهم القذر وجسومهم العارية ، وألوانهم الشاحبة ونظراتهم المخيفة ، فهم يترامون حولك كالدويبات لاتدرى من أين يفدون فى جماهير لاحصر لها فكأنهم يحشرون إليك حشراً فى فقر مدقع و بؤس مبيد ، يمسكون بتلابيبك ملحفين جميعاً فى طلب معونتك المادية

ويزيد منظرهم قبحاً أفواههم المفتحة وكأنهم البلهاء يمضغون عشباً أخضر يباع فى كل مكان و بمجرد ملامسته للعاب يبدو وكأنه الدم يلوث



المرسى الرئيسى فى ثغر كولمبو

أفواههم ولا ينفكون يمضغونه أينما كانوا ، وهم يعتقدون أنه مصلح للاسنان ومسكن للأوجاع ومكسب للمناعة ضد المرض بين أفراد شعب غذاؤه نباتى شحيح وشجره يسمى بيتل (Betel) مقدس لديهم ولذلك فهم يلفون فى ورقه النقود والقرابين التى يقدمونها للآلهة منذ القدم وعند مضغه يضعون داخل الورقة الخضراء فتات بندق إسمه (أريكا) وفتات الجير من أصداف البحر أو المرجان ، وترى حتى النساء والأطفال دائبين على مضغه فى مرأى تعافه الأعين وتشمئز منه النفوس .

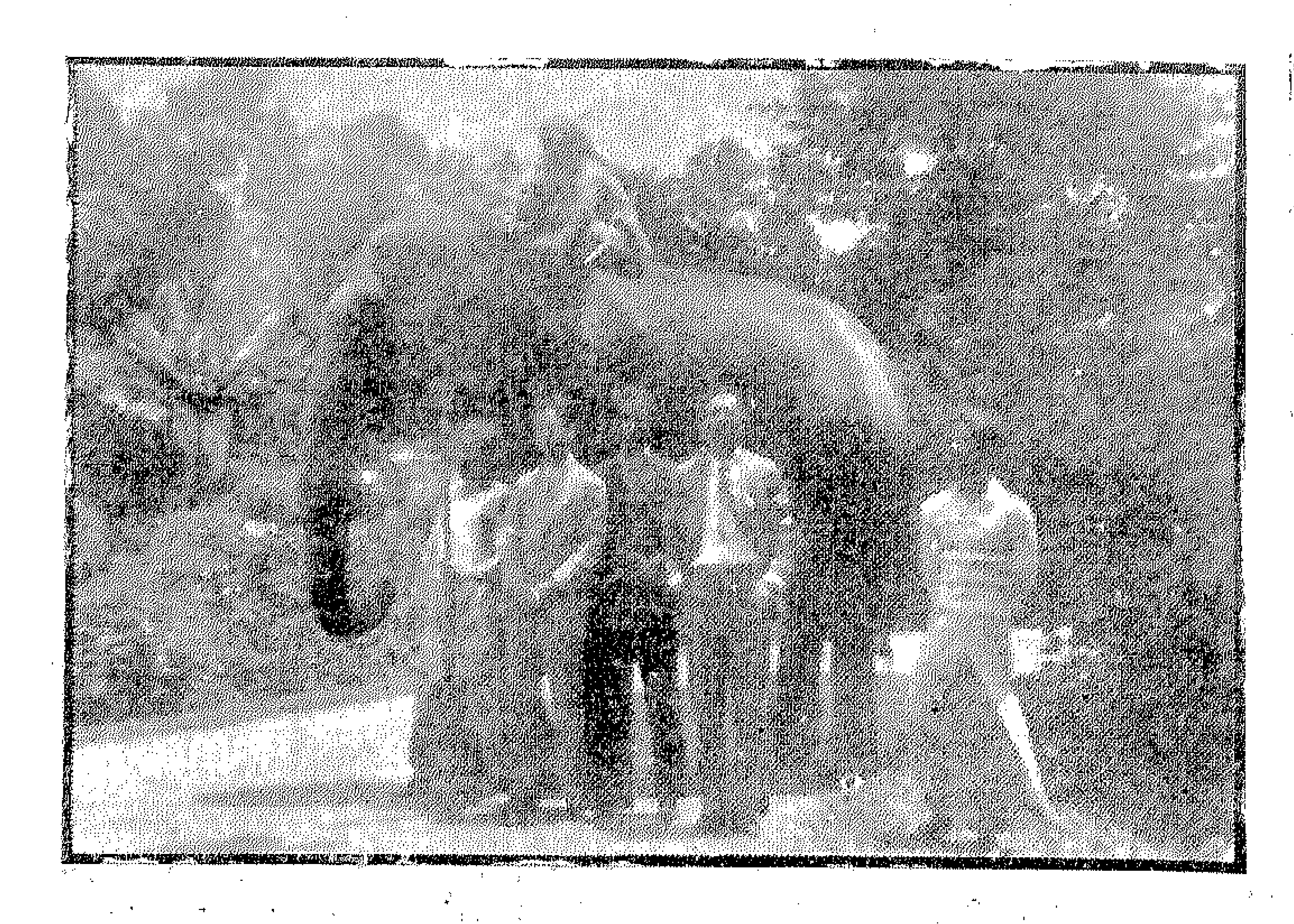
طال تجوالى فى تلك الأحياء وأنا أركب الركشا وهى المطية الرئيسية هناك أشبه بعربة صغيرة من عجلتين يجرها رجل بائس كنت أشعر بالألم الشديد من أجله وهو يجرى فى ذاك الحر القائظ وكأنه الدابة المجهدة .

زرت هناك معبدين أحدهما لبوذا أكبر آلهة الجزيرة إذ يدين به غالب

السكان وفيه تصف تماثيل بودا فى أحجام كبيرة وتزين الجدران صور نعرف منها قصة بودا منذ كان شخصاً عادياً فأضحى أميراً ثم صعد إلى السماء فأصبح إلهاً ، وعند دخولنا تقدم إلينا بعض القسس بزهور الفل والياسمين إملأنا منها سلة صغيرة دفعنا ثمنها وحملناها إلى قدمى الاله حيث أخذنا ننثرها كما يفعل القسيس الذى كان يرش بين آونة وأخرى جانباً من ماء الورد يعطر به المكان .

فى الطريق الساحر بين كولمبو وكاندى

أما المعبد الثانى فهندوسى نظرنا إليه من الخارج مذ لا يباح للانجاس من الغرباء عن الدين أمثالنا أن يطأوا داخله رغم ما كان يلوثه من أقذار ويحوطه فى الخارج من زرافات المتسولين والفقراء والعراة فى أشكالهم القذرة المنفرة .

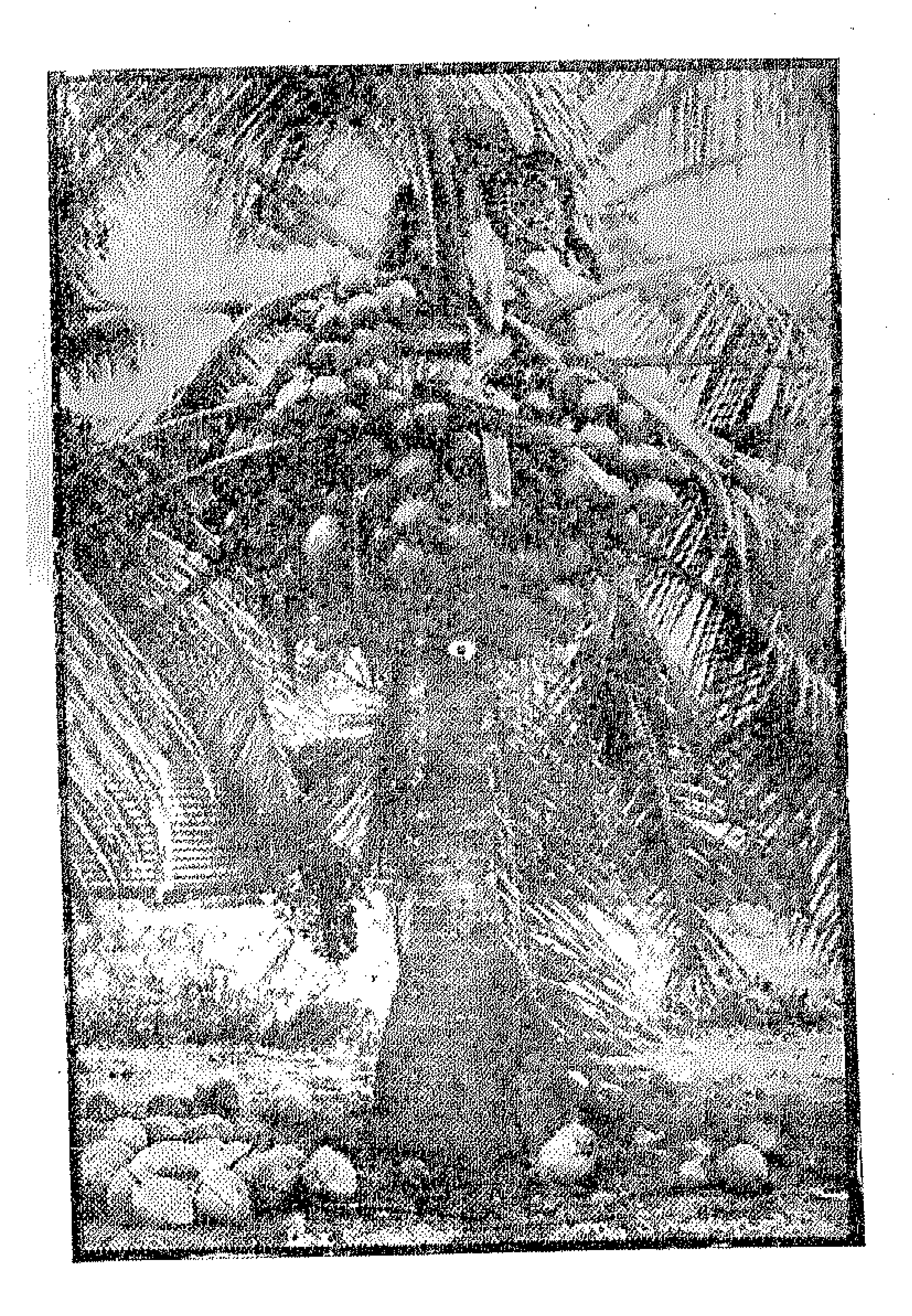


الفيلة تمرح خلال الغابات الكثيفة بين كولومبو وكاندى

وخير ماتراه فى الأحياء النظيفة من المدينة صخرة لاڤينيا التى تشرف على البحر بتقوسات جذابة ، يحفها نخيل النرجيل ويتوجها نزل فاخر تناولت فيه الشاى ذائع الصيت و بعد ذلك قصدت إلى حديقة النبات التى نسقت أيما تنسيق تزينها الفصائل الوفيرة لنبات المناطق الحارة

الى كاندى: أقلتنا سيارة من كولمبو واخترقت بنا طريقاً طوله ٧٣ ميلا صوب كاندى العاصمة القديمة للجزيرة ، أما مناظره فساحرة تملك اللب مذ كانت السيارة تسير فى ليات عجيبة تصعد خلالها ربى شاهقة ثم تهوى وهادا سحيقة تجرى من تحتها الأنهار ذات المساقط والشلالات الرائعة كل ذلك وسط الادغال الملتفة والغابات الكثيفة التى تجلت رهبتها

فى سكونها وتعدد فصائلها وتنوع زهورها ، ولذلك لم نعجب أن عدها بعض القوم أجمل طرق الدنيا قاطبة ، وبين آونة وأخرى كنا نلمح على بعد فيلة تمرح فى فجوات الغابة أو تغتسل فى ماء الغدران أو تجر أثقالا وتحمل أعباء تسير بها فى غير اكتراث وأسراب الطير الأخضر لا تدخل تحت حصر . وجموع القردة يداعب بعضها البعض ويقترب منها



شجرة النرجيل تحمل وسقا ثقيلا

الأطفال فى روحاتهم الى المدارس بجسومهم الناحلة العارية وعيونهم الغائرة البراقة حتى لقد أشكل علينا الأمر فخلناهم بادئ الأمر من جنس واحد ، وأخص ما استرعى نظرنا من النبت الوفير الشاى الذى كان يسود مدرجات الجبال من حولنا وتصف شجيراته فى ترتيب جميل كأنها الأقبية الصغيرة فى ورقها القاتم النحيل وهى تحكى شجيرات القطن الصغيرة والفتيات يقطفن أطرافه الغضة



النرجيل يزرع فى الأرض صفوفا منظمة

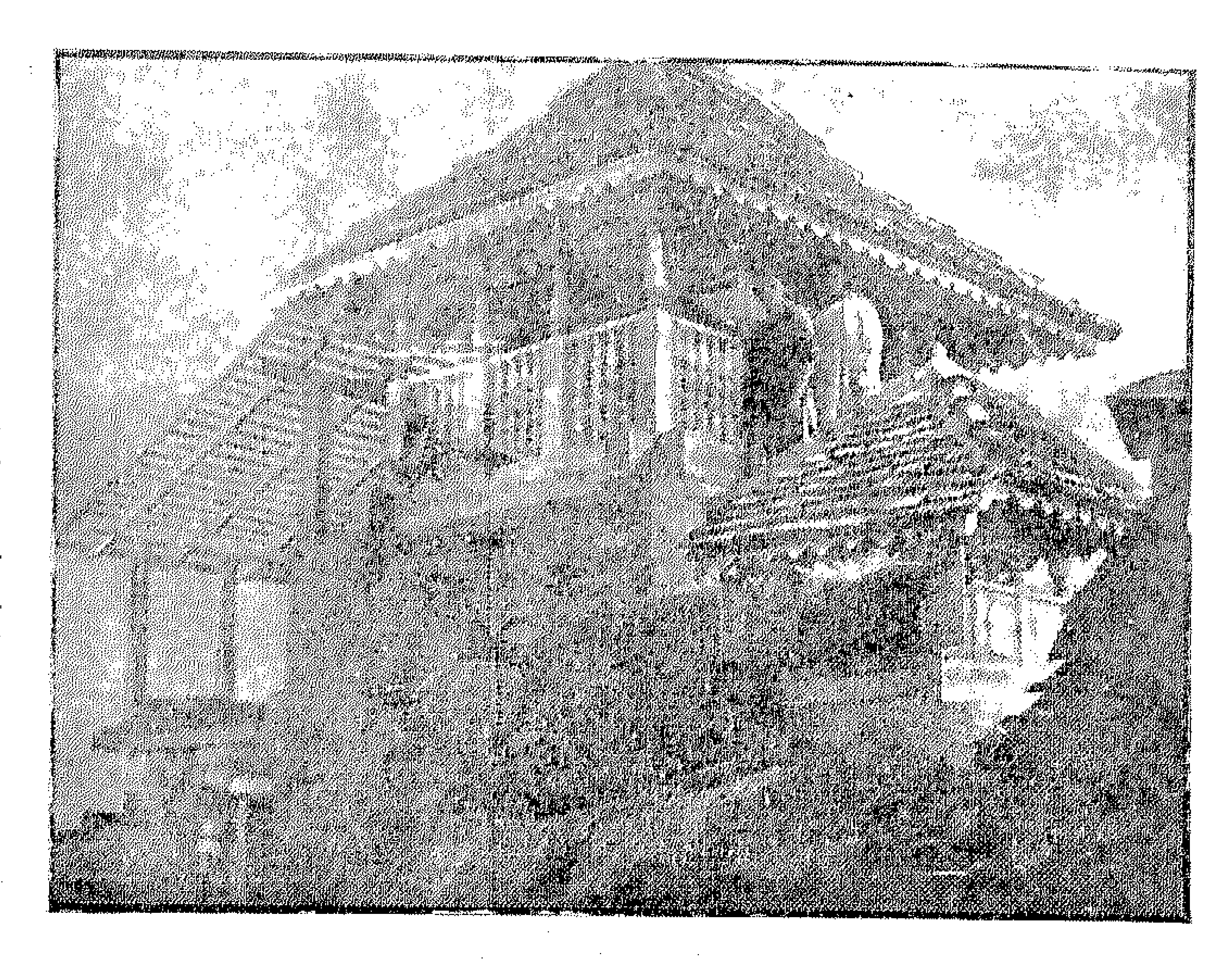
ثم يقمن بتشذيب الشجر لموسم القطاف الثانى ثم للثالث وعجيب اننا لم نلمس فى ورقه رائحة للشاى قط ذلك لأنه يتطلب عملية شاقة فى اعداده كى يخلو من الرطوبة ثم يطوى باليد ورقة ورقة ويبخر فى درجة حرارة معينة وعندئذ تظهر رائحته وكنا نرى مصانعه مبعثرة وسط مزارعه وقد دخلت أحدها وعلمت منه أن مجموع المساحة المنزرعة فى الجزيرة كلها تناهز اليوم نصف مليون فدان انجليزى (ايكر) ولقد انتشر أخريات القرن الماضى بعد ان حل محل البن الذى أصابته آفة قضت عليه عند ذاك

وأشهر نبات الوهاد الأرز ذاك الذى سويت له جوانب الوهاد فى مساطب أفقية يعلو بعضها البعض ويكاد يغرقه الماء ، أما غابات النرجيل فحدث عنها تملأ الآفاق بشجرها نحيل القامة فى ميل الى المنحدرات دائما وأزاء السواحل

يميل نحو الماء حتى اذا ما سقط حملته الأمواج بعيداً فأن ألقت به على شاطئ نما ونشر بذلك جنسه وتحمل الأشجار وسقا ثقيلا بعضه أصفر اللون صغير الحجم والبعض ضخم عظيم الحجم ونرى القوم هناك يستغلونه استغلالا عجيباً فهم يبيعونه أخضر لكي يرتووا بمائه الحلو وكان يعرضه القوم فى المحاط

عرجون من الموز يكاد يفوق شجرته طولا

مقابل مليم واحد لكل واحدة واذا مانضج سلخوا عنه قشرته الظاهرة القاسية بطريقة تتطلب جهداً كبيراً ومن اللب يتخذ الزبد لدهان الجسد اتقاء الحر وطلباً للبرء من الأمراض وما بقى يضغط فى أقراص تسمى (الكوپرا) أو البسباسة ولعظيم فائدته كثر السكان حيث يعم شجره فهو مورد لهم رئيسى وقدرت مساحة غاباته فى سيلان ٨٢٠٫٠٠٠ فدان انجليزى



فوق قمة آدم كعبة الحجاج من المسلمين والبوذيين والهندوس

وكانت تسترعى أنظارنا كثرة أنواع الفاكهة التى نجهل أغلبها من بينها المانجوستين ، الدوريان ، البيوا ، كثير غيرها أما الموز فغذاء رئيسى للعامة يعرض فى كل مكان حتى فى حانوت الحلاقين وعند بائعى الأقمشة ويعلق أمام الحوانيت فى (عراجين) فى أحجام مختلفه قد يبلغ الواحد الأمتار طولا وهو على أنواع عدة وكنا نلاحظ القوم يسدون به رمقهم أينما حللنا أما ثمنه فرخيص جداً مذ كنا نبتاع العرجون بنحو قرشين

وقد بدا لنا فى الناحية الجنوبية من الطريق جبل آدم بذروته الشاهقة وعليها طابع شبيه بالقدم طوله زهاء متر ونصف وعرضه نحو ثلثى متر يظنه البوذيون طابع قدم بوذا والهندوس سيفا والمسلمون آدم حين طرد من الجنة



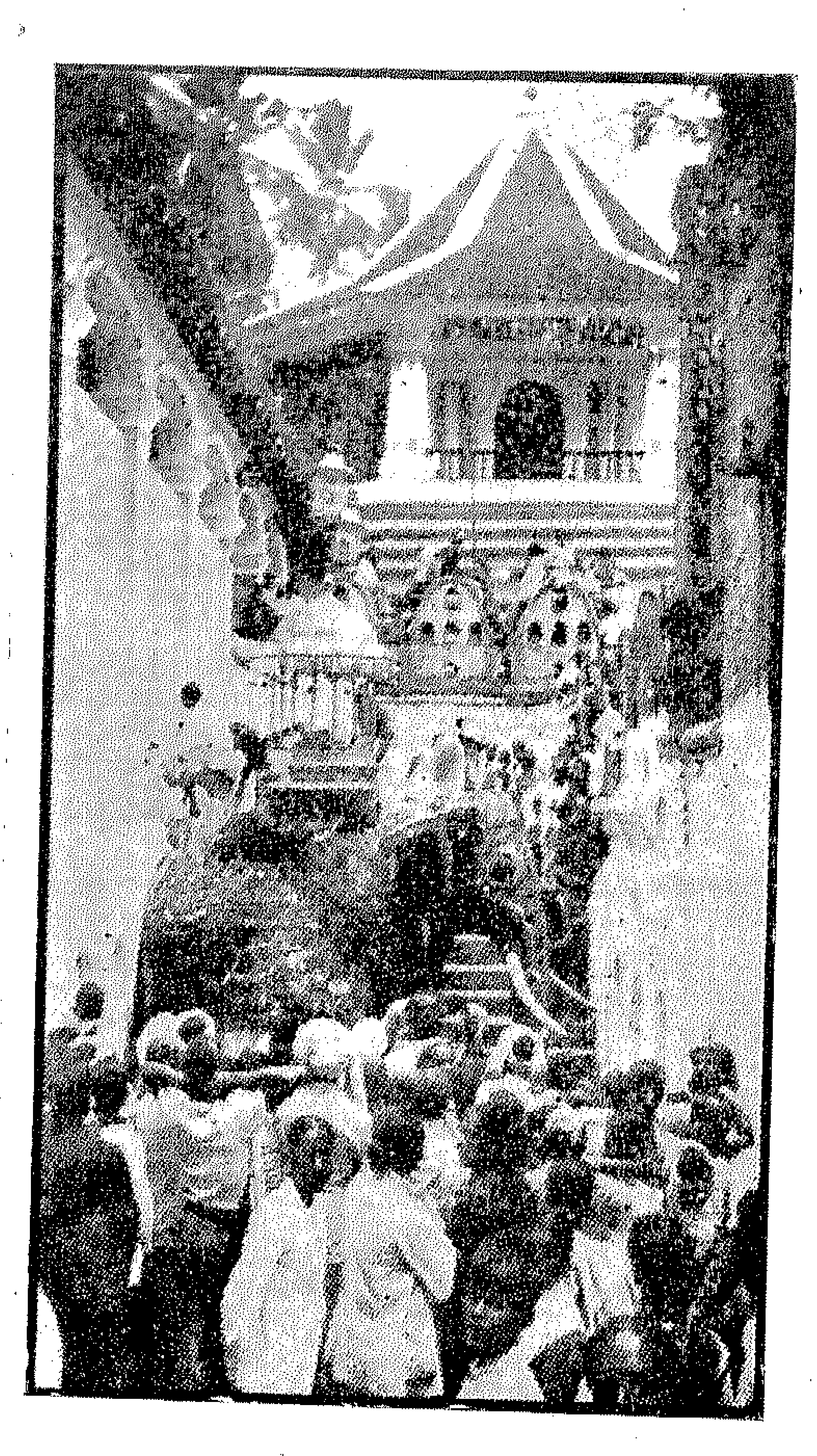
على ضفاف بحيرة كاندى المنسقة

ويحج اليه الكثير ويتسلقون المنحدرات الوعرة ممسكين بسلاسل عتيقة واذا ماوصلوا هنالك دخلوا المعبد وقدموا قرابينهم ونثروا زهورهم ثم يركع الأطفال ليباركهم آباؤهم وجباههم تلامس طابع تلك القدم المقدسة

وقبيل الوصول الى كاندى دخلنا حديقة النبات وتعد من خير حدائق الدنيا حوت كل فصائل نبات سيلان وفيها بدأت زراعة الكيناوالكاكاو والمطاط وبها من حقول التجارب والمشاتل شيء كثير أخص بالذكر منها مجموعة التوابل من بينها جوز الطيب والفلفل والقرفة والوانلا والزنجبيل وأخيراً دخلنا المدينة التى كانت يوما ما مقر ملوك السنهاليين وهى تقع فى وهدة ارتفاعها ١٦٠٠ قدم تحوطها الربى التى تكسوها الأدغال والغابات وتتوسطها بحيرة ممطوطة نسقت شواطئها أيما تنسيق وفى قلبها جزيرة صغيرة

يزينها نخيل النرجيل الأنيق ويشرف عليها نزل جلسنا فيه وتناولنا الشاى العبق اللذيذ

ولعل أشهر ما فى المدينة معبد (سن بودا المقدسة) وهو ممدود الأجنحة متشعب المقاصير ويعتقد القوم ان بودا دفن فبلى جسمه ولم تبق إلا سن واحدة أقيم حولها المعبد فى القرن الرابع عشر وأحرقه البرتغال سنة ١٥٦٠ فأبدلها ملك



معبد (السن المقدسة) وترى الفيل المقدس يحمل السن تغطيها مظلة من ذهب

كاندى بقطعة من عاج طولها ثلاث بوصات توضع فى صندوق من ذهب وعليها يقوم تمثال كبير من ذهب خالص لبودا دخلناه فراعنا منظر الحجاج وهم ركع وسجود تدر الدموع من ماقيهم وتلمس أيديهم أقدام

الاله وقد كدست حولها وريقات الياسمين فى رائحة جميلة و بعد أن ابتاع كل منا سلة الياسمين تسلمها القسيس فنثرها عند تمثال الاله ، ومما زاد المكان رهبة الطبول المزعجة التى كان يقرعها القوم فى ردهة المكان ودخلنا مكتبة المعبد التى حوت جميع تعاليم بودا يكتب غالبها على شرائح بيضاء من لفائف نباتية ناعمة الملمس كأنها و رق البردى يلف غالبها بالحرير تحوطه أسلاك الذهب وقضبان الفضة و يقال ان المعبد أجل معابد بودا وأكبرها على الاطلاق و فى أغسطس تقام حفلة بيراهيرا حين تحمل السن المقدسة على هودج من حرير مرصع تغطيه قبة من ذهب فوق ظهر فيل يبالغون فى تزيينه يتبعه قطار من ٦٢ فيلا أخرى وتفرش له الأقمشة لكيلا يدنس وحل الطريق طهارة مايحمله والديانة البودية هى السائدة هناك

الى الهند : قمت من محطة كولمبوصوب شمال الجزيرة ولبث القطار زهاء ١٢ ساعة يسير فى أراض جبلية كثيرة النبت ، ولما أن قار بنا الطرف الشمالى للجزيرة انفسحت سهول جافة رملية ، وكنا نرى أحواضاً كبيرة يدخر فيها القوم الماء فيرتوى منه أهل القرى طوال العام و يبلغ عددها اليوم ٥٢٠٠ تقوم باصلاحها مصلحة الأشغال وكثير منها يرجع الى العصور القديمة تحت شعوب (السنهاليين) جنوبا (والتاميل) شمالا وهما الشعبان السائدان فى الجزيرة ولكل لغته الخاصة وفى البلاد أقلية من العرب المسلمين بيدهم غالب التجارة فهم هناك أشبه باليونانيين عندنا فى نشاطهم ، وأخيرا بدأ البحر وعبر القطار قنطرة طويلة الى جزيرة (مانار) وهناك غادرنا القطار



عروس سنهالية صغيرة فى كامل زينتها
وتقرأ فى وجهها الملامح العربية

وحللنا السابحة التى سارت بنا فى بحر غابت عنا سواحله ساعتين وكنا بجانب جسر آدم وهو مكان ضحل من البحر ترغى عنده الأمواج وكأنه الجسر ، وهنا أقبل رجال الجمارك وفتشوا حقائبنا ، ودهشت لما علمت ان سيلان ليست تابعة لحكومة الهند بل لوزارة المستعمرات مباشرة فلها حكومتها وجماركها وقوانينها الخاصة بها

ولقد هالنى وأنا فى السفينة تعدد السحن والألوان والأزياء وقد عددت من الأزياء نحو الثلاثين فالبعض يلف نصفه الأسفل بملاءة ملونة والبعض يشحذها من تحت الفخذين والبعض يرتدى سراويل وآخرون عرايا يستترون العورات فحسب وهكذا

وقد راقنى منظر غنى خلته سيدة بادىء ذى بدء لأنه كان يتدثر بملاءة بيضاء فضفاضة ويتزين بالخواتم الثقيلة فى جميع الأصابع وفى يديه السوار العريض وفى آذانه قرط لامع وفى رقبته عقد خاطف وكان يتهادى فى مشيته وكأنه الحسناء ، ويحاول الجميع التزين ما استطاعوا رجالا ونساء وتزيد زينة النساء بلبس الخواتم فى أصابع القدم كلها وبوضع قطعة من فضة فى جانب الشفة ، وأخرى فى جانب الأنف ولقد رأيت احدى السيدات الغنيات تسير عارية القدم ومن حولها الخدم حتى ركبت عربتها الخاصة . ولقد تعبت جدا فى البحث عن مساح للأحذية فلم أجد رغم كثرة أبناء السبيل والعاطلين ، والنساء سافرات وليس فى وجوههن مسحة من جمال وتتنوع أزياؤهن لكن غالبهن يتركن الجزء الأعلى من الجسم عاريا أما الأقدام فعارية على الدوام .

الهند

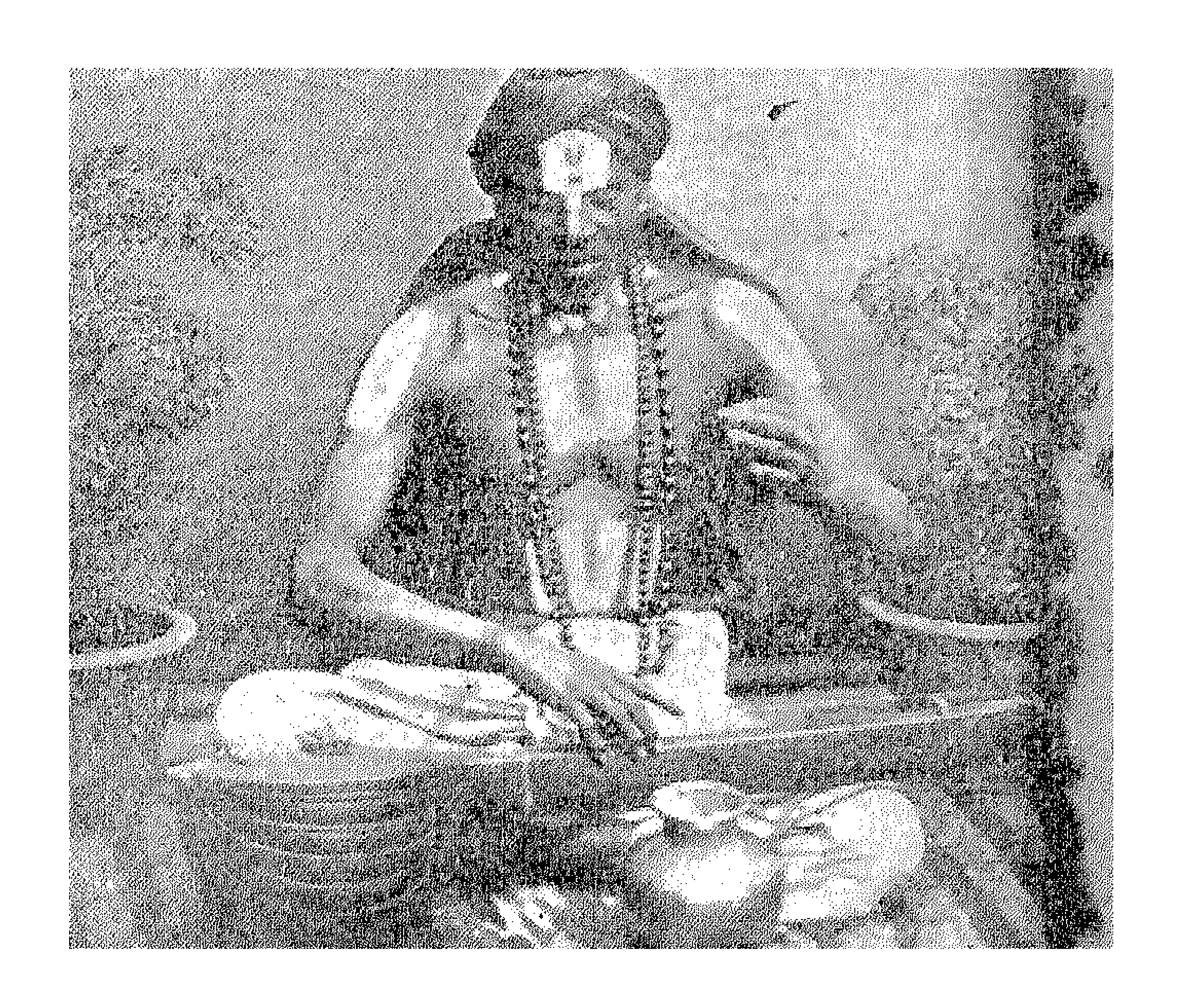
الى مدراس : وصلنا أرض الهند وانتقلنا الى قطار آخر سار بنا فى سهول رملية كأنها الصحراء غالبها مهمل عار عن النبت وكلما قار بنا مدراس زاد الخصب نوعاً وبعد ٢٤ ساعة دخلنا مدراس فبدت مدينة مقبضة ليس بها ما يروق السائح فغالب أحيائها قذر منفر أما أحياؤها الافرنجية فلا بأس بها ومن بين مبانيها الفاخرة القلعة التى تشرف على البحر بشواطئه الرملية التى لا تصلح لأيواء السفن لذلك لم يكن لمينائها شأن كبير فى التجارة وعلى امتداد طريق البحر قسم اسمه (مارينا) مستحدث التنسيق يقوم فيه

كثير من تماثيل أعاظم الانجليز وأجل أبنيته قصر نواب مدراس الذى احتله الانجليز وهو فى هندسة خليط من المغولية والعربية وبجانبه مسجد صغير أنيق والقصر اليوم خاص باجتماع مجلس السناتو

ومن الأبنية الجديرة بالذكر قصر الحاكم الانجليزى ودار القضاء والبريد والبلدية وكلها بالآجر الأحمر ولقد كدت أختنق فى هذه المدينة من شدة الحر وكثرة الرطوبة فقد بلغت الحرارة ١١٥ف وأذكر أنى دخلت أكبر متنزهاتها فلم أستطع التجول خطوة واحدة بل ركبت الركشا التى طافت بى كل أرجاء المتنزه وفى جانب منه حديقة للحيوان حقيرة جداً لا يسترعى النظر بها إلا مجموعة الأفاعى وفى المدينة متحف صغير به بعض المخلفات الهندوسية القديمة أعجبها فى نظرى (عامود الضحايا البشرية) وكان السحرة يحكمون بتضحية فرد يوثق الى هذا العامود الذى يدور حول نفسه فيهجم عليه الجمع ويقطعون من جسمه أشلاء يدفنونها فى حقولهم التى أصابها المحل وقد حرم القانون ذلك اليوم واستبدل بالضحايا البشرية بعض الحيوان على أنهم كثيراً ما يضحون بالانسان خلسة

ولقد استرعى نظرى كثرة العلامات التى يخطها القوم على جباههم تمييزاً لشيعهم ومذاهبهم الدينية المختلفة والعادة أن ترسم هذه بنوع من الرماد المقدس يحمله الناس معهم فترى التخطيط أفقياً أو رأسياً ومزدوجا أو مضاعفاً وقد تتخلله نقط حمراء مما يزيد فى أشكالهم قبحاً .

والمغالى فى تدينه يلطخ وجهه وصدره وذراعيه فتصور مبلغ فظاعته اذا



زعيم برهمى يستجدى وهو يعزف على قيثارته
وقد لطخ جسمه بالتراب المقدس

ما أقبل عليك وحدق فيك بعيونه الغائرة وجسمه الناحل الهزيل ولونه الأسود البراق ، على انى لم أعجب مذ علمت أن مقاطعة مدراس معقل الدين البرهمى فسكانها ٤١ مليوناً يدين غالبهم بتلك العقيدة وعدد القسس من البراهما فى هذه المقاطعة وحدها مليون ونصف يعيشون عالة على غيرهم يتقاضون ضرائب من الناس جميعاً فى مناسبات شتى من بينها : ميلاد الطفل مخافة ألا يطول عمره ، عندما تكون سنه ١٦ يوما حين يغتسل بالماء المقدس ، عند تسميته ، عند حلق شعره ، فى تمام الشهر الثالث ، عند بدء تناوله للطعام

فى الشهر السادس ، عند ما يبدأ المشى ، عند تمام السنة ، فى نهاية السابعة حين يبدأ تعليمه وهنا يكتب له البراهما بالذهب على عصوين يمسك بهما فى يديه ثم يأخذهما فيما بعد لنفسه ، عند عقد الزواج وهنا تدفع له مبالغ طائلة وعند بلوغ سن الرشد ، عند البرهميون وأفانينهم فى الاستجداء على قارعة الطريق حدوث خسوف أو كسوف ، عند الموت حين يحضر ليبارك الجثة ، عند حرق الجثة ، بعد ذلك يولم ابن المتوفى للبرهما وليمة كل شهر لمدة عام وتقدم الهدايا والملابس الى جانب الطعام ، بعد ذلك يكرر هذا مرة كل سنة حتى يموت الابن . كل تلك حقوق للبرهما واجبة الأداء وإلا خسر الجنة هكذا كانت قصة هندى متعلم وكان يرويها وهو فخور بدينه

نظام الزواج : ومما أثار اهتمامى الزوجات الصغيرات اللاتى كن

يحملن أطفالا نحالا لا يزيد وزن الواحد على أربعة أرطال أو خمسة وكنت أخالهن يحملن أخوتهن لا أبناءهن لكني دهشت لما علمت أن زواج البنت يبدأ من سن الثامنة فان تأخرت الى الثانية عشرة عد بقاؤها عارا لا يمحى ودل على وجود عيب فيها ولذلك لم يكن عجيباً ما يبدو من جسمها



الزوج العملاق الى جانب زوجته
ولم تبلغ سنها العاشرة

الضئيل وبنيتها الضعيفة لصغر سنها من جهة ولأنها من سلالة ضعيفة مثلها ، أما الزوج فقد يكون طفلا مثلها وقد يكون كهلا أنهكت السنون قواه وفى الحالين هو غير صالح إلا لانتاج نسل بائس ضعيف وهم الزوجين أن يخلفوا من الابناء ما استطاعوا وبخاصة الذكور لذلك فان الأم لاتجد لها حديثاً أمام أطفالها إلا ما يتعلق بالزواج فتنشط بذلك الميول الجنسية بين الأطفال

وتفسد أخلاقهم عاجلا وهذا يخلف أثره السيء فى قوى النشء العقلية والجسمية ، والزواج المبكر عند الهندوس واجب لأن فيه عصمة من الأمراض وتعجيلا بالخلف من الذكور ذاك الذى يعده الآباء شرف العائلة وقد نسى القوم الأثر السيء لذلك فى أضعاف الذرية وانهاك القوى الحيوية ولذلك ليس بعجيب أن ترى الهندى فاقدا لتلك القوى عند بلوغه الثلاثين كما أثبت الاحصاء الطبي ذلك ولهذا لجأ الكل الى تناول سموم المخدرات (خصوصاً الحشيش والأفيون) والمقويات التى يعلن عنها فى جميع جرائدهم بشكل فاضح مخجل حتى أن الحكومة كثيراً ما تصادر بعض الجرائد لجرأتها على هذا النوع من الاعلان وكثيراً ما كنت أرى من المدمنين على تناول الأفيون والحشيش يركنون الى الجدران فى كل مكان بشكل قذر خامل وكأنهن الذباب

وكثير من النساء هناك عقيمات وقد أيد البحث أن ذلك راجع الى ضعف قوى الرجال من جهة والى تشويه الرحم من أثر الزواج المبكر من جهة أخرى وكثيراً ما يلجأ الرجال الى المعابد فيرسلون اليها زوجاتهم بالقرابين كى يمن الله عليهن بالحمل وفى العادة تظل المرأة هناك أياماً فينوب القسيس عن الآلهة ليلا فيبارك المرأة وتعود وهى حامل ولعل أسوأ نتائج هذا الزواج المبكر تقصير العمر خصوصاً بين النساء وكثرة الموتى من الأطفال فمتوسط العمر فى بلاد الهند ٢٣ سنة ويموت من الزوجات فى كل جيل ٣¼ مليونا تسعون فى المائة منهن بسبب التهاب الرحم

ومن العادات العجيبة أن الآباء قد يهبون المولود القادم للآلهة ابتغاء مرضاتها فاذا كانت أنثى سلمت لنساء المعبد واذا شبت علمت الغناء والرقص واذا ناهزت الثامنة أضحت خليلة أحد القسس واذا ملها أضحت راقصة المعبد وفى مواسم الحج يستأجرها بعض الحجاج فاذا ماذبلت محاسنها يمنحها المعبد جعلا صغيراً وتترك المعبد ولا يرى أهلها فى كل ذلك معرة لأنها اكتسبت اسم (عاهرة الآله Devadassis) وهؤلاء من مستلزمات المعابد كلها .



المحراب الرئيسى فى المعابد الهندوسية

ويوصى الدين البرهمى بأن الزوج آله الزوجة فى الأرض خلقت لسروره وخضعت له مهما فسد جسمه أوخلقه أوعقله ولابد أن تطيع حماتها ويا ويلها منها أن لم تعقب طفلا أو عقبت أنثى فلها أن تستعبدها عندئذ لذلك كان عدد

المنتحرات بين سن ١٤ و ١٩ مروعا واذا مات زوجها حتم الدين أن تحرق جثتها معه (Suttee) وإلا كانت موضع اللعنات ولم يبح لها شيء من السرور ولا تتزوج ثانية بل تحلق رأسها وتقصد أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية ويجب ألا تظهر كثيراً أمام الناس لكيلا يؤثر فيهم نحس طالعها وفى إحصاء سنة ١٩٢٥ بلغ عـدد الارامل فى الهند ٨٣٨ر٨٤٣ر٢٦

الوضع : وبمجرد شعور الحامل بألم الوضع تنبذ فى غرفة ضيقة مظلمة ولا يقترب أحد منها قط لأنها أصبحت نجسة وفى الحال تأتى المولدة (دايه) وهى من الطبقات النجسة البائسة فترتدى أقذر اسمالها وتسد المنافذ وتحرق الحطب لأن الدخان والحرارة تساعد على سرعة الوضع واذا دخل الحجرة غريب احرقت بخوراً منتن الرائحة لمنع أثر العين الخبيثة وتباشر عمليتها بأيديها القذرة وتحاول اخراج المولود بالقوة فتشبع بطن الأم لكما بالأيدى والرأس وقد تطرحها أرضا وتمشى على بطنها وتضع فى الرحم كرات من مواد حريفة ، وقطعا من شعر الماعز وأذناب العقارب وجلود الافاعى وما اليها واذا تم الوضع لا تجرؤ المولدة أن تقطع الحبل السرى لأنه من عمل امرأة أخرى أحط درجة من المولدة فتنتظرها حتى تجيء أما الطعام فيمنع بتاتا عن الأم بين أربعة أيام وسبعة ويظهر أن السبب الأصلى ألا تصاب أواني المنزل برجس

وكثيراً ما تتعسر الولادة بسبب ضيق عظام الرحم نتيجة الزواج المبكر

فتموت الأم فاذا رجحت المولدة موتها عجلت بتكحيل عيونها بمسحوق الفلفل لكى تعمى الروح فلا تستطيع الخروج والمكث فى الدار ، وقد تمد ذراعيها وتدق مسماراً يثبتهما فى الأرض لكيلا تستطيع الروح التجول فى المنزل ومضايقة الأحياء .

الى كلكتا: قمت من مدراس — تلك البلدة التى أحمل لها أسوأ الذكريات — صوب كلكتا فاخترق القطار قنطرة على نهر جودفرى طولها زهاء خمسة كيلو مترات تحتها نهر لايكاد يجرى له ماء إلا فى نقائع بينها جزائر رملية وكان وقتئذ فى زمن غيضه ويظهر أن النهر هو الحد الفاصل بين جنوب الهند وشمالها لأنى لاحظت تغييراً فى كل شىء فى سحن الناس التى بدأت تتحسن قليلا وفى أزيائهم التى بدأت أتلمس فى ألوانها بعض الذوق وفى المناظر التى بدأت تزداد ثروة وخصباً وفى النشاط النسبى الذى بدا على القوم فى حقولهم مذ كنت أراهم يعدونها لاستقبال الأمطار الموسمية وكان أكثر النشاط من جانب النساء أما غالب الرجال فكنت أراهم مستلقين على الارض نياماً ويتجلى كسلهم فى عدم اهتمامهم باستغلال أرضهم إلا مرة واحدة عقب المطر

أما نظم الرى بقنواتها ومساقيها فلا تكاد توجد رغم ما نعرفه من الخصب الشديد فى التربة الهندية ، أخذت المسايل المائية والجداول العديدة تزداد كثرة كما تقدمنا شمالا الى ذلك تعدد القرى التى لم نر منها فى الجنوب إلا القليل ، ثم دخلنا مقاطعة بنغالة — أهم المقاطعات وأزحمها سكانا مذ بلغ

أهلوها ٤٧ مليونا وهنا زادت الأدغال والاحراش فى كل مكان وتوافر النبت وكثرت الغدران والنقائع كثرة تلفت النظر على انا لم نعجب مذ علمنا أننا نتقدم الى دلتا الـكنج العظيمة

أما القرى الـكثيرة التى يزيد عددها فى الهند البريطانية على نصف مليون فـكانت تبدو بيوتها مقامة من طابق واحد بنى بالطين الذى يستمده القوم من حفرة يملؤها المطر فتصبح مستمدهم من الماء ومستحمهم ومسقاهم هم وماشيتهم وتحيطها البيوت القليلة والبيت يبدو فى شكل مستدير حقير يعلوه سقف مخروطى تـكسوه الاخصاص من مختلف النبت خصوصاً سعف نخيل (بالميرا) وتهوية البيوت فاسدة يقطنها عدد كبير ويزيد الجو وخما ووباء ما يتربى على البرك من الباعوض الذى يحمل مختلف الأمراض وقد كنت أوجس خيفة طوال تجوالى فى مدراس و بنغالة كما ذكرت أن هذا الجزء وبخاصة بنغالة السفلى أكبر مربى للأمراض الخطيرة كالملاريا والـكوليرا والطاعون تلك التى يموت بسببها عدد مخيف بين سنة وأخرى أذكر أن من ماتوا هناك بالطاعون منذ سنة ١٨٩٦ أحد عشر مليوناً ويساعد على انتشاره هناك تحريم الدين البراهمى قتل الفيران التى تحمل البراغيث المعـدية ويموت بالملاريا سنويا مليون كذلك مرض الدودة الخطافية (كالانـكلستوما هنا) المتفشى بسبب سيرهم حفاة الأقدام حسبما تقضى التعاليم البرهمية وقد دل الاحصاء أن ٨٠ ٪ من سكان مديرية مدراس و٦٠ ٪

من بنغاله مصابون به أعنى نحو ٤٥ مليونا من الناس والديدان تحل الأمعاء وتمتص الغذاء والدم فيضعف إنتاج الشخص كثيراً حتى قدرت الخسائر المالية بسبب عجز هؤلاء عن العمل بنحو ٤٠٠ مليون جنيه

فالهند فى نظر العالم أكبر خطر لنشر تلك الأمراض ويرى الاطباء أن أهلها قد اكتسبوا شبه مناعة لطول مكثهم فى ذاك الجو الوبئ لكنهم جميعاً حملة الأمراض للغير وهنا الطامة الكبرى . أما من يموت من الهنود فى كل عام فسبعة ملايين أى بقدر نصف سكان القطر المصرى وعدد الموتى من الهندوس أكثر منهم فى المذاهب الأخرى مما يثبت قلة مقاومتهم للمرض وهذا لاشك ناشىء من افتقارهم للتغذية لأنهم نباتيون ويحرمون أكل اللحوم ومما زاد خطر الأمراض وفتكها هناك تشككهم فى الدواء الأوروبى مخافة احتوائه على مستخرجات اللحوم المحرمة وهم يعتقدون أن المرض أثر من آثار الجن التى يجب طردها بالبخور وتقديم القرابين .

روى لى شاب هندى متعلم قصة إخراج العفريت من جسم الطفل المريض فقال إن القوم يلجأون إلى قرد يعلق موثوقا الى فرع شجرة وينزلون عليه ضرباً وتعذيباً فيجن القرد ويصيح صيحات مزعجه وعندئذ يحمل الطفل قريباً منه كى تذعر عفاريت المرض التى فى جوفه وتولى الأدبار

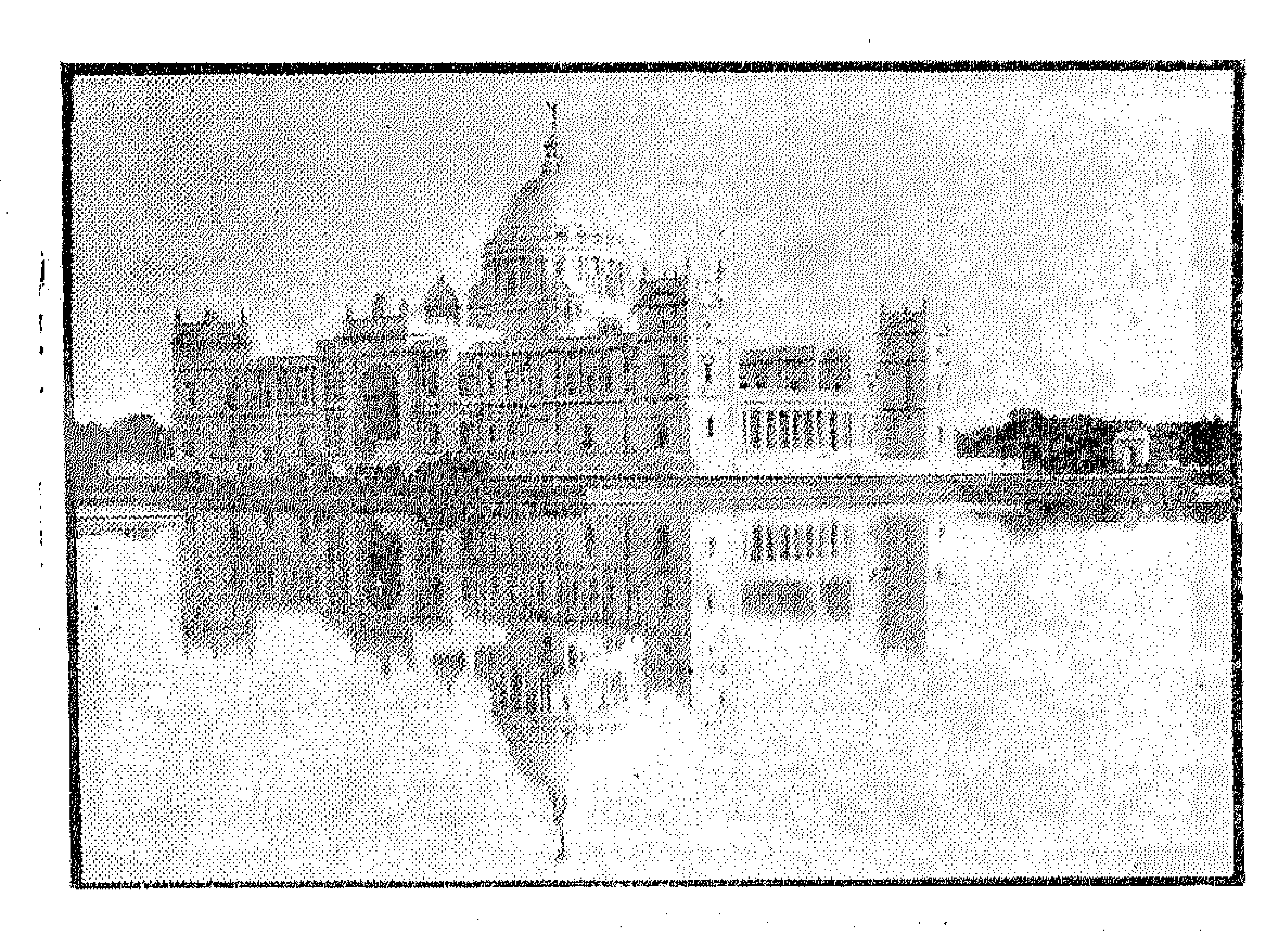
الى ذلك خطر روث البقر الذى تضمد به الجراح فى كثير من الجهات

كلكتا : دخلنا كلكتا بعد سفر ٣٨ ساعه متواصلة واسم المدينه مشتق من كلمتين قالى (اسم الآلهه زوج سيفا) ، غات (مرسى أومدرج)

وقيل أنه مشتق من (جُلجوتا) ومعناه مكان الجماجم فهى مقر الحميات وبخاصه الملاريا لكثرة المناقع حولها ولفساد الحالة الصحيه فى مساكنها التى ضاقت بأهلها بحيث يقطن الغرفة الواحدة المختنقه فى المتوسط شخصان على أنها رغم ذلك تعد العاصمه الاقتصاديه لبلاد الهند فهى ثانيه مدن الامبراطوريه البريطانيه سكانها فوق مليون وربع وهى عاصمه بنغالة أغنى المقاطعات بالانتاج (خصوصا اليوت والأرز) وأكثفها سكانا فهم يبلغون ٤٧½ مليونا (أعنى ثلاث مرات ونصف قدر مجموع القطر المصرى) نصفهم من الهندوس والنصف من المسلمين ولايكاد يفرق المرء فى الشكل بين الجميع ويزيد تجانسهم أنهم جميعاً يتكلمون اللغة الهندستانيه التى يخالها البعض اللغة القومية للهند لأنها أكثر اللغات ذيوعا مذ يتكلمها خمسون مليونا

حللت المدينة فراعنى سيل الناس الدافق فى كل الارجاء ولقد كان القوم يفترشون أرض محطة السكة الحديدية على اتساعها العظيم الذى يقرب من اتساع ميدان محطة مصر فلم أشق طريقى بينهم الا بجهد كبير والقذارة تبدو فى كل مكان والروائح المنتنة تتصاعد بدرجة منفرة وقد عبرت قنطرة (هوارة) على الهوجلى وهى فى عرض قناطر النيل عندنا على أنها أقيمت من الخشب ترفعه عوامات تطفو فوق الماء بدل القوائم الحجرية عندنا ، لذلك كانت كل جوانب القنطرة فى حركة مستمرة حسب مد الماء وجزره ولقد وقفت هنا برهة فكاد يكتسحني سيل المارة الذى لم أدر مصدره ، فقصدت من فورى جانب المدينة الممتاز المسمى (الميدان) وهو متسع عظيم

ذرعه ميلان فى ميلين تطل عليه المبانى الفاخرة وتتوسطه المتنزهات المتسعة المترامية تقوم فى أرجائها تماثيل سامقة لعظماء الانجليز وأجدر المبانى بالذكر دار الحاكم العام التى تبدو فى جلال وعظمة يقابلها من الجانب الآخر أثر



البناء التذكارى للملكة فكتوريا يزين جانب (الميدان)

فكتوريا أقيم من الرخام الأبيض فى عظمة تبهر النظر من عمد وأبهاء و بوائك ودهاليز وتعلو فناءه الرئيسى قبة كبرى وهنا ترى تماثيل عظماء الانجليز الذين اشتركوا فى فتح الهند وفى طليعتهم (كليف) وأمامه المدافع التي غنمها من الفرنسيين وغيرهم فى واقعة (پلاسى) وترى بعض الصور الزيتية الكبرى لملوك انجلترا الى ذلك ترى بعض ملابس الملكة فكتوريا ومكاتبها ومخلفاتها الذهبية وكذلك جميع الوثائق الرسمية التى تبودلت بين

الحكومة الانجليزية وأمراء الهند منذ فتح البلاد الى اليوم وفى خارج البناء حديقــة نسقت أيما تنسيق يزينها تمثال فكتوريا ، ولقد أقيم هــذا الأثر تذكارا لتولى فكتوريا أول امبراطورة للهنــد واشترك فى اقامته كبراء الانجليز والهنود وبلغت اكلافه خمســة ملايين من الجنيهات وقد وضع حجره الأساسى جورج الخامس سنة ١٩٠٦ وتم ســنة ١٩٢١ وفى جانب من الميدان القلعة وتسمى فورت وليم على اسم وليم الثالث وتقوم دار البريد الفاخره اليوم فى مكانها القديم بعد أن نقلها (كليف) الى مقرها الحالى وهو أكثر منعة وقوة . والى جانب دار البريد يقوم نصب أبيض دقيق فى مكان الجحر الاسود وقد كتب عليه اللورد كرزون أسماء بعض من ماتوا فيه احياء لذكرهم ، وقد كان هذا الجحر سجناً من سجون سراج الدولة نواب بنغاله زج فيه ١٤٦ جندياً يوم ٢ يونيه ســنة ١٧٥٦ ، فاختنقوا فى ليلة واحدة ولم يبق منهم فى الصباح



أمام النصب التذكارى الذى أقيم فى موضع (الجحر الاسود) فى كلكتا

سوى ٢٣ وذلك لضيقه (١٤ × ٢٢ قدما) وقلة نوافذه فأهاج ذلك غضب الشعب الانجليزى وهب ينتقم لهؤلاء وكان هذا الحادث خير حافز للانجليز أن يبسطوا نفوذهم هناك

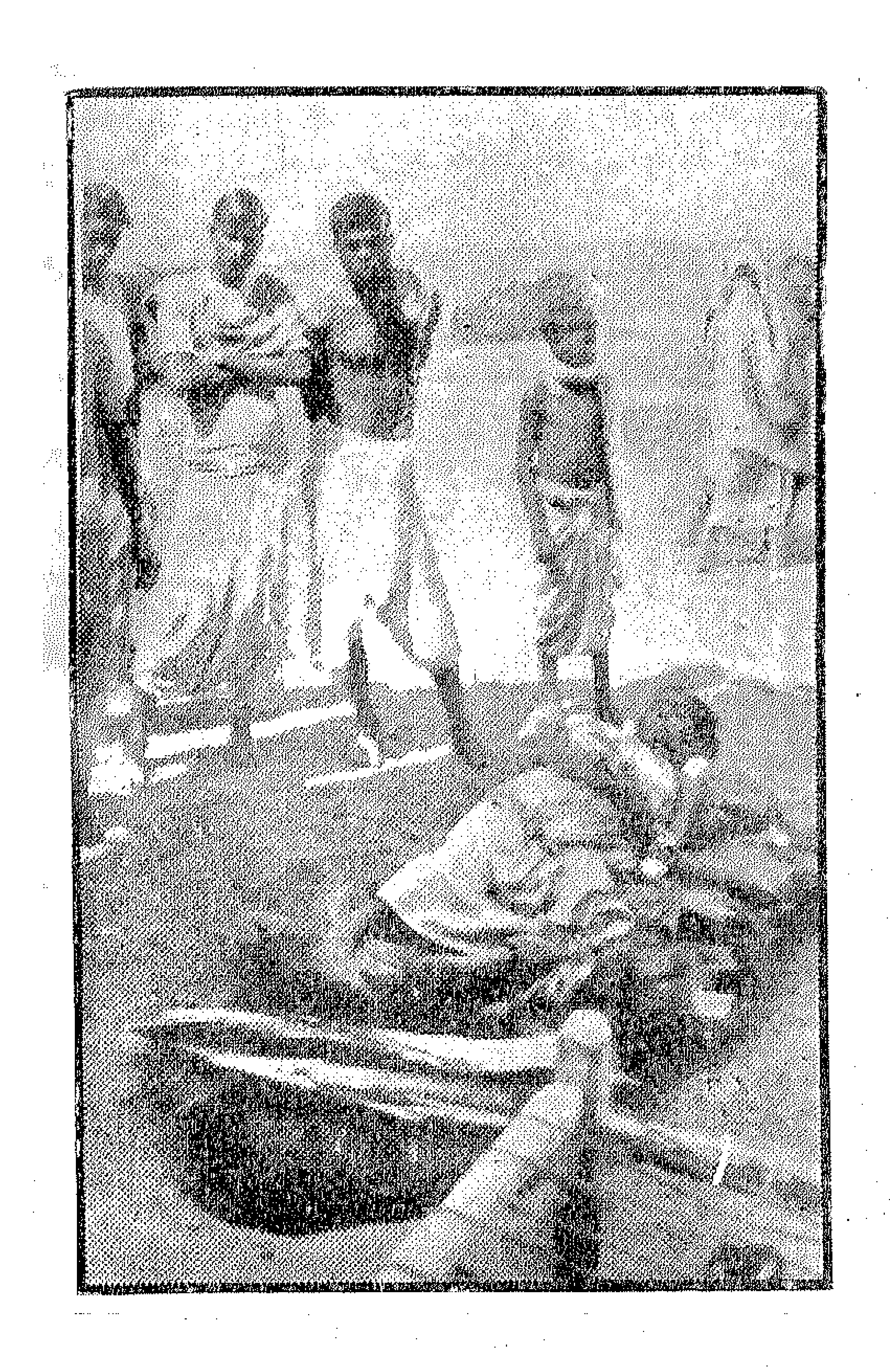
وفى ركن من الميدان حديقة (Eden) على اسم سيدة كانت تملكها ثم أهدتها للحكومة وهى آية فى الابداع تشقها مسايل الماء وتتخللها النقائع والمقاصير التى يبدو بعضها فى هندسة (الباجودا) الصينية وعلى مقربة منها حديقة النبات وبها مجموعة قيمة من النبات وبخاصة فصيلة النخيل ولعل أشهر مابها شجرة (banyan) أكبر أشجار الدنيا عمرها ١٥٥ سنة ومحيط جذعها الرئيسى ٤٤ قدماً ولها فوق ٦٠٠ جذر هوائى تشغل حيزاً ذرع محيطه ١٠٠٠ قدم ومنها أخذت جميع حدائق الدنيا الشيء الكثير وفيها جرب الشاى ثم نقل الى الهملايا وأسام

ومن الأبنية الفاخرة دار الجامعة التى يبلغ عدد طلابها ٢٦ ألفاً وهذا العدد يفوق جميع طلاب جامعات انجلترا مجتمعة وقد اتخذت جامعة لندن نموذجاً لها على أنها كانت معطلة عند ذاك وقد قابلت أستاذين من أساتذتها الانجليز وتحادثنا بشأنها طويلا وعلمت منهما أن موسم الدراسة لايعين بدؤه ألا عند بدء نزول الأمطار تلك التى يخفف نزولها من هجير الحر ولقد تأخر افتتاحها هذا العام لتخلف المطر نحو أسبوعين عن ميعاده المعتاد

قمت بجولة فى الأحياء الوطنية المترامية فكنت أشق طريقى فى جو وخم ووسط منفر قذر تترامى الأكاديس الآدمية بجانب الجدران وهم عرايا

وفى بؤس مبيد يبصقون فى كل مكان ويبولون على جوانب الطرق حيث أقيمت المجارى لتصرف ماء المطر عنهم وأخيراً أدى بى التجوال إلى معبد قالى : وهى زوج سيفا آله التدمير وسفك الدماء وفى أقاصيصهم أنها قطعت اربا بأمر الآلهة فسقط أصبع لها فى هذا المكان وفى قرار المعبد الذى لا يدخله إلا أتقياء الهندوس تقوم الآلهة فى تمثال يزين جيده عقد من جماجم بشرية وبيدها رأس آدمية دامية وفى الأخرى سيف وهى تطأ أجساداً آدمية ولها لسان أحمر بارز ونطاق من أيد وألسن بشرية بدا لنا ذلك ونحن نطل من خارج المعبد وقد علمنا ان لتلك الآلهة معابد عدة فى أرجاء الهند لها أوقافها الغنية ويحج اليها جماهير الهندوس يسجدون ووجوههم إلى الأرض تحت أقدامها والقسس يرتلون أقاصيص عن (قالى) وكانت تقدم الذبائح لها من أجساد بشرية لكنها أبدلت اليوم بالجديان ، أذكر موقفى أمام المعبد وقد أمسك القسيس بالجدى وطرحه أرضاً وسرعان ماتقدم رفيقه ففصل رأس الحيوان بسيفه بضربة واحدة سال على أثرها الدم تحت أقدام الآلهة وصاح القسس منادين (قالى قالى قالى) مرات عدة وهنا أسرع بعض النسوة إلى الأرض يلعقن الدم كى يمن الله عليهن بمولود والبعض أخذ يبلل منه خرقاً يضمها إلى صدره العارى وعلمنا أن عدد الذبائح تتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ فى اليوم

وفى مقاصير المعابد وأزقتها يصطف جماهير من الاولياء فى أشكال قذرة منفرة وجسوم ممتلئة عارية ولحى ورؤوس كثة يعاف المرء النظر اليها وكلهم من المتسولين وفى ناحية أخرى من المعبد محرق الجثث وهو بسيط من الأرض


جثة عروس فوق محرق الموتى فى معبد قالى فى كلكتا

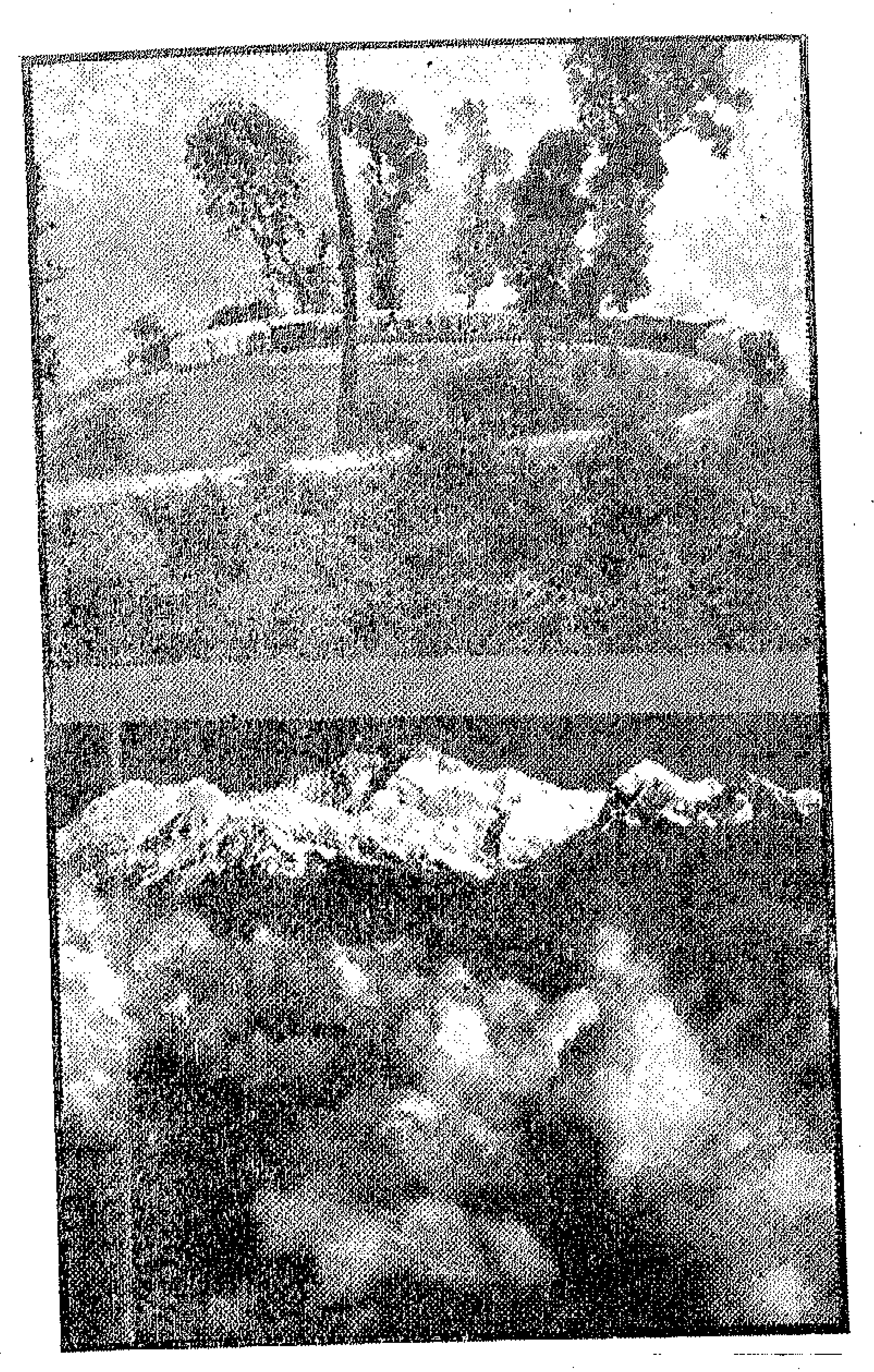
تتوسطه وهدة مستطيلة فى شكل الجسم ويبطن أسفلها بالخشب وكنا نرى الى جانبه جثة سيدة لا بأس بملامحها وقد خضبت قدماها ويداها وجبهتها بالحناء ودثرت رداء أحمر ، وعلمنا أن هذا دليل على سعد طالعها مذ ماتت قبل زوجها ولم تصبح أرملة بائسة وكان يحوطها جمع من أقربائها وبعض النائحات المأجورات وجمهرة من المتسولين وسرعان ما حملت الجثة ووضعت على الحطب وكدس فوقها حطام الخشب وهنا تقدم أقرب الناس اليها وكان ابنها وأمسك بشعلة وطاف حولها سبع مرات ثم ألقى الشعلة على كومة الحطب فالتهمت كل شيء ما خلا جزءا من عظمة القص وتلك التقطها بعض القسس ووضعها فى كرة من طين الى جانب

قطعة من ذهب يقدمها أهل الفقيدة وألقاها القسس فى النهر أسفل المكان

وهنا كنا نرى جماهير الناس يغتسلون فى مائه ليطهروا من ذنوبهم ، وكان بعضهم يغترف من الطين ويفحصه عله يعثر على بعض القطع الذهبية التى تلقى فى النهر مع بقايا الموتى ومن الناس من يغسل الجديان قبل تقديمها للآلهه ومنهم من يملأ أوانى من ماء النهر المقدس ليصبه على قدمى (قالى) داخل المعبد فيسيل الى عين يتلقف الماء منها جمهور الزائرين ويحتسونه تبركا على ما به من أوضار وهم يؤثرونه على ماء النهر لأن اقدام الآلهه قد زادته طهرا ، ومما زاد المنظر قذارة أن غالب عباد سيفاوقالى من الطبقات الفقيرة أما الأغنياء فآلهم (فشتو) وله معابده الخاصه

الى دار جيلنج : قمنا بعد الغروب فوصلناها ظهر اليوم التالى (ومعنى دار جيلنج مقر الصواعق) ولبثنا الليل كله نخترق سهول شرق بنغالة كثيرة المناقع كثيفة العشب الزاحف الذى يكافحه القوم فى جهد شديد ليفسحوا مجالا للغلتين الرئيسيتين : الأرز ، اليوت والشجر لا ينقطع واظهره المانجو والنخيل والبامبو وقد عبرنا السكنج بقنطرة (سارا) الهائلة التى تعد من الاعمال الهندسية الجليلة وقبل أن نصل الجبال مررنا بمنطقة (دوارز) وهى من مزارع الشاى الهامة وعند محطة صغيرة اسمها (سيليجورى) ركبنا قطار الجبال الصغير الذى قطع بنا ٥١ ميلا فرفعنا الى نحو سبعة آلاف قدم وهو يتلوى فى صعوده الوعر ولذلك لم أعجب لما علمت أن اكلاف الميل الواحد من هذا الخط بلغت ٣٥٠٠ جنيه وكنا نسير أسفل الجبل فى حقول للشاى

لا آخر لها دخلنا بعدها وسط الغابات الكثيفة وكان أظهر شجرها خيزران البامبو الذى يناهز علو قصبه الثلاثين مترا وهنا علمنا أن النمر ووحيد القرن والجاموس البرى تمرح بكثرة هائلة أما مساقط الماء فحدث عن جمالها وكنا كلما علونا تغير النبت فكثرت أشجار البلوط والتوت ثم تبعتها أشجار



قمة كنتشنجنجا ثانية ذرى العالم علوا ويرى فوقها قطار المرتفعات فى لياته العجيبة

اللوز والخوخ بزهورها البديعة ثم فصائل من الصنوبر والسرخس

وعند ما دخلنا دار جيلنج ألفيناها كالوهدة وسط الجبال وتكاد تغطيها أشجار الصنوبر أما جبالها المحيطة بها فقد ذكرتنى بجمال سويسرا لكنها فاقتها فى الضخامة والعلو الشامخ فحولها عشرون ذروة علو الواحدة



عجوز وشيخ وفتاة من سكان هملايا

يزيد على عشرين ألف قدم وأبهاها طلعة وأجلها روعة : (كنتشنجنجا) ثانية ذرى العالية علوا (٢٨١٥٦ قدم) وتكسو الكل عمائم الثلج الوضاء وتحف بجوانبها كومات من دخان أبيض هو سحاب السماء يجلو تارة و يثقل أخرى

أما قمة افرست فلا تبدو من دار جيلنج بل من محطة تبعد عنها بنحو سبعة أميال وتسمى (تل النمر) يصعد المرء اليها محمولا على الركشا يجرها رجلان أو على كرسى يحمله أربعة أو على مهر صغير ، ومنها تبدو روعة افرست أعلى ذرى الدنيا (٢٩١٤١ قدم) تلك التى يطمع فى ارتقائها الكثير من رواد الجبال ، لكن عبثا يحاولون ففيها من الوحشة ووعورة المسالك مالا يمكن اختراقه ، ولقد ظلت القمة طوال الوقت تغطيها حجب كثيفة من

السحاب الذى لم تكد تستبين خلاله

أما سكان دارجيلنج فاخلاط من الهنود وأهل الجبال نخص منهم النباليين والبوتانيين والجركا الذين يختلفون اختلافاً بينا عن الهنود فى لونهم الأصفر الشاحب وسحنهم المغولية وقاماتهم الصغيرة وغالبهم بوديون من اشياع قسس (اللاما) فى التبت ولهم هناك معابد عدة يصلى القوم فيها وسط رقصة اللاما وصبيتهم وهم فى أرديتهم الصفراء الفضفاضه وقبعاتهم التى تحكى منقار الببغاء وفى بعض المعابد يلبسون أزياء العفاريت برؤوس عجيبة ووجوه مزعجة وهم فى شذاجة الهندوس وقذارتهم لولا ما أحاطهم من هواء جبلى عليل و بيئة صحية بليلة

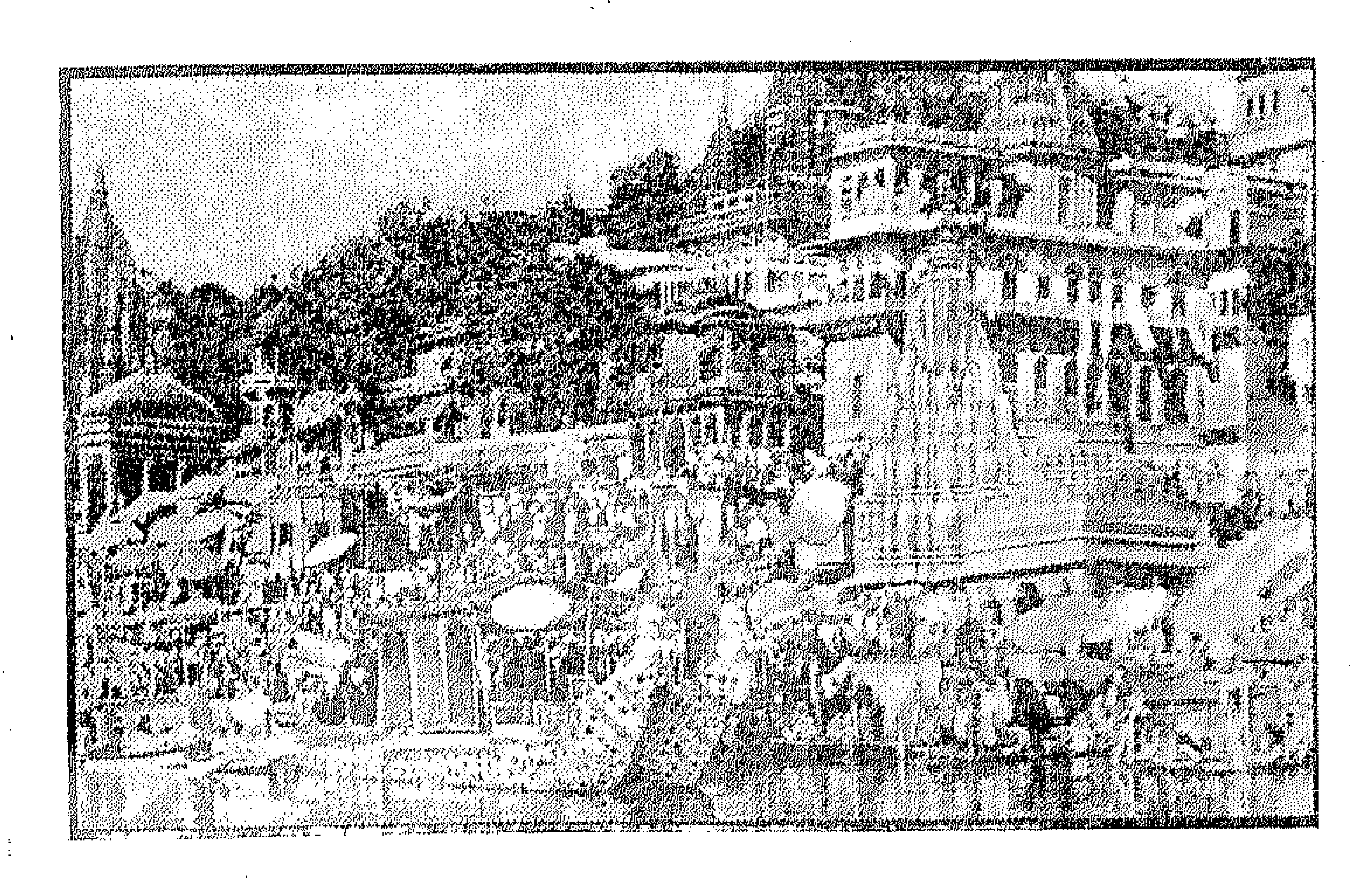
الى بنارس : بعد أربع عشرة ساعة من مغادرتنا كلكتا وصلنا بنارس وكنا نسير فى سهول صفراء جافة يعدها القوم بالحرث استقبالا للمطر وكنا نخترق كثيرا من مزارع الكنبج الصغيرة وكان بعضها كامل الجفاف بحيث بدا وكأنه الصحراء وكان الجو متربا قائظا لافحا يحكى جو أقاصى صعيد مصر فى هجير الصيف بل و يزيد

بنارس (كعبة الهندوس) : لعل بنارس هى خير المدن التى تتمثل فيها الهند بأجلى مظاهرها اذ لم يكد يدخلها من المستحدثات شىء قط فهى مقر الزهاد والحكماء والخيرين والمتدينين من الناس الذين تبدو لنا عقائدهم كأنها خرافات ولا يسع من يرى أولئك ألا أن يعطف عليهم و يتألم للسعادة الموهومة التى هم فيها وهى تفاخر بأنها أقدم المدن المقدسة فى

العالم لأنها كانت مقدسة قبل أن تخلق روما بقرن وهى أقدم من مكة المكرمة بألفى عام وكانت من المدن الهامة فى سنة ٥٥٨ ق م ولقد اختارها بودا بعد ذلك بقليل مقراً لتعاليمه ولقد أغار عليها جيش المسلمين سنة ١١٩٤ وأباد كثيراً من معابدها وأقام المساجد فى مكانها وظل يدمر فى مبانيها القديمة حتى انك لاتكاد ترى اليوم بناء أقدم من عهد الامبراطور (اكبر) أى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر وفى أقاصيصهم ان المدينة أقيمت من الذهب الخالص الذى استحال صخراً بسبب روح الفساد الذى ساد العالم بعد ويخيل المرء وهو يسير فى سراديبها أنها مدينة محوطة بالأسرار الغامضة ولا يتمالك أن يأسف لبؤسها وينفر من قذارتها

مدينة يتمنى كل هندى حتى أحط المجرمين أن يموت بين جدرانها كى ينتقل الى الجنة عاجلا لذلك يؤمها من الحجيج نحو مليون كل عام بينهم جماهير المرضى والكهول الذين يتوقعون الموت ، يسجد الجميع ارضاء للاله سيفا والايمان العميق يبدو على وجوههم وبمجرد وصولهم وافدين من أقاصى بلاد الهند يبدأون بزيارة المعابد التى يقال ان عددها يفوق الألف ويطوفون بأسوار المدينة كلها ويبلغ امتدادها ٣٦ ميلا فى ستة أيام متوالية وهم يسيرون فى طريق تظله الأشجار وتزينه المعابد وتماثيل الآلهة ويطلقون عليه اسم (پانش كازى)

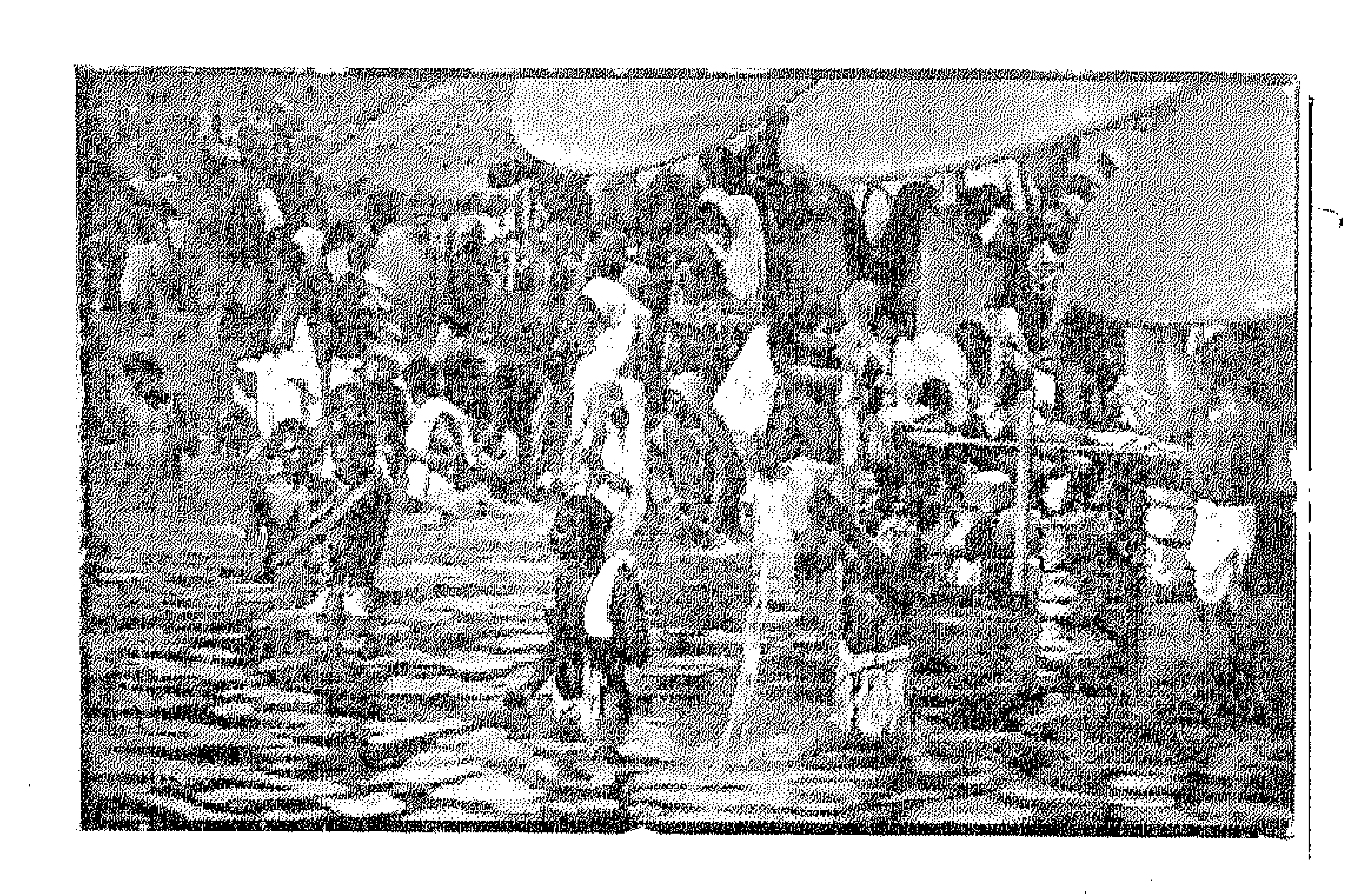
وأقدس ما فى بنارس نهر الكنج الذى رصف جانبه فى مدرجات رائعة تسمى (Ghats) يؤمها القوم للطهر من الذنوب وعجباً ألا يكون للضفة



المبانى والمعابد تغص بها مدرجات نهر الكنج فى بنارس كعبة الهندوس

الأخرى شيء من هـذا الامتياز و يلقون فى النهر أكاليل الزهور ويلقون ما تخلف من الرماد بعد حرق موتاهم.

وأجمل مارأيت المدينة من زورق وسط النهر هنالك بدت بقايا القصور القديمه والمعابد البالية الأثرية يرتطم بها موج النهر الهادىء فى مائه القذر تشو به الاوضار وان أنس لاأنسى منظر المعابد المطلة على النهر وكأنها الاهرام الذهبية صفت فى كثافة بعضها فوق بعض ودرجات النهر التى أقيمت من الجرانيت العاتى تتدلى من دونها وتقام المقاصير التى يؤمها الأتقياء حتى تكاد تلمس الماء مهما بعد غوره و يستظل القوم بظلالات من الخوص كبيرة تميل الى النهر كى تقى القوم وهج شمس الشرق المحرقة فيخيل للمرء انها من كثرتها وعظيم امتدادها على جانب النهر وكأنها الدروع فى ميدان للجهاد حافل بالأجناد واذا ما مالت الشمس الى الغرب بدأت تلك الجموع الغفيرة

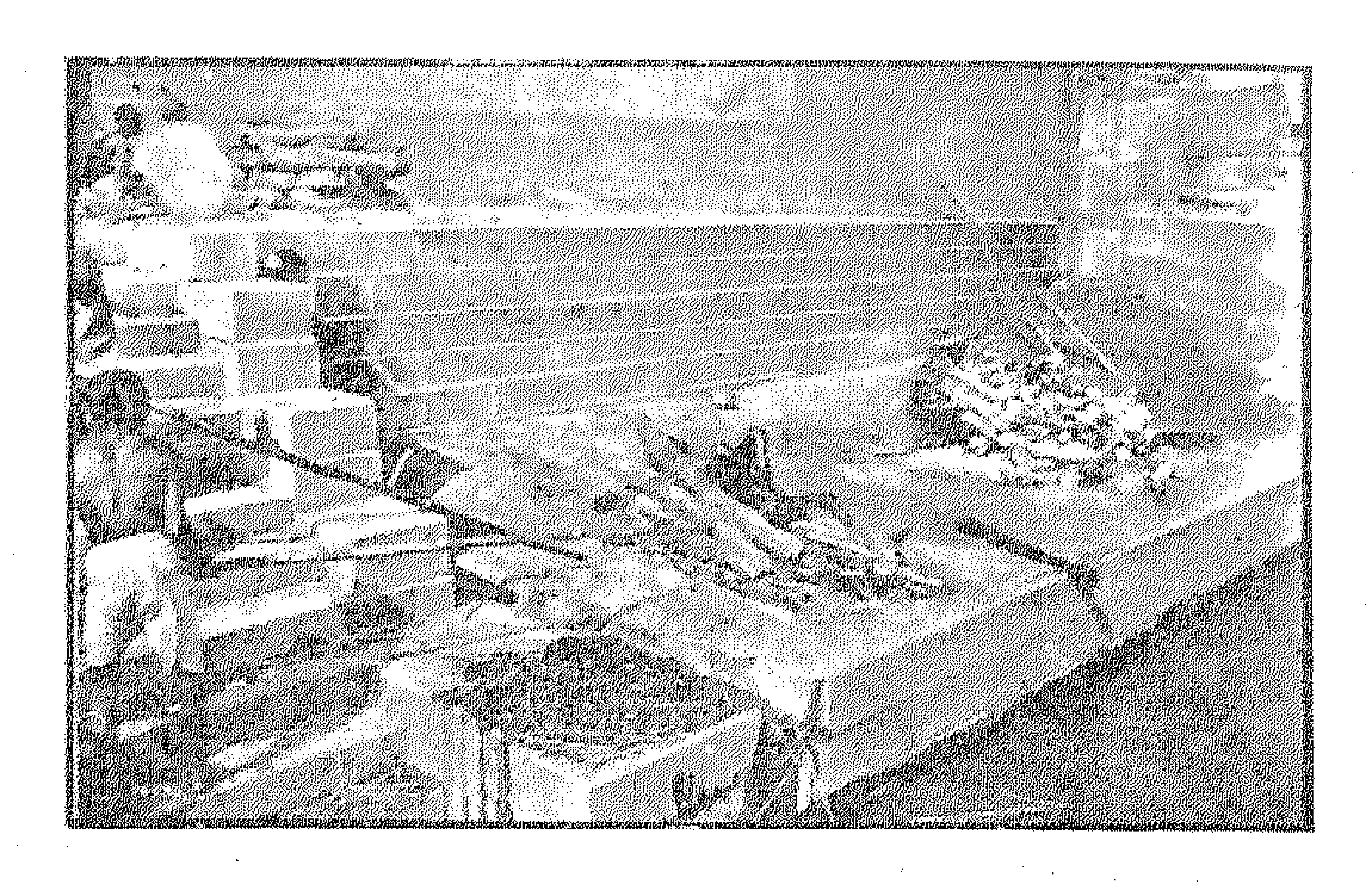


جماهير المغتسلين فى ماء الكنج المقدس

تتلاشى ومن بينها بأنواع الفاكهة وأكاليل الزهور والهدايا التى يقدمها القوم قرباناً للنهر المقدس لذلك تراها طافية مع طائفة منتنة من الأعشاب والأوضار تشوب ماء النهر الكدر المنفر وكلما خف الجمع وفدت أسراب من الطيور المختلفة عرفت منها الغربان والحمام تخيم فوق أهرام المعابد وكلما أقبل الغروب زادت عفونات النهر لحد لا يحتمل حتى ليخيل للمرء أنه وسط مدافن منتنة ويؤيد هذا الشعور قرب الدرجات المعدة لحرق الجثث وكنس فضلاتها وإلقائها إلى اليم ويزيد الموقف وحشة صيحات الطيور المنفرة وكأنها كانت تنعى من مات وأحرق سحابة اليوم ، واذا ما بزغ الفجر تغير المنظر وبدأت المدينة تقذف بسكانها فى مجموعهم الى المكان من آدميين وعجماوات فترى الناس مقبلين على النهر وقد أرخوا على أجسادهم السوداء البراقة مقاطع

من قماش مهفهف مختلف ألوانه وقد زينت بالمعادن والجواهر والأحجار رقابهم وآذانهم وأنوفهم وأيديهم وأصابعهم و بكامل زينتهم ينغمس النساء فى مائه المقدس أما الرجال فيخلعون أرديتهم والجميع يقدم أكاليل الزهور التى تطفو فوق سطح الماء بكثرة تكاد تخفيه وأسراب الحمام ومختلف الطيور تؤم المكان فيحط بعضها فوق الماء والبعض فوق كواهل الناس وكأنها أيقنت أن عباد براهما لايمسون الحيوان بأذى كذلك ترى قطعان البقر مقبلة إلى النهر لتغتسل وهنا يفسح الجميع لها الطريق فى احترام عجيب و بعضهم يسرع فيقدم للبقر عقوداً من الغاب والزهر ثم تبصر بعض الأغنام والكلاب والقردة مقبلة على الماء فيختلط الانسان بالحيوان ولا يكاد يفرق المرء بين هذا وذاك .

ولكل جزء من تلك المدرجات اسم خاص فمن ضمنها مدرج الخيول العشرة حيث يؤمه الناس عند حدوث خسوف أو كسوف وفى طرفه الجنوبى معبد سيتالا آلهة مرض الجدرى وهناك تماثيل لفشنو على شكل إنسان فى جسم الأسد ، ومدرج الموتى حيث تحرق الجثث وهنا أذكر موقفى المزعج تحوطنى خمس جثث بعضها لسيدات ألبسن أقمشة ملونة والبعض للرجال فى أردية بيضاء و بعد أن دهنت الجثث بالمسلى غمرت فى النهر لتطهر ثم وضعت الجثث فوق أرماث من الخشب وأقدامها متجهة نحو النهر و بعد تغطيتها بقطع الخشب تقدم أقرب الناس من كل جثة بشعلة نار وطاف حولها سبع مرات ثم أخذ يشعل النار فى أركان كومة الخشب فتصاعد



مدرج الموتى فى بنارس وترى به الجثث التى تأكلها النيران

الدخان وعبقت الجو رائحة اللحم الآدمى تأكله النيران وكان يحاول كل جهده ألا تطفأ النار قبل تمام احتراق الجثة وإلا كانت تلك وصمة مخزية للفقيد وعائلته وبعد تمام الاحتراق ينفض الواحد مابقى من الرماد الى النهر كى تتم سعادة الفقيد

على أنا كثيراً ما كنا نرى الكلاب تحوم حول الضفاف فتلتقط قطعاً من اللحم الذى لم يتم حرقه وكنا نرى جثث الأطفال طافية بين جماهير المستحمين لأن الدين يحرم إحراق جثث الأطفال ويأمر بالقائها فى النهر المقدس كاملة

منظر مفزع وقفت فى جنباته ساعة وأنا لا يكاد يستقر بى المكان خوفاً وجزعاً وكنت أشتم شيئاً من الرائحة العطرة التى علمت أنها لبعض الأغنياء

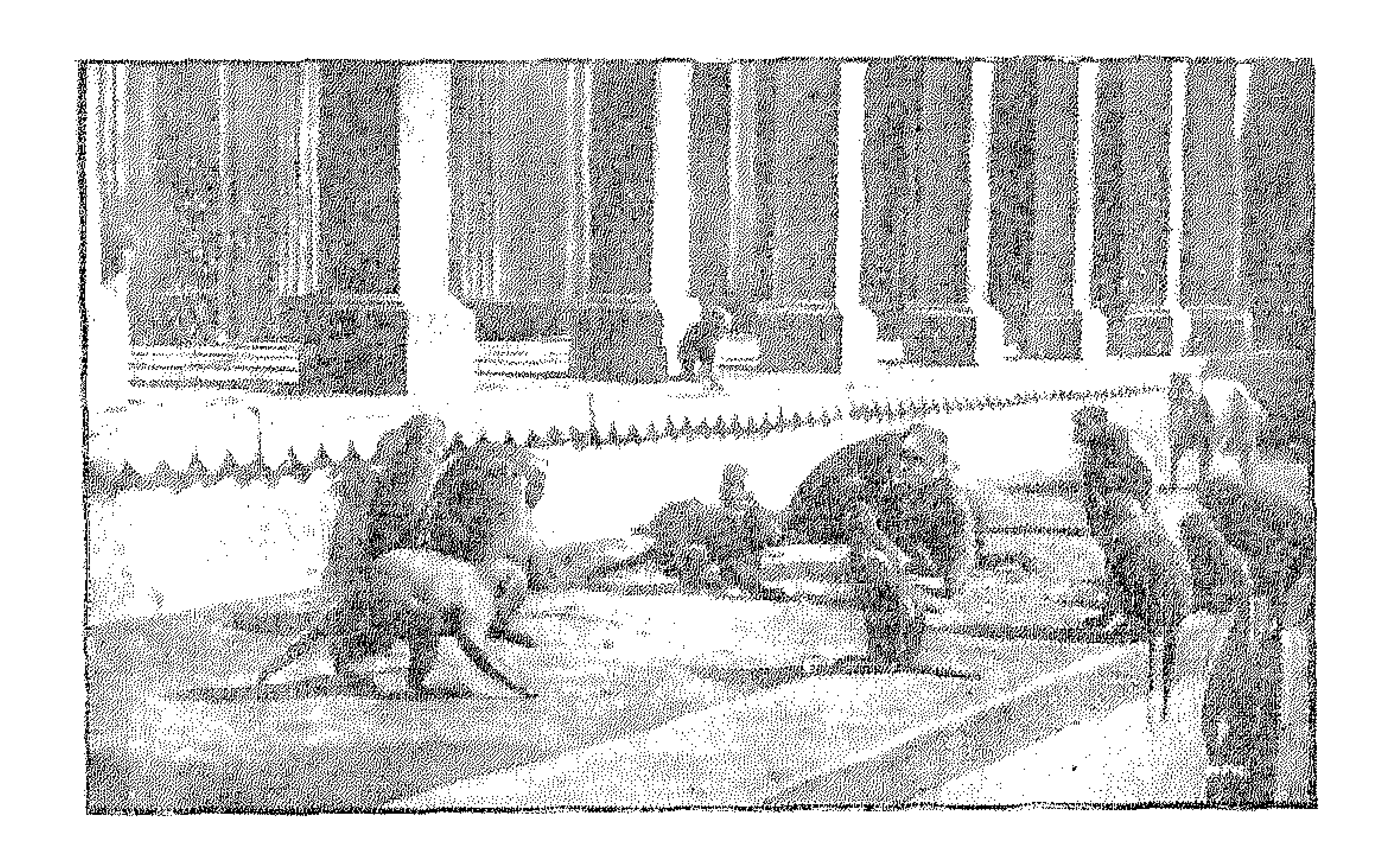
الذين يحرقون موتاهم بخشب ثمين كالصندل والعود وما شا كلها

ولعل أقدس المدرجات (مدرج القرط) وبه بئر ألقت فيها الآلهة (ديفى) بقرط واليها يتقدم القوم بقرابين من الزهر واللبن وخشب الصندل والحلوى كلها ترمى فيها وبجانبها تجد قطعة مشرفة من رخام عليها طابع قدمى فشنو وهنا يحرق الوجهاء موتاهم وذلك شرف لاينالة الفقراء .

ومن المدرجات الهامة مدرج الأنهار الخمسة لأنهم يعتقدون أن فى أسفل هذا المكان تتلاقى خمسة أنهار ويشرف على هذا المكان مسجد أورانجزيب بمآذنه الدقيقة العالية التى تخيل إلى أنها تميل الى النهر في غير استقامة

برحت النهر لأتجول داخل المدينة فبدت قديمة بأطلالها وأزقتها القذرة المتربة ومن المعابد التى زرتها بها :

المعبد الذهبى : وتزينه قبة بجانبها برج كأنه (الباجودا) ويكسى الاثنان من الخارج بالذهب الخالص وهو معبد سيفا آله الكون وكان القسس فى داخله يحرقون البخور ويقدمون الزهور ويرتلون فى صيحات منفرة وفى جانب من المعبد (بئر العلم) وسط دائرة تحوطها الأعمدة الجميلة وتتوجها قبة ويقول القوم أن شعار سيفا احتمى فى أعماقها يوم ان دمر الأعداء المعبد فكل من تطلع اليه نال قصارى أمانيه ولقد نظرت إلى أعماقها بتلهف زائد فلم أر إلا سطح ماء قد غطاه رم العشب وورق الزهور ، ويجلس بجانبها مشعوذ يبيع الماء للناس الذين كانوا يتهافتون عليه كل يملأ يده ويقطر ثلاث قطرات فى فمه من طرف أصبعه ويغسل رأسه بما بقى وفى ذلك مفتاح



القردة المقدسة داخل معبد (درجا) فى بنارس

الذكاء والفطنة وتطهير للذنوب كائنة ما كانت وإلى جانب البئر تمثال ثور يعبدونه قدمه (راجا نپال) ويحوطون رقبته بعقود الفل والياسمين ويرشون عليه ماء النهر المقدس

ومن أمثال تلك المعابد كثير قادنا الدليل اليها فى سراديب يكاد يكسو أرضها جماهير المتسولين فى قذارتهم الكاملة ، وقد راقنى منها معبد درجا أو معبد القردة لكثرة القردة الطليقة فيه والتى تمرح وتأكل وتتنعم على حساب السذج من المدينين وعند المدخل ترى الطبول يدقها القسس ثلاث مرات فى اليوم وهنا تذبح الجديان قربانا لزوج سيڤا التى تلذ لمنظر الدماء وترى هناك حوضاً علوه ٥٤ بوصة يعتقد القوم أنه ينكمش فى كل يوم مرة حتى لايزيد حجمه على حبة السمسم !

الى دلهى : أخذت القطار صوب دلهى تلك المسافة التى استغرقت ٢٨ ساعة وكان يبدو على غالب الحقول الجفاف الشديد الذى أيد لنا مبلغ سحر الرياح الموسمية وأمطارها فى خصب تلك الجهات التى بدت ظامئة مجدبة ولما يتخلف المطر عن ميعاده سوى أسبوعين ولقد وقفنا طويلا بمحطة : (مغول سراى) وكان الشجر من حولها كثيراً وجموع القردة تمرح فى الغابات والى جوار السكة الحديدية فى كثرة عجيبة وكم كانت دهشتى عظيمة عند ماباغتنا سرب من الطاووس يناهز المائة والخمسين عداً كان يسير بجوارنا كأنه هادئ أليف ، وقد جاز القطار محطة (كونپور) التاريخية الشهيرة مقر الثورة الهندية (سنة ١٨٥٧) وقبيل دخولنا دلهى استقبلتنا زوبعة رملية عاتية كأنها وافدة من صحارى (ثار) الى جنوبها وبدت المدينة والحر بالغ أشده فقد كانت الدرجة ١١٣ ف وكان الهنود مغتبطين بذلك لأنه كلما اشتد الحر بشرهم بأمطار وابلة

دلهى : قمت بجولة فى المدينة فبدا لى أنهـا من المدن القديمة التى غالبت الزمن وقاست من هجمات المغيرين الشئ الكثير حتى قيل انها تقام على أنقاض احدى عشرة مدينة ازدهرت من قبل ولا تزال لهـا بقية من اطلال ، وغالب أحيائها شبيه بالاحياء الوطنيـة فى القاهرة وكانت كثرة المساجد بمآذنها العديدة تكسب المدينة مظهراً اسلامياً بحتا مذ حلت هذه محل القباب الناقوسية الذهبية وهنا يصلى القوم لله بدل الخضوع لشعوذة البرهمى والخشوع للأنصاب على أن غالب تلك الأنحاء تعوزه النظافة وان

كانت فى الجمال خيراً من سابقاتها ، أخذت أزور أماكنها التاريخية ، و بدأت بزيارة القلعة وقد بناها شاه جهان بعد أن قرر نقل عاصمته من أجرا واختار مكانها هذا وهو يبعد خمسة أميال عن (دلهى القديمة) عاصمة جده هومايون ، وضع أول حجر سنة ١٦٣٨ وتمت فى تسع سنين فانتقل اليها فى حفل عظيم وأطلق عليها اسم (شاهجاهاناباد) وكانت آيات الأبهة تفوق كل ما تقدمها حتى أصبحت عند الغربيين مضرب الأمثال فمن مساجد الى مقاصير الى ايوانات الى قصور كلها من الرخام المرصع باليواقيت والجواهر تفرش بالحرائر والطنافس الثمينة .

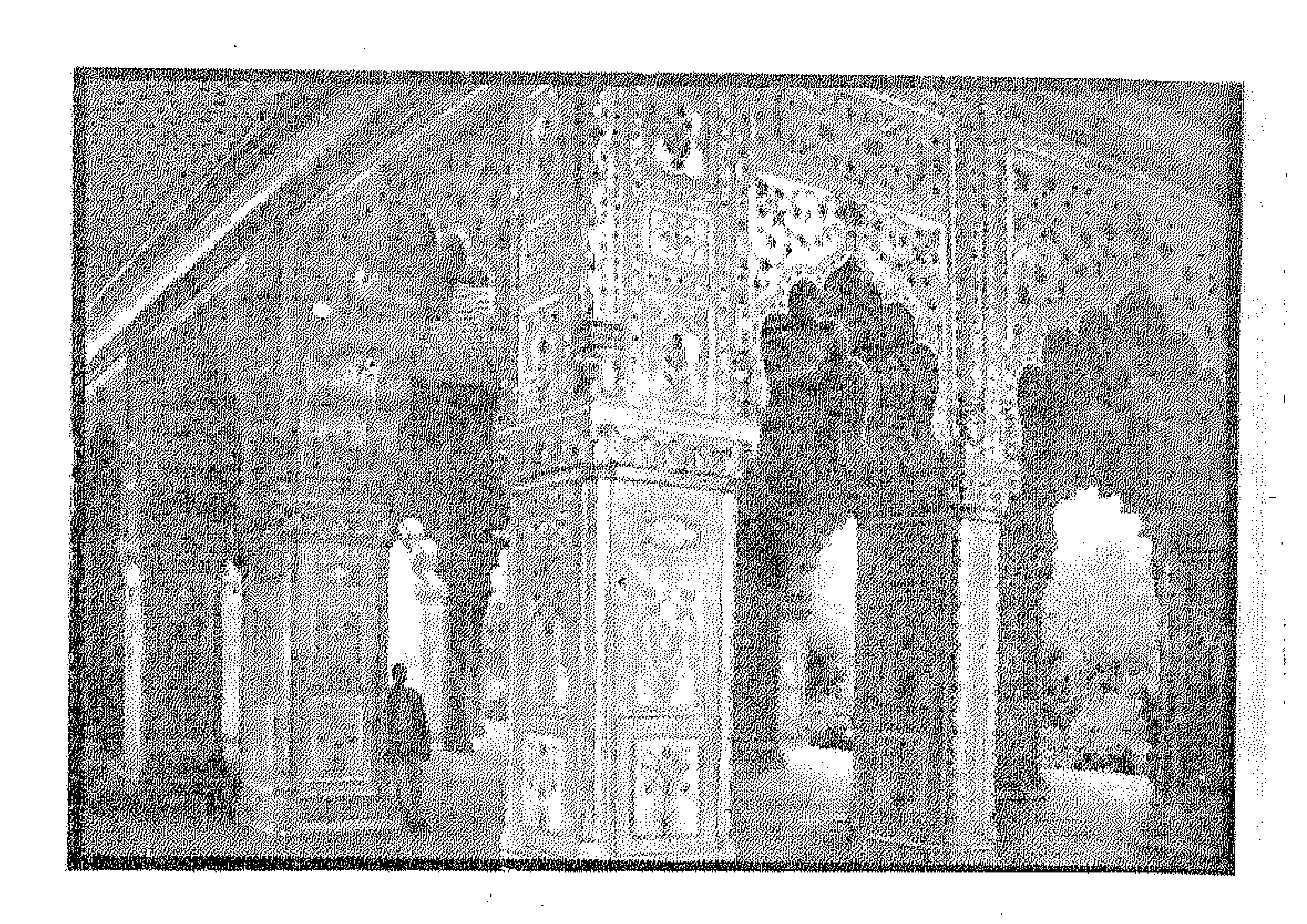
ولعل أشد الأهوال التى قاستها دلهى سنة ١٧٣٩ حين أمر نادر شاه بذبح أهلها لأنهم أغاروا على كتيبة صغيرة من جيشه وكان يرقب ذلك بنفسه من شرفة المسجد الذهبى من شروق الشمس الى الساعة الثانية مساء و بعد ذلك تنحى هذا الفارس منتصرا الى بلاده وحمل ما قيمة خمسون مليون جنيه ومن بينها عرش الطاووس الشهير وماسة كوهنور وقدسقطت دلهى فى يد الجنرال (Lake) سنة ١٨٠٣ وأباح لسلائل المغول بعض الحقوق والمظاهر على انهاسحبت منهم نهائيا عقب الفتنة ونفى آخر ملوكهم (باداهور شاه) الى رانجون حيث مات سنة ١٨٦٢ ونقلت العاصمة الى كلكتا لكنهم أعادوها سنة ١٩١١ بعد أن أمر الملك جورج الخامس بانشاء دلهى الجديدة بجوارها .

دخلت القلعة التى يحوطها فندق فسيح (سعته ٧٩ وعمقه ٣٠ قدما) وسور

يتراوح علوه بين ٦٠ و ١١٠ قدما ، وبها بابان أحدهما صوب اجرا والثانى صوب لاهور ، وهى بلدة كاملة فى داخلها مذ تقوم فيها المبانى الفاخرة والمساجد العامرة والمتنزهات البديعة وكانت مقر الملوك ومساحتها تزيد على ضعفى أكبر قصر ملكى فى أوروبا ومن أكبر مبانيها

الديوان العام : ذرعه ٦٠×١٠٠ قدم يقوم سقفه على بوائك وعمد تخطف البصر بنقوشها الرائعة وهو يعد من آيات فن العمارة المغولية ، وكان يجلس الامبراطور على عرشه ليستمع للمظالم التى يعرضها عليه وزراؤه نائبين عن الشعب

الديوان الخاص : ذرعه ٧٦×٩٠ قدماً من الرخام الأبيض يرصع بالأحجار الكريمة فى زخرفة فارسية مغولية وكان سقفه من فضة لكنه استبدل بالخشب اليوم وهنا يحار اللب حقاً لما يرى من مظاهر للعظمة شبيهة بما نقرأ فى (الف ليلة) وقد نقش على جانبيه بالذهب ما معناه : اذا كان للأرض نصيب من الجنة فهو لا شك فى هذه الدار ، وتتوسط البهو قناة من رخام كان يطلق فيها الماء المعطر ليرطب المكان ويعبقه وكان يتوسطه عرش الطاووس الساحر الذى نقله نادرشاه الى فارس وسمى كذلك لأنه محاط بطاووسين قد نشرا ذنبيهما المرصعين بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والماس وكان ذرعه ٦×٤ قدما يقوم على قاعدة من ذهب أصم مرصع بالجواهر و بين الطاووسين ببغاء نحت فى قطعة واحدة من زمرد ويرتفع غطاؤه على عمد من أحجار كريمة وكلفهم



جانب من الديوان الخاص فى زخرفه الفاخر وهندسته المغوليه
الاسلامية ـــ دلهى

ثمنه عند ذاك ستة ملايين من الجنيهات وكان يجلس عليه الملك يستمع للشكاوى بنفسه ويظن أنه لايزال من محفوظات بلاد فارس والمكان أعد لمجلس الملك مع أخصائه وبه عدة غرف صغيرة آية فى الابداع والزخرف وله شرفة الى الشرق كان يستقبل منها شمس الصباح ويستمع لتهليل شعبه من دونها ومنذ سنة ١٩١١ والانجليز يعيدون تلك الذكرى بأقامة حفل يطل منه الحاكم مرة كل عام

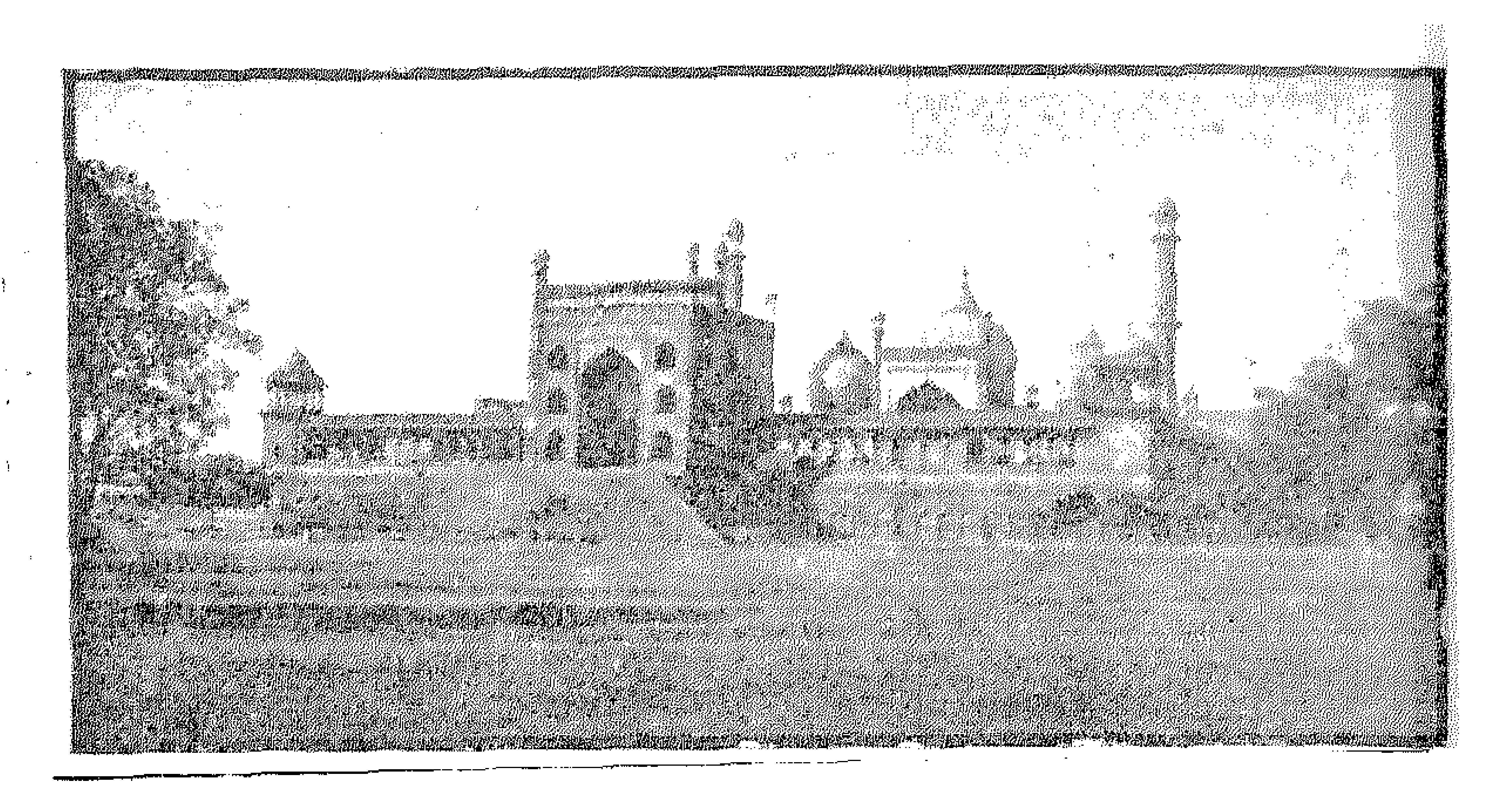
رانج محل : أى قصر الزجاج البراق وكان خاصاً بالسلطانة ولا تزال فى سقفه بقية من الفضة المرصعة بزهور من ذهب يحوطها بريق خاطف وفى الوسط نهر الكوثر ونافورة تغص بالسمك الملون وكان يطوق جيد كل

سمكة عقد من ذهب به ياقوتة ولؤلؤتان وتحوطه حدائق تزينها مجارى الرخام في أبهة وجلال فاق كل وصف

مسجد اللؤلؤة : أقامه ارانجزيب داخل القلعة وكان خاصاً بشاه جهان الذى أسرف في زخرفته وتنسيقه حتى أضحى أجمل مساجد الهند وأصغرها وكان يشبه بالدرة أو اللؤلؤة لصغره وجماله

مسجد اللؤلؤة فى قلعة دلهى

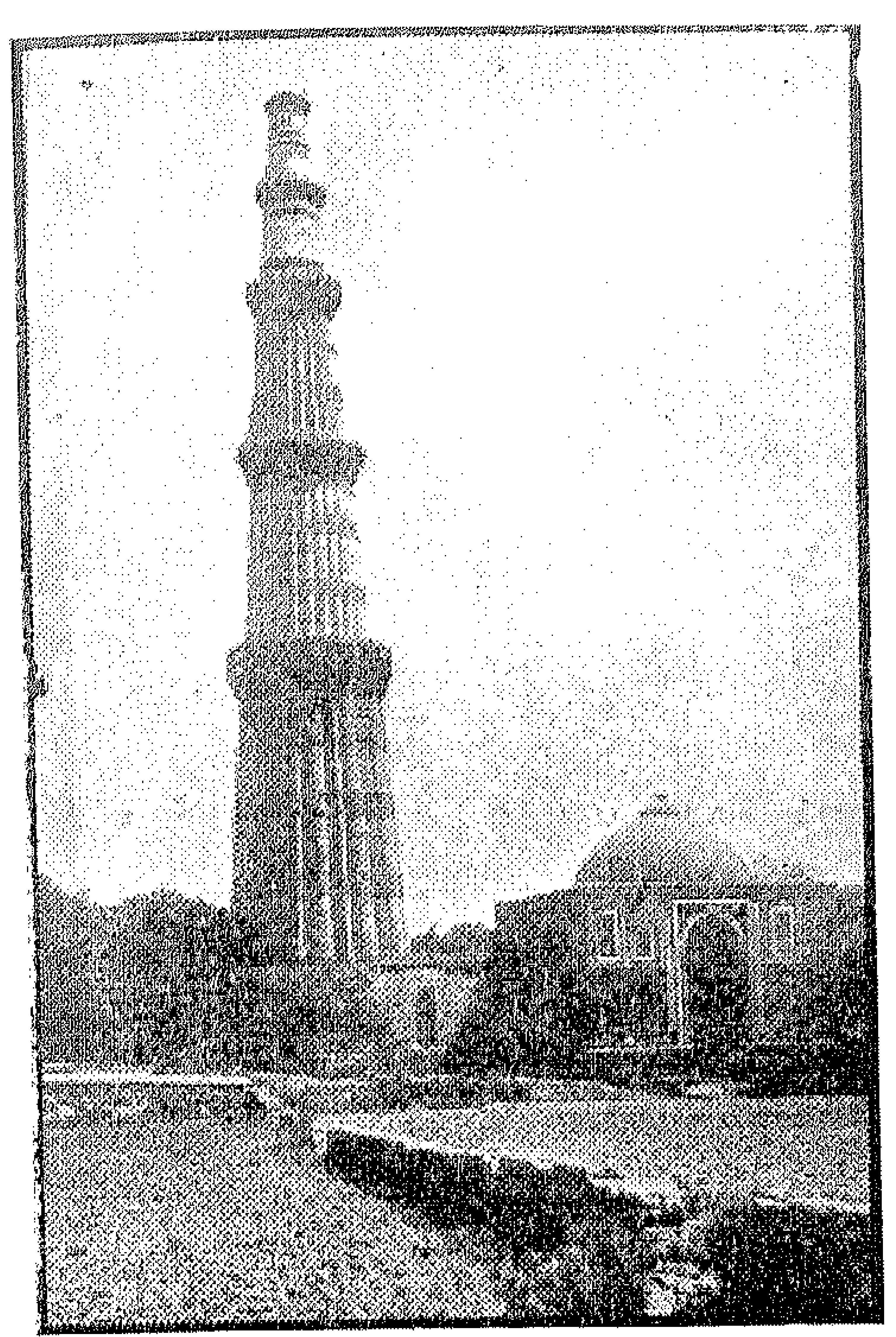
المسجد الجامع: يتوسط ميداناً من المدينة فسيحا يشرف عليه من ربوة تناهز ستة أمتار ويرتقى المرء اليه بسلم عظيم الامتداد فى جميع جوانبه وأبوابه من نحاس ثقيل وسط بوائك فاخرة تؤدى بنا الى فناء رحب يتوسطه حوض الوضوء والايوان يقع تحت قباب ثلاث تجانبها مئذنتان دقيقتان علو كل منهما ١٣٠ قدماً وحول الجوانب الأخرى بوائك ذات سقف منقوشة وفى ركن منه غرفة صغيرة بها بعض آثار النبى صلعم



المسجد الجامع فى دلهى وفى ركنه الأيمن بعض مخلفات النبى صلعم

توضع فى علب من فضة وذهب وزجاج تملأها الزهور من داخلها وأهم تلك المخلفات التى تبركنا بلمسها : شعرة واحدة حمراء من لحية الرسول ، قطعة من رخام عليها طابع قدمه ، حذاء من جلد الجمل فى شكل الخف ، ومخطوطان للقرآن الكريم كتبا بالكوفة أحدهما بخط الامام على كرم الله وجهه والآخر بخط ابنه الحسين عليه السلام والمسجد فاخر يشرف على المدينة فتراه أينما كنت فى لونه الأحمر من الخارج وان كان يبطن كله بالرخام الأبيض أقامه شاه جهان وخص بنفسه باباً يواجه القلعة والمسكن الخاص فيها وكان يفتح يوم الجمعة لمروره ماشياً وعندئذ تفرش الطريق كلها بالطنافس الثمينة ، ويخال البعض أن هذا المسجد أكبر مساجد الدنيا

ومن المساجد الأخرى التى زرتها مسجد سنهرى الذهبى الذى جلس فيه نادرشاه أكبر ملوك الفرس السفاحين وهو يراقب جنده يذبحون الناس يوم دخل المدينة سنة (١٧٣٩)



قطب منار وهو برج نصر مغولى فى دلهى

قطب منار :

برج نصر بناه قطب الدين سنة ١٢٠٠ على بعد ١١ ميلا من المدينة وأكمله حفيده (التماش) ويتألف من خمسة طوابق فى علو ٢٣٨ قدما وقطره من أسفله ٤٧ ويختنق فى أعلاه الى ٩ وقد أصلح أعلاه فيروز شاه سنة ١٣٦٨ أقيم ليخلد انتصار الاسلام على الهندوس ولبث يغالب الزمن طويلا ويعد من عجائب بلاد الهند لقدمه وغرابة هندسته ،

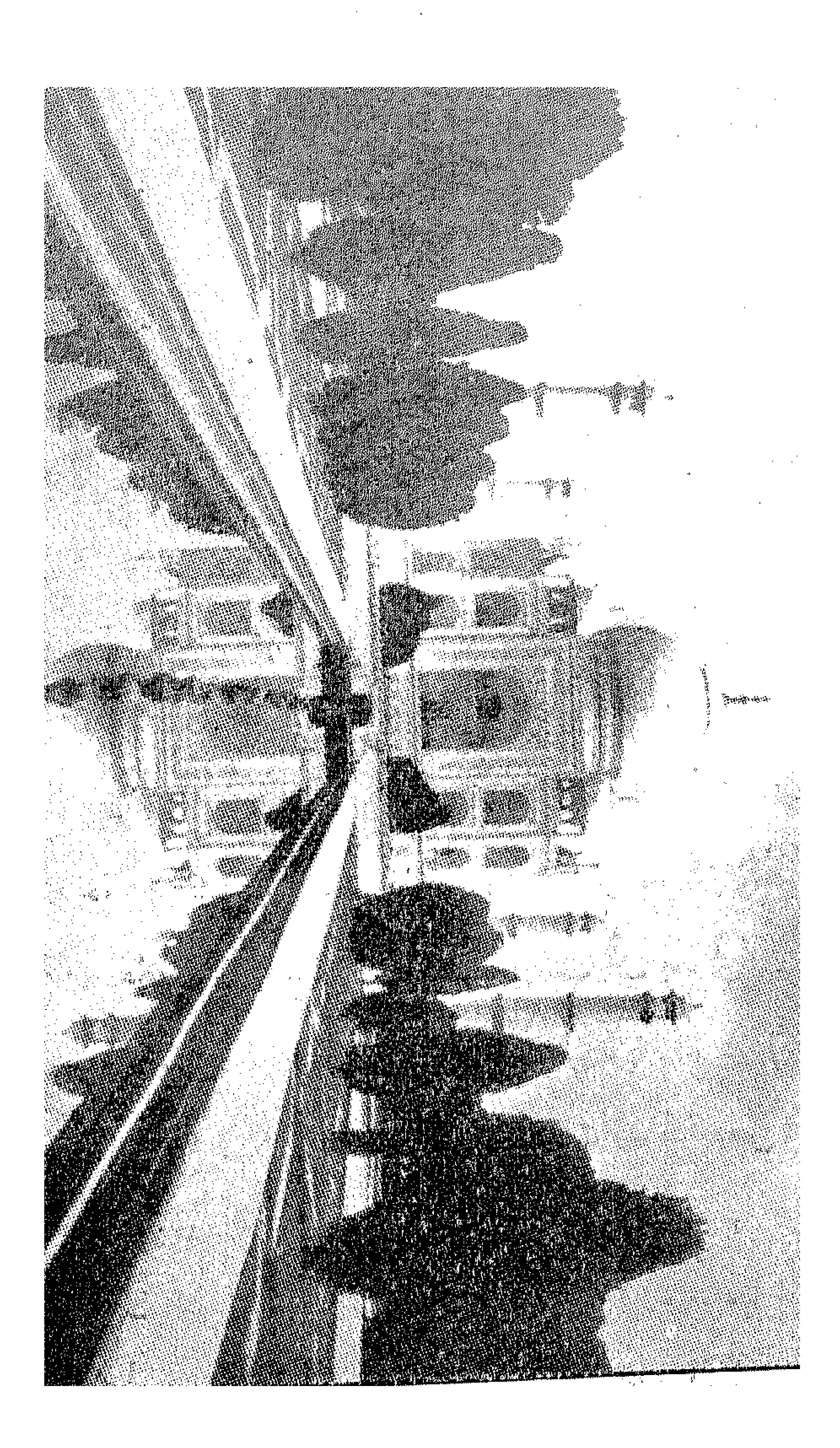
والى جانبه مسجد قطب الدين أقدم مساجد الهند بناه من أنقاض المعابد الهندية التى دمرها المسلمون وفى داخل مقصورته قطعة من حديد مرن ترجع الى القرن الثالث الهجرى وظلت معرضة لتقلبات الزمن طوال تلك المدة ولم تصدأ ولا يعلم شىء عن أصلها سوى العبارة الآتية التى كتبت عليها : هو صاحب الصيت (راجا دافا) الذى حصل بساعده على ملك العالم بغير شريك

وفى ناحية أخرى مقبرة هومايون على نمط شبيه بتاج محل وهو أقدم مثل للعمارة المغولية بنى سنة ١٥٥٦ ودفن فيها ثانى عظماء المغول وبجانبه أقرباؤه وابن شاه جهان الذى قتله أخوه اورانجزيب طمعاً فى الملك وهنا سلم شاه باداهور آخر المغوليين سيفه للميجر هدسن سنة ١٨٥٧ وبجانبها مقبرة التماش ابن زوجة قطب الدين

ذلك مثل مما يراه السائح فى دلهى تلك البلدة التى تقوم عظمتها على منشآت الاسلام التى لولاها لما استحقت الذكر حيث لانرى غيرها سوى بيوت حقيرة ومعابد هندوسية صغيرة ولذلك لم ترها انجلترا صالحة لتكون مركزاً لادارة البلاد فأقامت بعيداً عنها مدينة دلهى الجديدة على أحدث النظم التى تحكى احدى المدن الأوروبية تماماً

الى أجرا : قمت الى أجرا التى وصلتها فى أكثر من ثلاث ساعات فبدت مدينة حقيرة كأنها من مدن الريف القذرة المتربة وكان هجير القيظ خانقاً لدرجة ان خادم النزل سألنى ان كنت أرغب أن يعد لى سريراً فى الخارج (أعنى فى الشارع) فدهشت ورفضت أول ليلة مرتكناً على (المروحة) لكنى سارعت برجائه فى الليلة الثانية أن يفعل ذلك مذ لم تغمض عينى من شدة الحر فنمت ليالى الباقية على جانب الطريق على أن بها من الدرر القديمة آيات بينات تحوطها تلك الأطلال والأقذار وفى مقدمتها :

تاج محل : حق للهندسة المغولية أن تفاخر بتلك القطعة الفنية فما أن وقع ناظرى عليه حتى ذهلت من عظمة مارأيت ، جلال فى دقة صنع ورواء



التاج محل . درة الهند وآية الهندسة المغولية

فى حسن تنسيق وآيات للفن بينات فى كل ناحية من نواحيه فهو وحده خير مبرر لزيارتى للهند تلك البلاد التى كنت حتى الساعة لأذكرها بالخير الكثير دخلت من الباب الرئيسى وهو وحده قصر فاخر بأقبيته وقبابه ومناراته فانكشفت حدائق التاج الفسيحة التى نسقت بالنافورات والمنحدرات والطرقات الملونة والنقائع يزينها زهر البشنين و ورقه صفت من حولها مخاريط الشجر الباسق وفى وسط كل أولئك يقوم التاج كالعروس ولكن أبى لقلمى الكليل أن يصور بدائعه ويحكى اعجازه فقد تنقل الكلمات والصور الى القارىء شيئاً عن المكان ولكن أبى لها أن تشعره بالذهول والاكبار الذى يحسه من يراه بعينه ! صور لنفسك قصرا فاخرا أقيم كله من الرخام الوضاء والمرمر البراق تحوطه فى الأركان مآذن دقيقة رشيقة وتتوسطه قبة كبيرة رائعة تحوطها القباب الصغيرة والمنائر الرفيعة والأرض والجدران قد رصعت كلها بالزهور والزخارف الفارسية لا بالرسم الزيتى بل بالياقوت والزمرد والزبرجد وما اليها وتزين الجدران الى جانب هذا آيات الذكر الحكيم كلها لا بالمداد بل بفصوص الرخام الاسود ألبس الجدران البيضاء والمدهش أن المهندس قد راعى المنظور فى كتابتها بحيث إنك تراها تبدو فى أعلى المكان وفى أسفله بحجم واحد رغم علوه الشاهق وفى بعض الصفحات ترى الرخام قد خرط فى أشكال شتى بين بارز وغائر ؛ أما النوافذ والفتحات فأشبه بشباك المخرمات فى دقة فائقة وهندسة عجيبة قدت فى الرخام وكان يغطى غالب الفتحات الزجاج الطبيعى (الميكا البيضاء) ولم يبق منها اليوم

سوى لوح واحد وفى قلب المكان ترى المقبرة من المرمر رصع بمختلف الأحجار الكريمة يحوطها سور من مقصوص الرخام وهذه تضم رفات زوجة شاه جهان (ممتاز محل) وكان يحوطها سور من فضة ويكسو القبة غشاء ثقيل من ذهب خالص كانت زنته ٢٦٥٠ رطلا ويدخل الضوء من الباب

أمام عظمة (التاج محل) الخالدة فى ضوء القمر

فقط فيسقط على المقبرة رأساً فتشرق وسط الأركان المظلمة وقد ألحقت بجانبها مقبرة أخرى فيما بعد دفن فيها زوجها وكان قد بدأ يقيم لنفسه مقبرة على مثال التاج فى الجانب الآخر من النهر

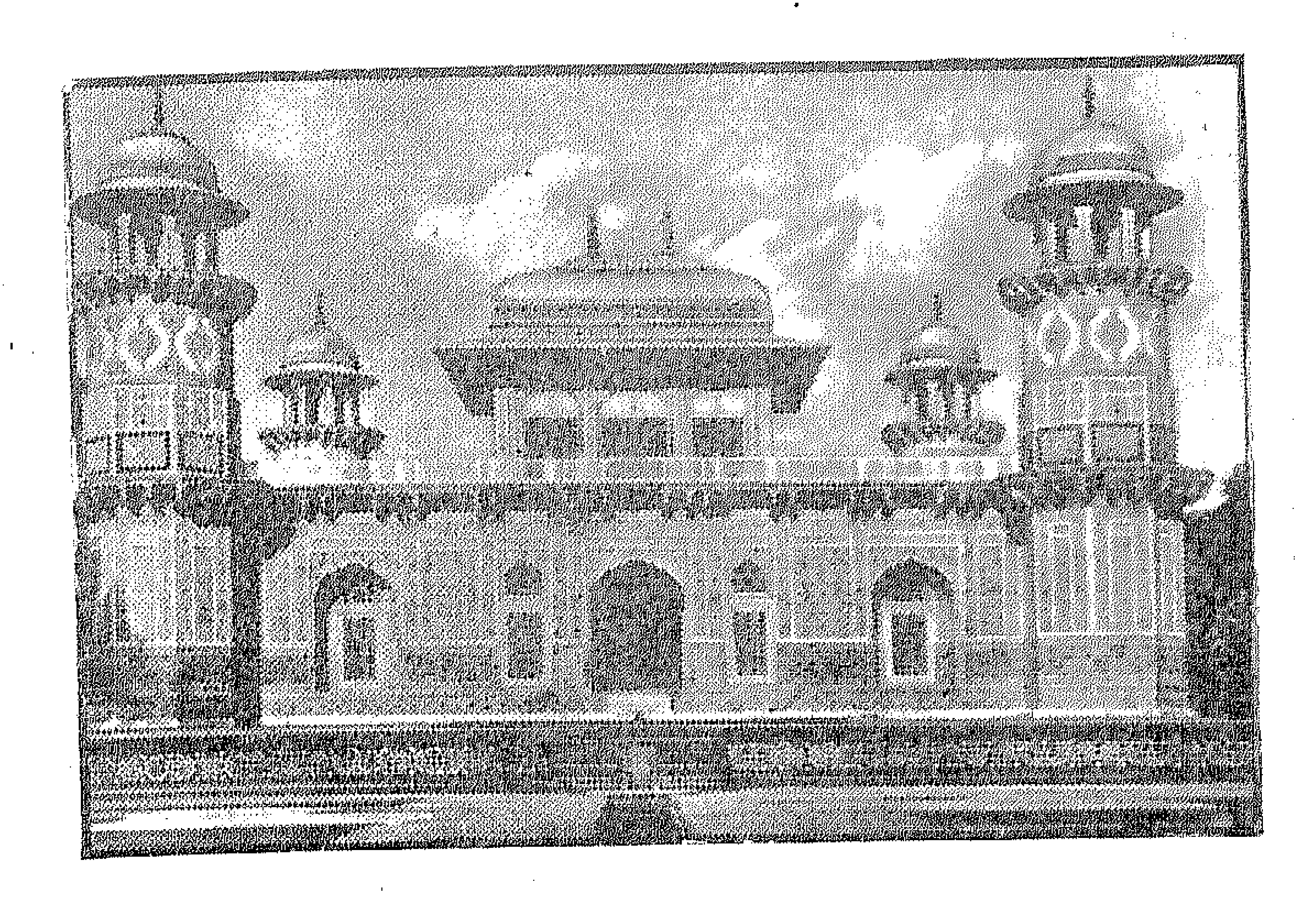
وقد قيل ان السلطان استدعى عباقرة الفن من العرب وفارس والهند وأوروبا فاستلزم البناء ١٧ سنة وكان طوال هذه المدة يشتغل عشرون ألف عامل حتى بلغت أكلافه أربعة ملايين من الجنيهات فى ذلك الوقت الذى كانت الأموال فيه نادرة

وللقبة الرئيسية أثر ساحر فى ترديد صدى الصوت يفوق تلك التى فى

بيزا بأيطاليا ، وقفت داخلها وكأنى طربت لما أن تصورت المقرئ بصوته الرخيم يردد الآيات البينات أو يصيح بعبارات التأبين والندبة فى أنغامها الشجية التى تبدو وكأنها دوي أصوات الملائكة ترردده تلك القبة من السماء ولا أنسى زيارتى الثانية للتاج فى المساء وكانت ليلة مقمرة فبدا وهجه فى ضوء القمر الشاحب وسكون الليل الرهيب فأثار فى النفس من ذكريات وأهاج من شجون.

تلك هى آية تقدير شاه جهان لزوجته الفاتنة التى أحبها حباً جما وأخلص لها فشاركها الرأى فى مهام الحكم وكان خاتم الدولة بيدها وكانت رحيمة بالناس تتدخل لمصلحتهم وكانت تلازم زوجها فى حملاته الحربية حتى كانت الحملة التى غزا بها ثائري الدكن فاختطفها الموت لما أن جاءها المخاض فى طفلها الرابع عشر فعاد محزوناً كسير القلب حتى حرم على رعاياه كل مظاهر السرور طويلا وحبس نفسه عن الناس وعطل أعمال الدولة وقيل أنه سئم الحكم واعتزم التنازل لابنه.

مقبرة اعتماد الدولة : أقامتها (نور محل) زوج الامبراطور (جهانجير) مدفنا لأبويها وكان أبوها من كبار رجال الدولة وفد مع زوجته من فارس تحت اسم (مرزا غيات) طلبا للجاه والثراء فى بلاد الهند فنفدت ذخيرتهم فى الطريق وزادهم الحظ ارتباكا بمولودة ترددوا طويلا فى التخلص منها حتى مرت بهم قافلة فأنقذتهم جميعاً فلما جاءوا السلطان نالوا لديه حظوة



مقبرة اعتماد الدولة وهى من آيات الهندسة المغولية الاسلامية فى أجرا

وأحب جهانجير — وكان إذ ذاك أميراً — فتاتهما ذات الجمال الفتان لكن أباه الامبراطور رفض ذلك وزوجها من أحد قواده فلما مات وولى ابنه الحكم كلف الضابط أن يطلق زوجته فأبى فدس له وقتله وحبس الزوجة فى القصر حتى قبلت أن تتزوج منه فغير اسمها (نور محل) أى نور القصر وسماها (نور جهان) أى نور الدنيا . والمقبرة آية فنية أخرى تلى التاج فى العظمة ودقة الصنع.

مقبرة الأكبر : وهى من المبانى الجديرة بالزيارة أقيمت من الصخر الرملى الأحمر تبطنه من داخله رقائق الرخام الأبيض فى رواء كبير وهى تضم رفات (أكبر) مؤسس أجرا ولذلك يطلق على المدينة أحيانا (أكبرباد)



على شرفة برج الياسمين فى أجرا

القلعة : شبيهة بتلك التى فى دلهى فى شكلها ومحتوياتها وتزيد قصر الياسمين وسمى كذلك لكثرة أزهار الياسمين التى رصع بها المكان وقد أعده جهانجير مقر زوجته (نور محل) مذ كان يشرف على نهر الجمنا ويكشف التاج محل بحدائقه على الجانب الآخر من النهر وقد أقامت به سيدة التاج (ممتاز محل) زمناً طويلا

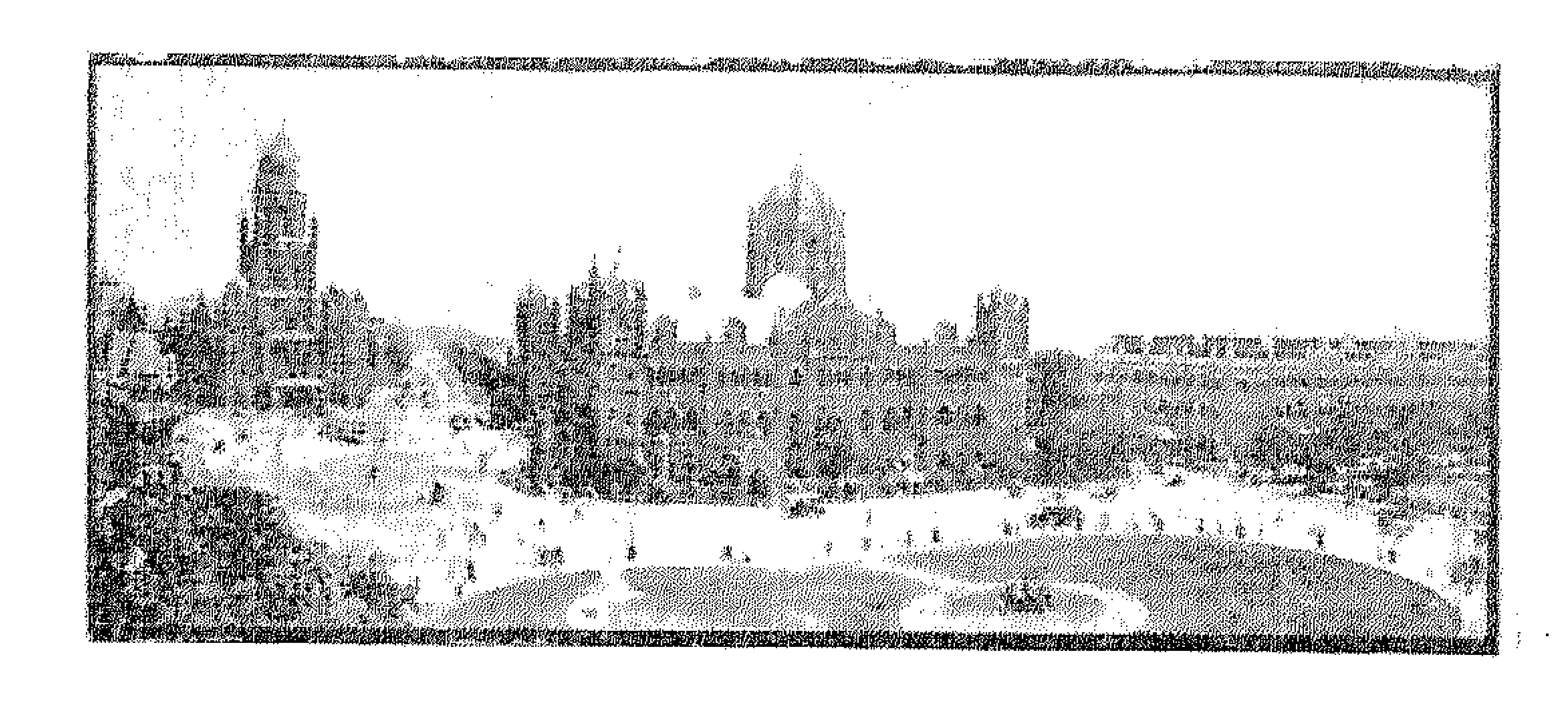
الى بمباى : غادرت أجرا صوب بمباى (فى ٣٨ ساعة) وكنا نمر غالب الطريق على بقاع شبه صحراوية هى حافة صحراء ثار فى مقاطعة راجپوتانا ولذلك كان الجو مؤلماً والتراب خانقاً والجفاف بالغا أشده فما كدنا نرى للنبت أثراً سوى بعض الشجيرات القصيرة المنتثرة على أنا كلما قاربنا جانب البحر الى بمباى زادت ثروة الاقليم بالنبت وتحسنت الوجوه الآدمية



فى فناء مسجد القلعة فى أجرا

وقل الحفاة وتقارب الزى (سروال أبيض وجاكته طويلة) ومما ألفت نظرنا بوجه خاص زى السيدات مذ بدت الألوان الزاهية الصافية فى ملاءاتهن فكثيراً ما كنت أرى جمهرة منهن يسرن جماعات كل منهن فى لون خاص كأنهن قوس السماء يتحرك فى بريق ورواء وقد عبرنا قنطرة نهر تابتى الذى يبلغ اتساعه ثلاثة أمثال النيل على أنه كان جافاً لايكاد يجرى له ماء شأن سائر أخوار الهند التى كنا نمر بها كل آن وهى ناضبة مما يشعر بأهمية الرياح الموسمية فلولا أمطارها لما كانت بلادهم فى الخصب شيئاً مذكوراً

بمباى : أو الخليج الجميل كما سماها البرتغاليون وقيل ان الاسم مشتق من آلهة البلدة (ممباديفى) فى أكبر معابد المدينة ، بدت مدينة عظيمة حقاً ذات مبان فاخرة وقصور شامخة وطرق معبدة فسيحة فهى فى نظرى



محطة فكتوريا فى بمباى من أفخر مبانى العالم والى اليسار دار البلدية

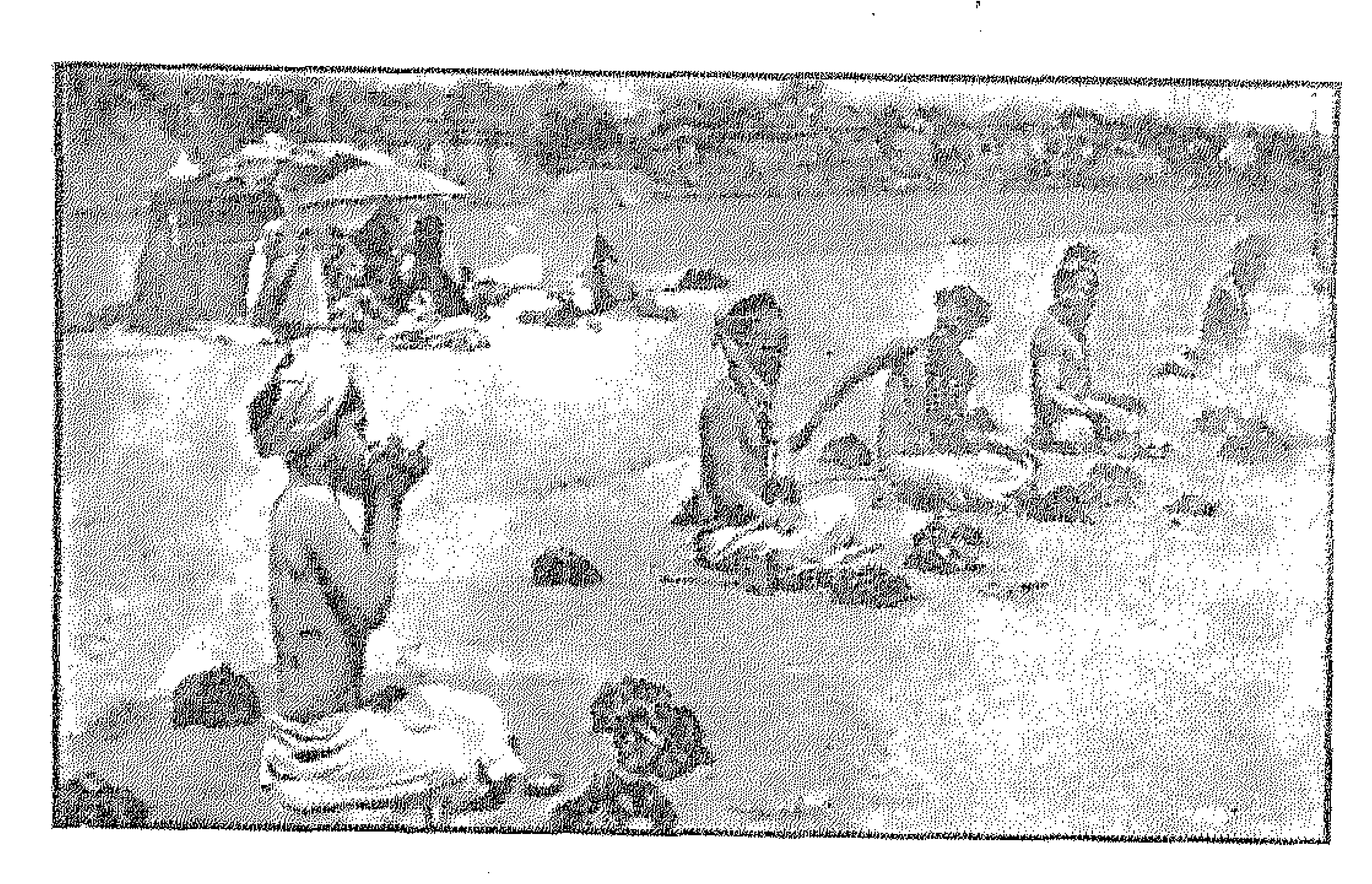
المدينة الهندية الوحيدة التى تحكى مدائن أوروبا وجاهة ونظاماً وهى العاصمة التجارية للهند فالحركة فيها صاخبة أبداً وبها محطتان للسكة الحديدية من أفخر محاط العالم وهما محطة فكتوريا ومحطة الوسط ولعل أجمل نواحيها صخرة ملبار تشرف على الخليج فى منظر رائع وهى مسكن الطبقة الارستقراطية كلها قلات فاخرة تحوطها الحدائق اليانعة والمتنزهات الأنيقة أخص منها (الحديقة المعلقة) التى تشرف على البحر وتنكشف من دونها أبراج السكون الخمسة حيث ترى رصيفاً حفرت به فجوات يضع فيها شيعة (البارسى) موتاهم وسرعان ما تنقض عليها العقبان من الاشجار المجاورة فتأكل اللحم وتترك العظام وهذه توارى فى بئر بدون حرق ذلك لأن هذا المذهب يعتقد فى طهارة العناصر الثلاثة (الماء والتراب والنار) لذلك لا يصح تدنيسها ويحمل الجثث وهى عارية عباد ملتحون الى ذرى تلك الابراج ومحيط أكبرها فى ٢٧٦ قدماً وعلوها ٢٥ وعند حمل العظام يلبس القوم القفازات ويقف أهل الموتى



برج السكون حيث يعرض جماعة (البارسى) جثث موتاهم
فتنقض عليها تلك العقبان فتنهش لحمها على الفور

طويلا فى الحدائق هناك للتفكير فى الموت وحولهم كثير من أشجار (السرو) والقوم يعتقدون أنه يشير دائما إلى السماء ليذكرهم بالموت وعامتهم يبيحون استخدام النار فى الطبخ لكن غلاتهم يحرمون ذلك وجماعة البارسى من عبدة النار وهم أتباع الفيلسوف الفارسى (زردشت) عددهم يناهز المليون ويعرفون باستعدادهم العظيم للتقدم وهم فى مقدمة تجار العالم خبرة وأمانة

البقر المقدس : وقد استرعى نظرى فى الهند عامة وفى بمباى خاصة كثرة البقر الذى يترك طليقاً يجوب أمهات الطرق فى غير حصر ذلك لأن الهندوس يقدسونه ويعدون قتل البقرة لا بل ومجرد ضربها جرما



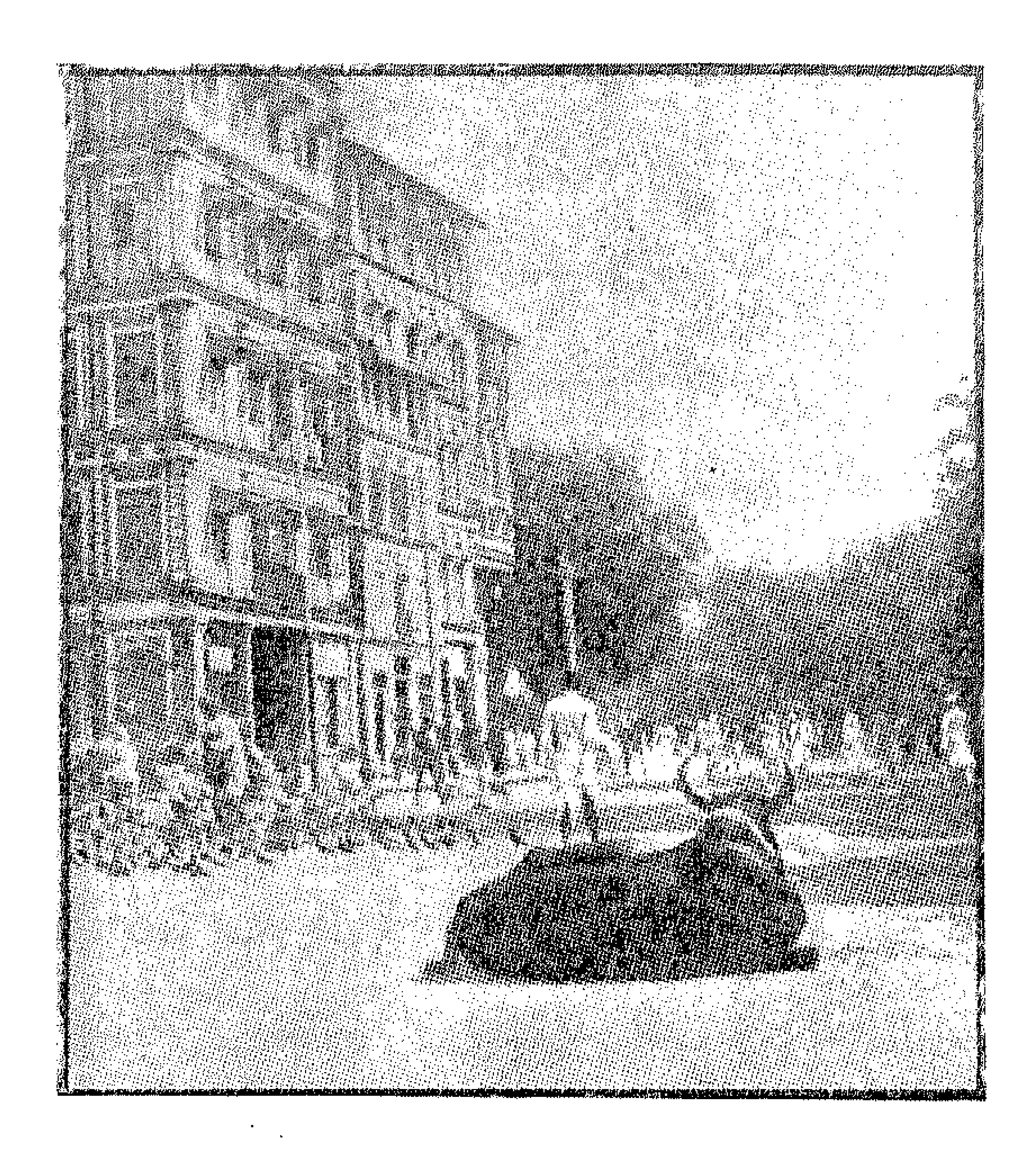
فريق من عبدة النار فى بنارس

لا يغتفر فكم من مرة كان يفاجئنى سائق السيارة أو الترام بالوقوف لأن هناك بقرة تنام وسط الطريق فلا يجرؤ أحد أن يضر بها وان طال وقوفه نزل فمسح عليها برفق حتى تقوم ودهشت مرة وأنا فى محطة (راتلام) لأنى رأيت قطار السكة الحديدية أخذ يدوى صفيراً وهو مقبل على المحطة ثم وقف فجأة وبالبحث وجد الناس بقرة تمرح بجانب القضبان ، وقد حدث مرة أن أميراً هندوسياً صدم بقرة بسيارته فقتلها فظل يكفر عن ذنبه هذا بالهدايا الباهظة للبراهما أمداً طويلا حتى غفر ذنبه ، وكل فرد وهو على سرير الموت يمسك بذنب البقرة حتى تفيض روحه أن أراد الجنة

بلغنى أنه لما حضرت الوفاة مهراجا كاشمير الأخير طلب أن تساق البقرة اليه فى غرفته فلما لم يفلحوا فى ذلك حُمل الأمير اليها فأمسك بذنبها حتى فاضت روحه ، وقد قيل ان العصيان الهندى الكبير كان من السهل تلافيه

لو أن بريطانيا منعت ذبح البقر، وكان ولا يزال بعض الجند يأبون حمل السلاح لظنهم أن دهن البقر يدخل فى تركيبه وثار الكثير لأنهم كلفوا أن يفرغوا قطراً تملأها لحوم البقر المحفوظة فى علب جىء بها من استراليا

ويقدس الجميع خمسة منتجات فى البقرة وهى : اللبن والمسلى واللبن المتجبن والروث والبول ، وتلك توضع فى أوان ساعة الصلاة ثم تمزج ببعضها ويشربها القوم تبركا كأعظم مطهر من الآثام وهذا المزيج يسمى فى عرفهم (Panchagavia) وغريب أن يكون أثر البول فى الطهر أبلغ لديهم فكثيراً ما كنا نرى الناس يقفون أثر بقرة لكى يحملوا البول وهو دافئ فى آنية ويسرعون بها إلى بيوتهم ليشربوه على الفور أو ليدهنوا به وجوههم ورءوسهم وقد يتلقاه الرجل فى يديه ويحتسيه أمامنا وهم يعدوننا أنجاساً لأننا نأكل لحم البقر ولذلك فهم لايسلمون علينا باليد مطلقاً وان اضطر وجهاؤهم لبسوا القفازات فكم من مرة مددت فيها يدى لأصافح بعض من تعرفت بهم من زملاء القطار من بين المتعلمين فكان خجلى شديداً عند ما كنت أراهم يرفضون ذلك ويضمون أيديهم إلى صدورهم لرد تحيتى لهم وحدث مرة أن خادم القطار قدم لى الطعام فى العربة التى كنت أركبها ، وما كاد يقع نظر اخوانى الهنود من حولى على اللحم الذى آكله حتى تنحوا عنى وأخذت ترمقنى نظراتهم بشئ من الاشمئزاز وقد عانيت طويلا حتى استعدت علاقتى الحسنة معهم كرة أخرى وصارحنى بعضهم أنه يرى فى ذلك الرجس كله وان نفسه تتقزز ويعروه الشعور بالقئ لمجرد رؤية اللحم ، وكثيراًما كنا



البقر المقدس يعترض أمهات الطرق فى بمباى

نرى البقر تطوق جيده العقود وتخضب قرونه بالألوان وتزينها أطواق النحاس البراق ويقبل المارة على البقر لثما وتقبيلا

ومن عجيب أمرهم انهم يهملون اطعام البقر على قداسته ويكتفون بتركه يجوب الطرق ويرعى ماألقى فيها من قمامات لذلك نرى غالب الأبقار عجافا هزالا قد أصابتها مختلف الأمراض ومما ساعد على انحطاط نوع البقر هناك ن من يهب عجلا أو بقرة للمعبد تبركا أو لمناسبة موت عزيز لديه يبتاع رخص الأنواع وأردأها وتطلق هذه وتظل ملكا للمعابد بدون رعاية أو

استغلال ، وقد قدر عددها بنحو سبعين مليونا لايستفاد منها بشيء ولو استغل هذا العدد لأنتج ماقيمته ١١٧½ مليون جنيه فى العام ، وطالما تقع المشاحنات المبيدة بين الهندوس والمسلمين يوم عيد الأضحى بسبب ذبح العجول ، وان نعجب فعجبنا من تناقضهم فالبرهما هو الذى يبيعها للمسلمين أحياناً إلى ذلك تضاف قسوة الهنود جميعاً فى معاملة ذاك الحيوان المقدس عند استخدامه فى جر العربات ، والعجول هى دابة الجر الرئيسية فى الهند فلا تكاد ترى حيواناً سليم الذنب لأن السائق يضغط على فقرات ذنبه طول الطريق يستحثه على مواصلة السير لذلك تراها تتكسر ، إلى ذلك تعذيب البقرة ساعة حلبها اذ يُدخل الحالب فى دبر البقرة عصى زودت بأهداب خشنة ولا يفتأ يحركها معتقداً ان ذلك يدر اللبن (Phuka) غير آبه بما يحدثه ذلك فى البقرة من الآلام المبرحة

عبر الدكن : قمنا نتسلق الغات الغربية ونعبر هضبة الدكن الى مدراس (٢٥ ساعة) فجرتنا قاطرة كهربائية وأخذت تصعد بنا فى سرعة مخيفة والمناظر من حولنا كأنها من مناظر سويسرا أو اسكندناوه أو الراكس فى النمسا بين ربى تكسوها الخضرة الوفيرة وخوانق وهوى غائرة سحيقة ومجارى وغدران ونقائع آسنة وكأنها من لجين ، ظل المنظر هكذا ساحراً زهاء أربع ساعات حتى وصلت پونا ، وهنا عادت المناظر مملة موحدة مذ أصبحنا فوق هضبة الدكن على أن الجو قد تحسن ونقصت الحرارة نقصاً محسوساً ، والسكة الحديدية الى هنا عمل هندسى عظيم غاص باللبيات والمطاوى

العجيبة والانفاق المتعددة والكهرباء تستمد من منحدرات للماء حبس ماؤها في أنابيب ضخمة لتزيده قوة ، لبثنا نسير فوق الدكن طويلا تلك البلاد التى تكاد تكون جافة إذ لا يصيبها من المطر الا النادر لذلك كنا نرى في الحقول شبه آبار أو أحواض مستديرة يملأها المطر ويدخر فيها ليستقى منه القوم وقلما كنا نمر بالقرى والدساكر مما يؤيد ندرة السكان هناك على أن بقاعا من الأرض كان يعدها ذووها استقبالا للمطر الضئيل المنتظر ، والناس هنا أكثرهم همجية من سواهم ولا يزال غالبهم من سلائل (الدراڤيديين) سكان الهند الأوائل ومن أعجب عاداتهم أن يشاطر فى الزوجة الواحدة أكثر من زوج واحد وبخاصة الاخوة وكانوا الى أمد قريب يتعقبون أنسابهم عن طريق الأم لذلك كان الميراث الرئيسى لابن الأخت أو ابن بنتها أو لأى شخص من فرع الأناث أما الابن فلا يرث ولا تزال لتلك العادة اليوم بقية بين قبائل (تودا Toda) هناك ويعد الهندوس أولئكم القوم من الطبقات النجسة المنبوذة

الطبقات والمنبوذون : لما أن أغار الهندوس على الدكن من الشمال قسموا الناس طبقات بعد أن تملكوا الأراضى ووضع زعماء الدين (البراهما) أنفسهم موضع وكلاء الآلهة ويليهم فى المقام المقاتلة (Kshattryas) ثم الزراع (Vaisyns) وكان يحتقرهم أفراد الطبقتين السابقتين ثم يلى أولئك طبقة (Sudra) السدرا وهم الخدم والأتباع ومن كل أولئك يتكون الهندوس وأخذت تلك الطبقات الأربع تتشعب الى شيع ومذاهب عدة

فكانت الى سنة ١٨٧٢ ٦٩ ونما عديدها حتى أصبحت ٢٣٧٨ فى سنة ١٩٠١ ولا تزال تزيد فى كل يوم و يعتقد الهندوس أن الرجس يصيبهم ان اقتربوا من أحــد أفراد طبقة أدنى منهم ولا يتبادلون المصاهرة قط ويقاطع الجميع كل فرد فقد شرف الانتساب لطبقته فلا تقبله حتى الطبقة التى هى أدنى منه ولا يغفر ذنبه الا بعد تقديم القرابين الباهظة (للبراهما) وكثيراً ما كنت أرى القوم فى عربة القطار ينتحون جانباً و يخبئون طعامهم عن أعين الأجانب أمثالى خشية أن تدنس نظراتنا طعامهم الطاهر وكنا نرى جميع الناس حتى المدقعين منهم يحملون أوانى من نحاس بها ماء يشرب المسافر منه ولا يأمن لغيره قط أن يمسها مخافة تدنيسها واذا فرغت ينزل فى المحاط بنفسه فيملأها بيده من صنبور محكم الغلق تعده مصلحة السكة الحديدية فى جميع المحاط لهذا الغرض ، وفى السجون يأبى المجرم تناول الأرز حتى يتأكد أن الطاهى من بين أفراد طبقته

وهناك طبقة تعدها الطبقات السالفة دون الجنس البشرى و يطلقون عليها كلمة پارياه (Pariah) خصت بهم الاعمال الوضيعة ولحق اسمهم العار من بينهم الكناس والحانوتى والحلاق والمولدة وغيرهم وقد حرموا التعليم فلا يباح لهم القراءة حتى فى الكتاب المقدس ولا يدخلون المعابد ، وليس لهم أن يستقوا من الآبار العامة ولا يتقاضون أمام المحاكم ولا يدخلون صيدلة ولا حانوتاً وفى بعض المقاطعات لا يباح لهم المرور فى الطرق العامة مخافة تدنيسها فيبتاعون حاجاتهم بوساطة قوم يؤجرون على ذلك ولهــم أن يمارسوا مهنة التسول وعندئذ لا يقفون

فى الطرق بل يصيحون وهم على بعد فان ألقى اليهم المارة بالصدقات انتظروا حتى يفرغ الطريق من المارة وأسرعوا لالتقاطها والعودة عاجلا و يعد البعض ظل أولئك نجسا فان سقط على طعام وجب اتلافه ، ومن هنا فهمت السبب الذى من أجله كنت أرى كل ركاب القطار يحملون (أعمدة الطعام) من أربع (طاسات) أو خمس كلها من الأرز ذلك مخافة أن يصيب الدنس الطعام وعندئذ يمكن اتلاف (طاسة) واحدة لا الجميع و بعض أفراد تلك الطبقة يدنس غيره وهو بعيد عنه من أثر تنفسه أو رائحته لذلك يقف أولئك على بعد قد يفوق مائة متر عن الطريق العامة فان قرب أكثر من ذلك وجب عليه أن يضع فى عرض الطريق ورقة شجر خضراء وعليها كومة من تراب ليدل الناس بذلك أن هناك فردا نجساً على مقربة فاذا رآها (البراهما) وقف وصاح غاضبا وعندئذ يعدو النجس حتى اذا مابعد عنه بالمسافة المعينة صاح هو بدوره معلنا (البراهما) بالمرور وفى بعض الجهات (كساحل مالابار) لا يباح لهم اقامة المساكن الثابتة بل أخصاص مؤقتة ولقد كان من حق سائر الطبقات الممتازة أن يطعنوا من يعترضهم من هؤلاء طعنات قد تودى بحياتهم وأن حرم القانون ذلك اليوم وعدد تلك الطبقة من المنبوذين ستون مليوناً أى نحو خمس سكان الهند ، ولقد تخصص فريق منهم اليوم فى الاجرام والتشرد والدعارة وعددهم نحو ٤½ مليوناً ينبثون فى طول البلاد وعرضها تحت اسم القبائل المجرمة

ولقد منحت الحكومة طبقة المنبوذين اليوم كثيراً من الامتيازات



احدى نساء طبقة المنبوذين الانجاس

على رغم معارضة الطبقات الأخرى لكنك تجد هذا محترماً فى المدن الكبرى أما فى الأرياف فيسلبون عملياً جميع حقوقهم ففى مقاطعة مدراس مثلا يبيح القانون قبول أولادهم فى المدارس لكنهم لا يدخلون سوى ٦٠٩ مدرسة من بين ٨١٥٧ مدرسة ويرى كثير من المتعلمين ورجال التشريع من الهنود وجوب مساواتهم بالغير لكنهم يقولون ان عملا كهذا يثير السواد الأعظم من الهندوس لأن نظام الطبقات فى صلب الدين ، وقد بدأ منبوذو بنغالة وعددهم مليونان يناضلون ليدخلوا أبناءهم المدارس ويعتنق كثير منهم الاسلام والمسيحية تخلصاً من ظلم الطبقات المبيد

والعجيب انك لاترى فرقاً فى الشكل بين الطبقات النجسة وغير

النجسة ، وقد ترى من أفراد الأنجاس من يروقك منظره أكثر من أفراد الطبقات الممتازة على انهم لايجرأون أن يدخلوا مكاناً به أحد هؤلاء والمدهش أن غالب المنبوذين راض عن هذا النظام لأن الدين هو الذى يأمر به وأن أخذ عدد الثائرين عليه منهم يزيد يوماً فيوماً خصوصاً فى مدراس ويكتب كثير من المتنورين من الهنود فى ضرورة بقاء نظام الطبقات احتفاظاً بأوامر الدين وهم يرون أن الأنجاس يكفيهم انهم لن يغمطوا حقهم فى الآخرة !

الى مدراس : ظل القطار ينهب الأرض فوق الدكن واخترق جزءا من مقاطعة (حيدر باد) أكبر المقاطعات المستقلة حاكمها أوتوقراطى شديد البأس وصاحب ثروة خيالية تحكى ثروة سليمان مذ يعد أغنى أمراء الدنيا قدرت كنوزه بأربعين مليون جنيه ، والعجيب انه مسلم مع أن تسعة أعشار رعاياه من الهندوس وهو أكثر الأمراء ولاء لانجلترا ويطلق عليه (نظام حيدر باد) وهو الوحيد الذى يسك نقوداً خاصة به تغاير سائر نقود الهند ورعاياه فى الجنوب من الدرافيديين وفى الشمال من الآريين والأراضى هنا فقيرة ذات حزون غالبها مهمل ولم أر بها من دلائل الخصب والغنى الذى كنت أقرأه شيئا وعلمت ان الأهالى يدفعون للحكومة ربية (٧ قروش) عن كل فدان انجليزى فى كل عام ، وغالب الجهات المنزرعة ينمو بها بعض أنواع الفول ثم العظلم (النيلة) وكان يبدو عشبا كالبرسيم فى ورق عريض على انه يكبر فى شجيرات قصيرة تقتلع وتعطن فى الماء ثم تغلى فتسيل العصارة السميكة وتجهز فى أقراص هى النيلج المعروف ، وكان أظهر الشجر هنا نخيل

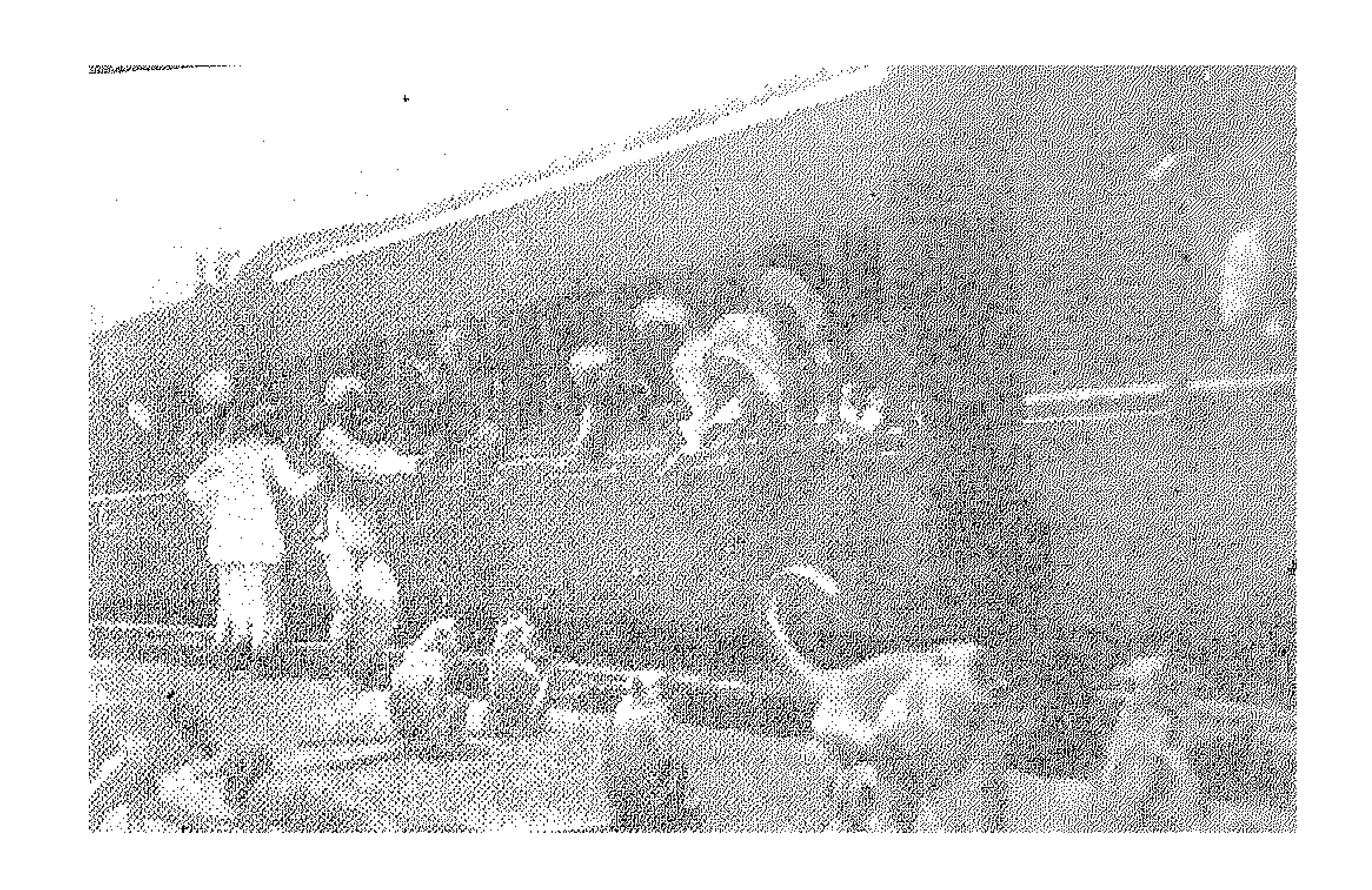


مثل من أمراء الهند الذين ينعمون على حساب شعوبهم البائسة

(باليرا) وهى شجرة تؤتى ثمراً كالنرجيل يأكله القوم ويستخرجون منه السكر واذا خدشوا الجذع سالت منه عصارة سريعة التخمر يعمل منها خمر الطبقة الفقيرة المسكر القوى الذى يسميه القوم (تودّى Toddy) واذا زرع الشجر حديثا كون جذوراً نشوية خلال الثلاثة الشهور الأولى تقتلع وتجفف ويستمد منها دقيق الحلوى

وهنا زاملنى فى القطار رجل تعرفت به بمناسبة عجيبة ذلك انى لاحظت بجانبى على زجاج النافذة حشرة تطير ولها طنين أزعجنى فعمدت الى قتلها فتعرض الرجل ومنعنى ثم تناولها بمنديله وألقى بها من النافذة و بمحادثته علمت أنه يدين بمذهب : الجانيه : وهذا يحرم اتلاف الحياة كائنةما كانت من بينها الحشرات الضارة والنحل وما اليها حتى انهم يحتمون كنس الأرض قبل الجلوس وعدم رش الأرض بماء كثير خشية قتل بعض الأرواح الطاهرة وتراهم يغطون أفواههم بقطعة من حرير خشية أن تدخل فيها حشرة أو باعوضة فتموت وهم لذلك يفضلون الاشتغال بالتجارة والصناعة ويكرهون الزراعة لأن المحراث يتلف كثيراً من الحيوان وذلك جريمة كبرى

وعدد أولئك فى الهند يناهز أربعة ملايين وهم يدعون انهم كانوا بوديين قبل أن يخلق بودا نفسه وهم يتفقون مع عامة الهندوس فى الاعتقاد فى تناسخ الأرواح فهم يرون أن الروح تحل أجسادا أخرى قد تكون آدمية وقد تكون لطائفة من الحيوان بعضها من طبقة عالية والبعض من طبقة خسيسة ، فالرجل الفاسد قد تحل روحه بعد موته سمكة أو حشرة ولما كانت جميع الحيوانات عرضة لانتحال روح آدمية حرم الجميع قتلها حتى ولو كانت مؤذية ففى سنة ١٨٩٦ حين فتك الطاعون بالهند فتكا ذريعاً عين مجلس أمر تسار جوائز تصرف لمن يمسك بالفيران كى تحبس بما فيها



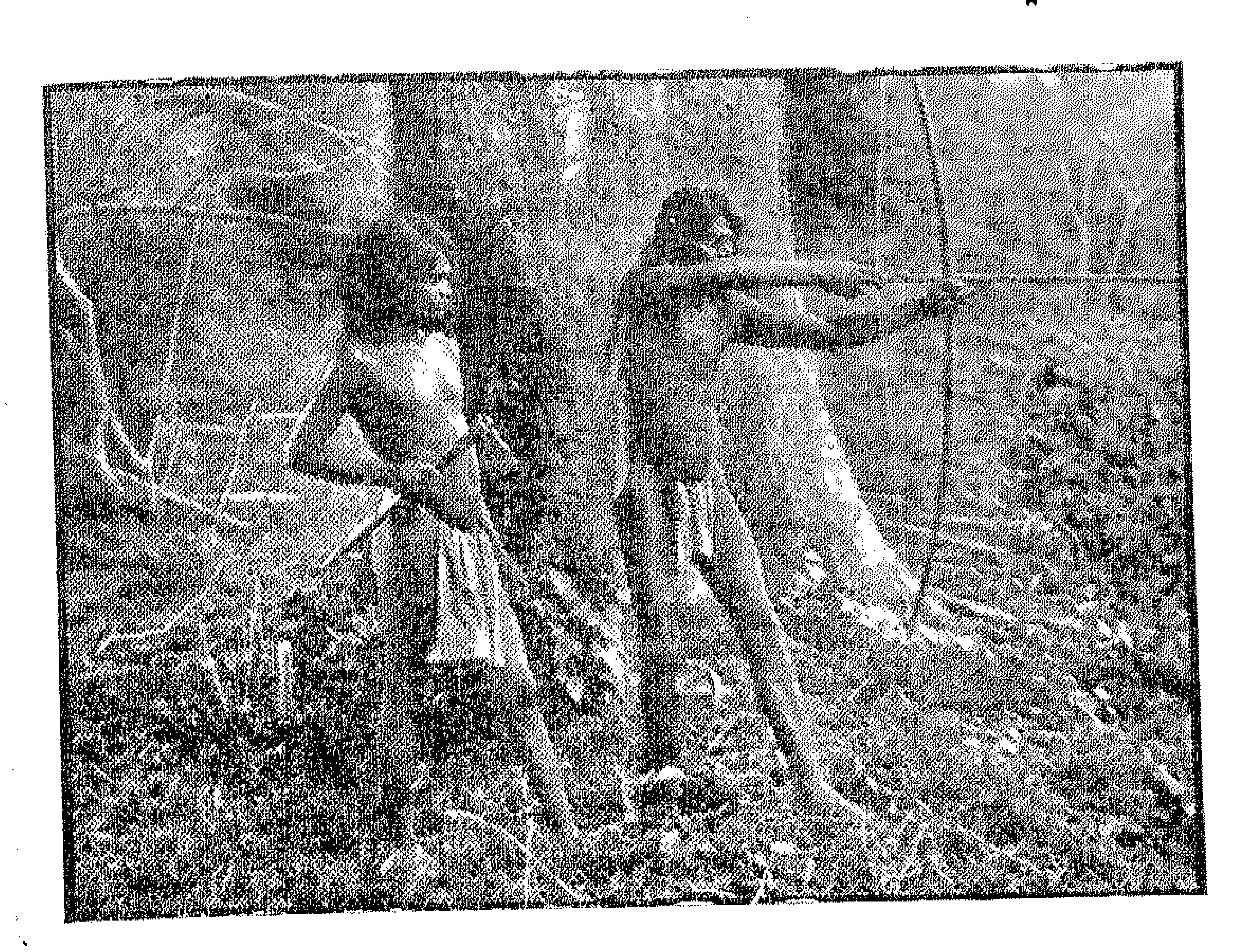
القردة تمرح آمنة حتى فى جوار السكة الحديدية

من براغيث ملوثة حتى اذا ما انقضى خطر الطاعون أطلقت ثانية ، وفى كثير من البلدان تكثر الطيور الضارة كثرة هائلة فلا يتعرض لها القوم فمثلا لما كنت فى كولمبو كانت صيحات الغربان المنفرة تلك التي تسير فى سحابات تكاد تكسو أعالى البيوت تقلق راحتى وكنت كل يوم أستيقظ حول الساعة الرابعة صباحاً على أصواتها المزعجة وكانت تقيم أوكارها فى جوانب الحجرات وزواياها بكثرة عجيبة وبعض الطيور يتلف المزارع ، ومع ذلك لا يمسها أحد بسوء وكأن طوائف الحيوان أحست ذاك الرفق فأضحت مستأنسة ، أذكر مرة أنى رأيت سربا من الطاووس يمر بجانبى فى محطة مغول سراى فى اطمئنان غريب وكم كنت أدخل من معابد أرى بها القردة تقف على كواهل الناس وتداعبهم فى غير خوف ، وقد رأيت قرداً فى سوق

دلهى يسترق الفاكهة المعروضة ويأكلها والبائع يراه بعينه فلا يتعرض له وقد بلغ احترامهم للحيوان حد التقديس فهم يقدسون القرد والفيل والنسر والطاووس والببغاء وحتى الأفعى التى يموت بسببها عدد كبير كل عام فنرى لها معابد خاصة تمرح الافاعى فيها وتنحت لها تماثيل يسجد القوم أمامها

وصلت مدراس ومنها قمت صوب الجنوب فزادت الارض فقراً وجدباً ومررنا بمحطة ترتشنو بولى ذات الصخرة التاريخية المشهورة وهنا ركب الى جانبي هندى بادن الجسم منفر المنظر وكأنه (الغول الآدمى) فجلس بجانبى ونصفه الأعلى عار ويطلى بشىء كالدهن لامع تعلوه وجبهته خطوط من التراب الدينى الذى كان يجدده بأصابعه بين ساعة وأخرى ليدل الناس على طبقته الدينية الممتازة خشية أن يدنسه من هو أدنى منه وهو من الوجهاء لما بدا من أتباعه وخدمه من ركاب الدرجة الرابعة الذين كانوا يفدون اليه فى الدرجة الثانية كلما وقف القطار وكان طوال الوقت يتمخط فى الهواء مرة كل دقيقتين و يبصق السائل الدموى من أثر العشب الذى يمضغه القوم جميعاً وكانت سيقانه وأقدامه عارية ولما حان ميعاد الغداء أخرج من جانبه قطعة من ورق شجر الموز ووضعها بجانبه وفتح عامود الطعام واغترف بكامل يده الأرز مرات ووضعه على ورقة الموز ثم صب عليه بعضا من مسلى البقر وعجنه بيده ثم أخذ يلعقه بسرعة واضطراب مخافة أن يقع نظرى على الطعام وهو يلتهمه فيفسده وقد أعاد الكرة من الطاسة الثانية ثم الثالثة وكلها من الأرز

المسلوق ليس غير واختتم الوجبة بمسح يديه فى جسمه فى شكل قذر على أنى لا أغمطه حقه فى التأنق مذ كان يحلى يديه بالسوار العريض وأصابعه بالخواتيم الثقيلة وجسده بالعقود وأذنيه بالاقراط والشيب والشيخوخة قد نالت منه كثيراً

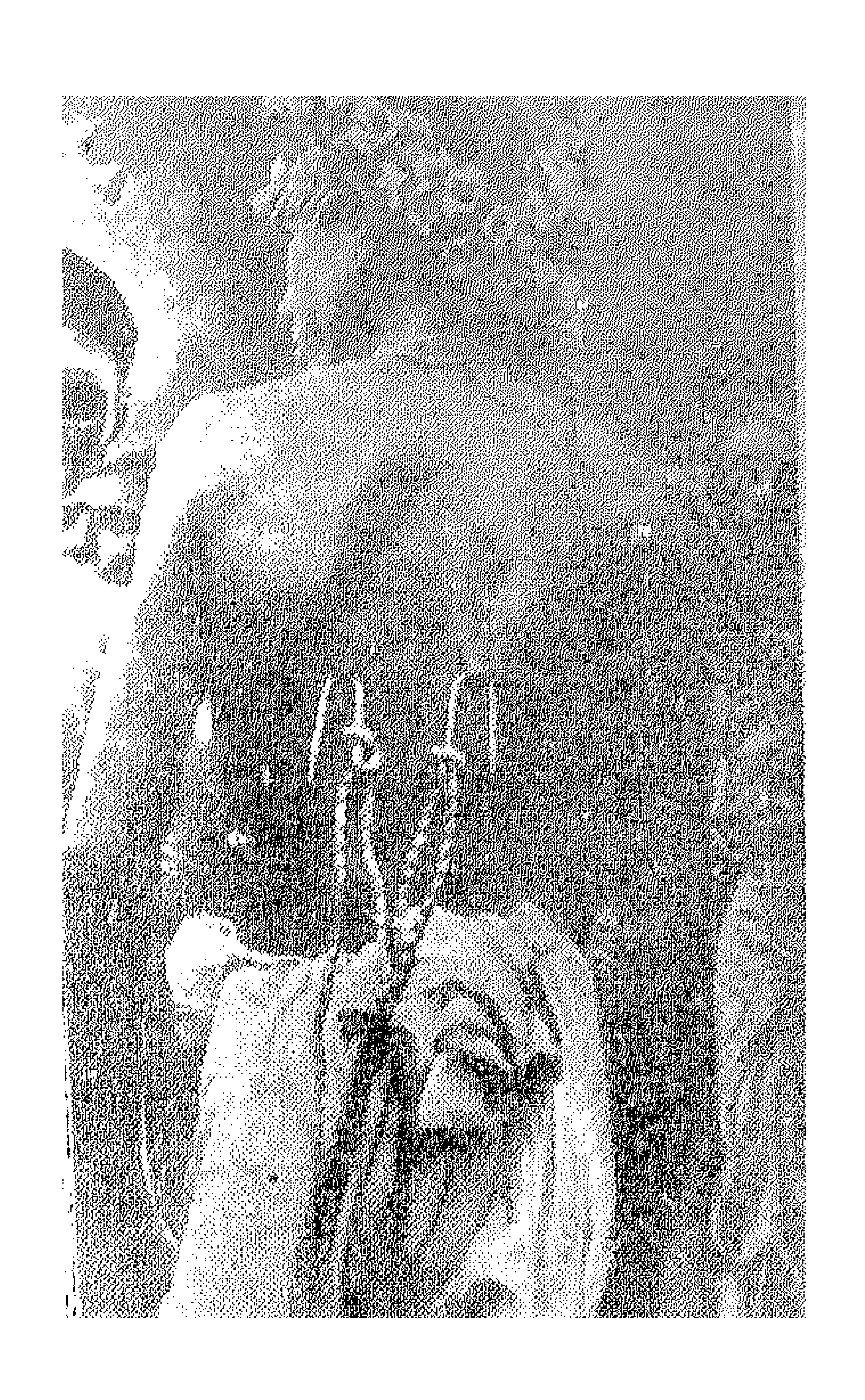


ما زال قبائل الفدا أهل سرنديب يجوبون الغابات بحالتهم الهمجية

وصلنا نهاية الهند الجنوبية وانتقلنا إلى جانب البحر كى نستقل السابحة عبر خليج منار الى جزيرة سيلان وهنا جاء الطبيب وحجر على جميع الركاب الوافدين من مدراس لأنها كانت مصابة بالكوليرا وكاد يمنعنى من الدخول الى الجزيرة لولا أن أبرزت له تذكرة السفر على الباخرة (فوشيمى مارو) الى اليابان من كولمبو فى اليوم التالى مباشرة

خاتمة : ذلك بعض مارأيته فى بلاد الهند التى يخطئ الكثير فيعدونها قطراً واحداً على انها فى الحق قارة لا بل عالم بأسره مذ زاد عديدها على خمس سكان الدنيا وتعددت شعوبها الذين يتكلمون ٢٢٢ لهجة مختلفة ونحو خمسين لغة كتابية متباينة وقد اتسع نطاق عقائدهم من أعماق الفلسفة البرهمية الهادئة الى سذاجة عبادة الطبيعة وتقديس الحيوانات الدنيا، والهنود أكثر الناس تدينا وبخاصة الهندوس وهم ٢١٦ مليوناً ومجموع سكان الهند ٣٢٠ مليوناً وكانوا عباد الطبيعة منذ ثلاثة آلاف سنة ثالوثهم المقدس (المطر والنار والشمس) ثم أعقب ذلك اعتقادهم فى براهما روح القدس الذى يتغلغل فى كل شىء ويسود كل نفس ولا تكاد ترى عملا أو تصرفا يتم فى معزل عن الدين لذلك مثلوا براهما فى رموز شتى نراها نحن مضحكة عجيبة فبراهما هو الخالق وله أربعة رءوس وأربع أذرع وهو فى معنى آخر يتمثل فى ڤشنو الإله الحافظ لكل شىء (يحمل طوقا وصدفة ومضربا وغصناً من البشنين كلا فى يد) ، وفى معنى ثالث يتمثل فى سيڤا إله التدمير والانشاء يحوط أفخاذه جلد النمر ثم أعقبت ذلك رموز براهما المقدسة وهى : السمكة والسلحفاة والحلوف والانسان يبدو فى صورة الأسد والبطل راما وكرشنا وآخرهم بودا الذى ضم الى القائمة المقدسة استرضاء للبوديين أما البطل راما فكان له خادمه هانومان يعبده القوم فى شكل قرد عليه طلاء أحمر أما كرشنا فيخضب باللون الأزرق ويطأ أفعى بقدميه ويعزف على مزمار وكان له زوجات عدة وذرية لا حصر لها وتقدسه بصفة خاصة طبقة العمال وكانت

زوج فشنو آلهة الجمال والثراء ظهرت من تحت ماء البحر وكأنها الزهرة ويقدسها أصحاب المتاجر والحوانيت أما سيفا فيختلف الى المقابر ومحارق الجثث وزوجته قالي (الفظيعة) التي لا يمكن استرضاؤها الا بسفك الدماء وتقديم الذبائح وابناهما (جانش) مجدد الحظوظ بجسمه البادن يتوجه رأس فيل، وكارتيكيا إله الحرب وقائد الأحياء من الجن



أحد أبطال (الفقراء) خزم ظهره
بين إعجاب مواطنيه

هكذا نشأت عقائدهم وتعددت آلهتهم وملأت آفاق الهند معابدهم وأنصابهم فى غير حصر حتى حق عليهم قول هيرودوت فى أجدادنا قدماء المصريين (انهم أكثر شعوب الأرض تعبداً) لذلك أضحت البلاد مربى خصيباً للشعوذة والخرافات والمعجزات التى يعتقدها الجميع بأيمان وثيق

فالقديسون فى زعمهم يستطيعون قطع الألسن وأرجاعها الى حالتها الأولى والقاء حبل فى الهواء يظل عالقاً ثم يصعد عليه القديس و يعود وفى يده اشلاء ابن عاق لا يفتأ أن يعيده القديس إلى الحياة وأمثال تلك الخرافات عديدة بحيث يخيل للانسان أن كل شىء مهما بدا معجزاً يمكن حدوثه فى تلك البلاد المحوطة بالاسرار

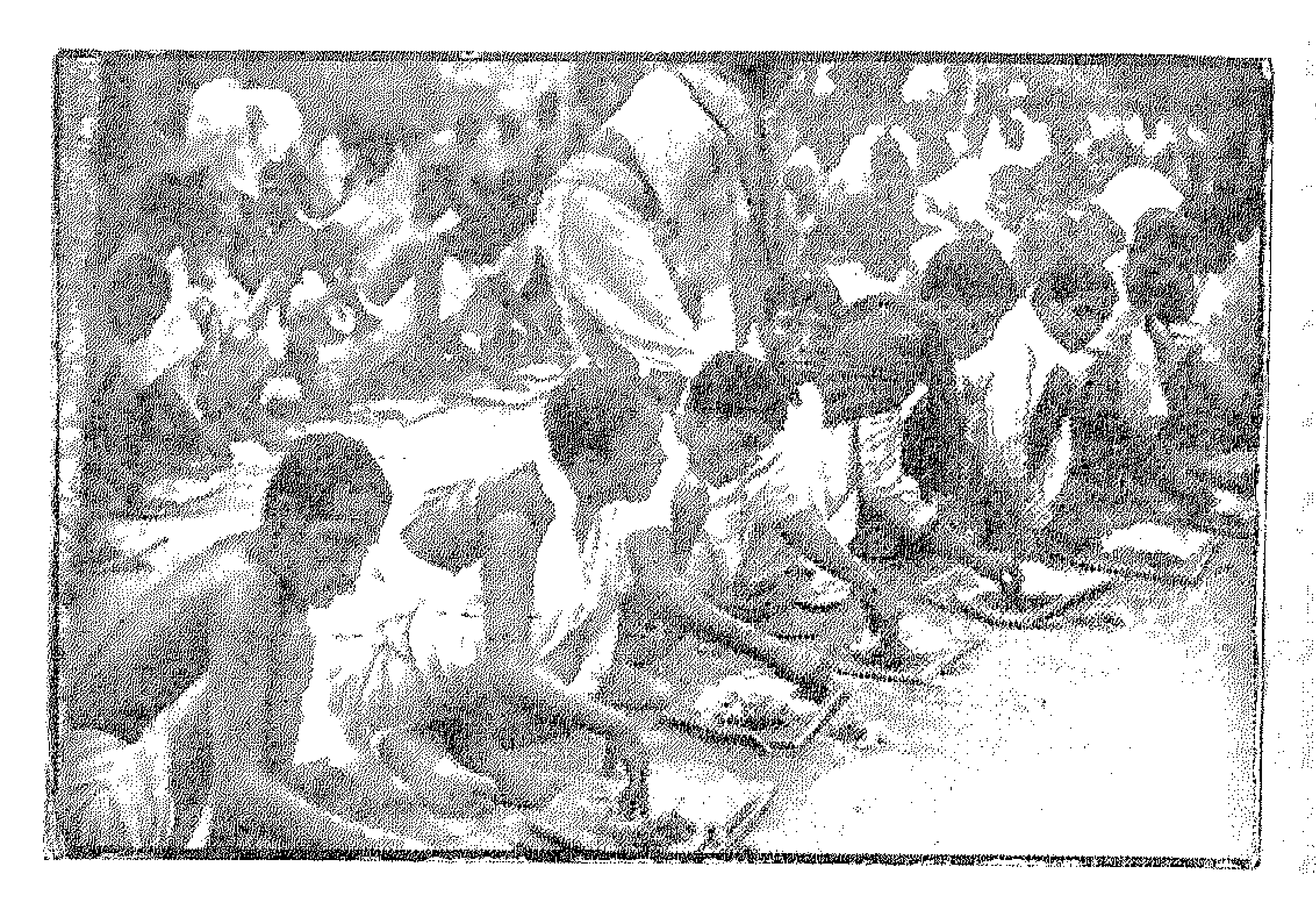
وعقلاؤهم يمضون وقتهم فى التفكير العميق و يضنون أجسادهم فى سبيل تغذية نفوسهم فتقتصر أمانيهم على خرقة تستر العورة وطعامهم لا يتجاوز سد الرمق وغلاتهم من مختلف المذاهب يسمون (الفقراء) و يقدسهم مواطنوهم لأنهم نبذوا الدنيا ورغبوا فى الآخرة فبعضهم يعذب نفسه و ينام على القتاد والبعض يخزم ظهره و يعلق من جسده فى الهواء طويلا استرضاء للالهة سيفا والبعض يدفن نفسه حياً أو يرفع ذراعه الى السماء حتى تتصلب عضلاته أو يقف طوال حياته وهو يرعش جسمه ولا يتكئ على شىء يخفف من آلامه وتميز كل أولئك جدائل من الشعر ترسل فى غزارة منفرة

ولا يفوتنى أن أشير الى مبلغ الجهل المطلق والفقر المدقع الذى كنت ألمسه فى كل نواحى الهند حتى كدت أشك فيما قرأته طويلا عن تلك البلاد وما فيها من منابع للثروة والعلم لاتنفد فالأمية هناك عامة والجهل منتشر وقد ساعدت على ذلك عوامل من بينها تعدد اللغات وتعدد حروف كل واحدة (بين ٢٠٠ و ٥٠٠ حرفا) وتعدد الطبقات وتعدد القرى وتفرقها بحيث يصعب أن تزود بالمدرسين الى ذلك عدم الرغبة فى تعليم النساء وهو

نصف السكان تماماً وكذلك طبقة المنبوذين مما أخرج من دائرة التعليم نحو ١٥٠ مليونا بين منبوذين ونساء إلى ذلك أعراض الأمراء عن تعليم الأفراد خشية أن يثوروا عليهم وعدم توافر المال للانفاق على التعليم

(الفقير) المحزوم يتدلى من تلك الرافعة إمعانا فى تعذيب نفسه

أما جانب الثروة فمهمل الى حد كبير فالأراضى تزرع بطرق عتيقة و بغير تسميد والملكية مشتتة فى مساحات متفرقة وانتاج الماشية معطل لأن ٧٠ مليونا منها فى ملكية المعابد الى ذلك نفقات الزواج التى تلزم الآباء أن يدفعوا لبناتهم أموالا طائلة أما الاستدانة بالربا الفاحش فشائعة بين الجميع حتى قدر الدين على الهند من تلك الناحية بنحو ٤٠٠ مليون جنيه (الربا بين ٣٣ و ٢٠٠ ٪) و يميل عامة الهنود إلى إكتناز المال و بخاصة الذهب ما استطاعوا بغير توظيف ولا يقل ماهو مكنوز عند الأهالى عن ٥٠٠ مليونا فلو وظف هذا لأصبحت الهند من أغنى بلاد الدنيا و يقول رجال



فى مواسم الحج تأكل كل طبقة من الهندوس وحدها وتقدم الصدقات من طعام الارز على ورق الموز بدل الا نية خشية تدنيسها

الاقتصاد أن الهند وحدها تبتلع ٤٠ ٪ من انتاج الذهب فى الدنيا و٣٠٪ من الفضة فى كل عام ، ولا تنس أثر التسول فى فقر البلاد فالدين البرهمى يحث الناس على التصدق للمتسولين لأن ذلك يعد دينا لهم يتقاضونه فى الآخرة ولقد نما عدد أولئك حتى بلغ ٧½ مليونا من بينهم طبقة الفقراء وهم مليون ونصف تقريباً هذا إلى عدد البراهما الذى يتعذر حصره

ويُعد كثير من الهنود نفقات الدفاع أكبر مبدد لثروة البلاد مذ تستنفد فى زعمهم ٥٩ ٪ من الميزانية فلا يبقى شىء يذكر لينفق منه على اصلاح شئون البلاد ، وأن قرر الانجليز انها لاتزيد على ٣٠ ٪ أى بمعدل ٢½ شلن على كل فرد فى الهند يدفعها فى كل عام أعنى فوق ثلاثين مليونا من الجنيهات

على انا يجب أن نذكر أن مدنية الهند بدأت قبل المدنيات الاوروبية وان ظل سيرها بطيئاً وتقدمها غير محسوس ويرى بعض أبنائها ان مدنية الهند لها فضل على العالم من الناحية المعنوية التى تسعى وراء المثل الأعلى لا المادة كما فى الغرب ويرى بعض الحكماء أن الهند منشأ الانسان ومنبت فطنته ففى تلال (سيواليك) الواطئة جنوب سملا وما يليها شمالا بغرب إلى أفغانستان دفائن قيمة لفصائل بائدة من حيوان يرجع عهده الى العصر الثالث الجيولوجى وهى أكبر مجموعة كشفت لحفريات الحيوان الثديى دلت على أن شمال غرب الهند هى المنطقة التى نشأت فيها ومنها تشعبت سلائلها الى جميع الأصقاع ولذلك أصبحت تلك الزاوية من الدنيا محط أنظار الباحثين من مختلف الاوساط العلمية وهم يرجحون أنها مولد الانسان الأول.

الملايو

جنة الدنيا و بستانها اليانع

الى سنغافوره والملايو : فى خمسة أيام بعد مغادرة كولومبو أقبلنا على سنغافوره وسط الجزائر المنثوره ازاء ساحل سومطرة الى اليمين وشاطىء الملايو الى اليسار والبلاد صخرية على الجانبين وبخاصة سومطره التى بدت فى شكل مخيف بر باها المعقده التى تتعاقب كأنها عقد من جبال لا نهائيه وكنا نقدم ساعاتنا كل يوم حتى بلغ مجموع ما قدمناه من كولمبو ساعة ونصف وكأننا بذلك كنا نتعجل الأيام ونسابقها مذ كنا نقارب مشارق الشمس فيبكر ميقات الظهر كل يوم عن سالفه .

سنغافوره (ومعناها مدينة الأسد) : بدت ممدودة الأرصفة على جوانب الربى التى يتلوى خلالها البحر فى عدة أجوان مكنتها أن تؤوى من السفن شيئاً كثيراً كل طائفة فى مقصورة منعزلة عن الاخرى وعلى جوانب الربى تقوم المساكن بسقوفها الحمراء المتحدره وتشرف عليها الحاميات العسكرية العاتية . حللت المدينة فاسترعى نظرى بها حسن القيام على طرقها الفسيحة النظيفة تجانبها المجارى لتصريف مطرها الوابل المستمر والترام هناك يسير على الأرض فى غير قضبان يكسو عجله المطاط المصمت وله سنجتان متجاورتان تتصلان بسلكين وهو يسير بمهارة عجيبة ويتلوى من جانب

الى الآخر والسنجة
لاتزال متصلة بالاسلاك
وغالب البيوت فى
هندسة بسيطة لاتزيد
على طابقين وتشرف
على الطرق ببوائك
ضيقة بدل الأطارين
أتقاء المطر وعليها تقوم
المحـال التجارية
باعلاناتها التى تكتب
بالصينية والانجليزية
فى شرائح مستطيلة
وغالب السكان من
الصينيين يليهم الهنود

أمام مسجد سنغافوره

ثم الملايو ومن الغريب أن الذين يفهمون الأنجليزية قليلون ويشق الجزيرة
نهر سنغافوره الصغير تجانبه شعاب البحر الضيقة وكأنها القنوات تعبرها
القناطر العديدية والمتنزهات الجميلة والميادين الجذابة لاتدخل تحت حصر
والمدينة خفيفة الروح الى حد يجعلها من المدائن النادرة وفى المساء دخلت
ملهى تعرض به بعض العابهم أذكر منها مقصورة الغناء الصينى كان يجلس
الفتيات حول مائدة عليها الانوار وحولها المصابيح المعلقة من الورق الصينى

الملون وكان يقف خلفهن قارع الطبل وضارب الناقوس وعازف (الرباب)
أما الغناء فتوجع فى غير توافق وكانت تخفى شدة الطبول المزعجة تلك الاصوات
المنفره ثم مقصورة للرقص الصينى وغالبه بحركات الارجل والأيدى وثالثة
للتمثيل على النمط الهزلى المصرى ولم يكن تزاحم القوم على تلك الملاهى
كبيرا رغم رخص أجورها وكانت تسترعى نظرى الثروة الهائلة فى النبت
من حولى أينما حللت مما أيد القول بأن الملايو جنة الدنيا وبستانها اليانع
وأخص أنواع النبات هناك (المطاط) باشجاره الفضية النحيلة الباسقة التى
تعد اليوم أعظم موارد الثروة هناك على الرغم من أن أثمانه قد تدهورت
تدهورا مخيفا حتى بدأ القوم يفكرون فى استبداله بغيره وقد كانت النباتات
متعددة وغلات البلاد منوعة لكن علو سعر المطاط حدا بهم الى استئصال
كل ما عداه حتى كاد شجره اليوم يسد الأفاق مع أنه دخيل أتى به القوم
من أمريكا عقب ان كشفها كولومب الذى رأى صبية الامريكان يلعبون
بالمطاط الكرة فتساءل ماذا عسى أن تكون تلك المادة التى تبدو صماء ثقيلة
فاذا ما لمست الأرض اضحت جوفاء خفيفة فأجابه القوم قائلين (كاوتشو)
وأروه شجره وعصيره الذى اذا سخن جمد وكون تلك الكور والاقراص
السوداء وكذلك رآه بتزارو فيما بعد فى بيرو وقد ضايقه المطر فرأى الأهالى
يلبسون أحذيتهم وأغطية رءوسهم من (الكاوتشو) فنقلوه الى الشرق ولم
تعرف فائدته فى مسح الكتابة إلا بعد قرنين ونصف وفى القرن التاسع عشر
استخدم فى الانابيب ثم ضنع منه (ماكنتوش) رداءه الواقى من المطر

بأن الصق قطعتين من القماش بمطاط رخو لين وأخيرا عرفوا كيف يخلطونه بالكبريت ليحتمل تقلب الاجواء ولما زادت شهرة المطاط زرعه الانجليز فى حديقة (كيو) فى لندن داخل بيوت زجاجية ومنها نقل الى المستعمرات الشرقية ومن بينها سيلان والملايو وهنا أحرق القوم اشجارهم جميعا ليخلوا الجو لشجر المطاط وكنا نرى العمال فى المزارع يجوبون أرجاءها بمشارطهم التي يشقون بها خدوشا تسيل منها العصارة الى كيزان معلقة ثم يجمع العامل الواحد فى كل يوم محصول ٣٠٠ أو ٤٠٠ شجرة وينقله الى المصنع وسط المزرعة ليغلى ويصير أقراصا هى المطاط الخام وقد كان يباع الرطل قديما بستين قرشا فنزل اليوم إلى قرشين ونصف لذلك حل بالبلاد كساد لم يسبق

فتيات الملايو فى سحنهم العربية الجميله يجمعن المطاط

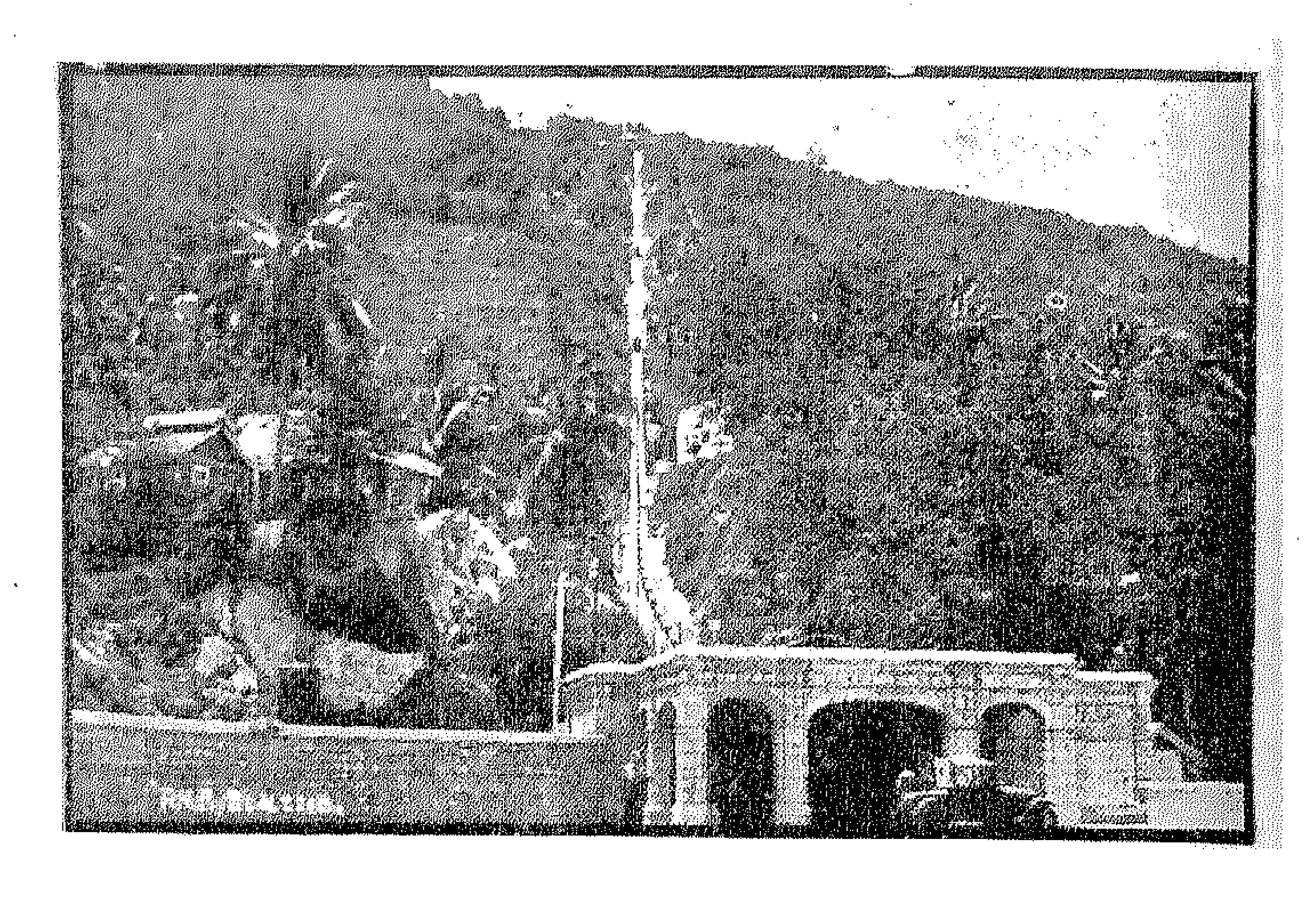
له مثيل وأفلس فى المطاط كثير من كبار التجار هناك على أن البعض يرى بصيص أمل فى أن هذا الرخص سيزيد الطلب على المطاط فيعود الى حالته المربحة رغم ثمنه الضئيل

سلطنة جوهور : من ضواحى سنغافوره ركبنا اليها سيارة عبرت جزيرة سنغافوره كلها سائرة الى الشمال صوب الملايو ولا تسل عن ثروة الطريق فى الأدخال والغابات بعضها غفل لم تمسسه يد الانسان وهنا كدنا نذهل لتعدد الفصائل من الشجر والعشب والسرخس الى ذلك الحيوانات الوفيرة وبخاصة القردة التى كانت تطل علينا من جميع جوانب الغابات ويقول القوم بأن تلك الاماكن غنية جدا بالافاعى والخفاش واليراعة وبعض الوحوش أما طريقنا فكان يتلوى كالأفعى وسط الغابات القاتمة وحيث كانت تتعهد الارض يد الانسان كنا نرى أشجار المطاط فى صفوف متوازية تكاد تملأ ثلاثة أرباع الأراضى وقد مررنا ببعض المزارع وفيها بدأ ذووها يستأصلون الشجر ليفسحوا المجال لغيره كالخضر والفاكهة وبخاصة الأناناس الذى كان يبدو نباته وكأنه الصبار الكبير تتوسط كل شجيرة ثمرة واحدة فى طول (كوز الشمام) وفى لون برتقالى وملمس خشن محبب وكلما قطعت الثمرة أعقبتها غيرها ويستمر الاثمار طول العام

لبثنا نسير بالسيارة وسط تلك الجنة النادرة زهاء ساعتين وبعدها عبرنا البوغاز الى الملايو فدخلنا سلطنة جوهور وهى إحدى ولايات الملايو التى يحكمها سلطان مسلم تحت إشراف الانجليز وعند ما قاربنا قصر السلطان دخلنا فى

مجموعة من متنزهات أبدع تنسيقها يتوسطها قصر من طابقين تمد فى الدور الأسفل غرف الولائم وعليها السمط الفاخرة وغرف المعروضات من الهدايا بين فضة وذهب وأسلحة وفى الطابق الأعلى غرف الجلوس والنوم وكلها على النمط الغربى والسلطان زوج لأحدى الأوروبيات قلما يقيم هناك فهو يمضى تسعة شهور خارج بلاده ويعيش عيشة بذخ واسراف شديد والناس من دونه يكاد يقتلهم الفقر وهكذا سائر الأمراء أمثاله فى تلك الولايات ينعمون على حساب الرعايا البائسين فسبحان مقسم الأرزاق ! وبجانب القصر مسجد فى هندسة شبه مغولية تقوم حوله أبراج بدل المآذن وبهوه فاخر النقش والاثاث ينزل الانسان درجا من رخام الى المغسل (الميضة) الفسيحة للوضوء ، وفى عودتنا الى سنغافورة زرنا حديقة النبات ذائعة الصيت وبخاصة فى مجموعة أشجار الفاكهة الممتازة

أبحرت الباخرة وظلت تسير خلال مجاميع الجزائر تكسوها الغابات والربى زهاء ثلاث ساعات مما يقنع المرء بعظمة هذا الموقع من الوجهة العسكرية فهو حقاً مفتاح الشرق الأقصى ولذلك ليس بعجيب أن وجدنا العمل سائراً على ساق وقدم فى أنجاز القاعدة البحرية الكبرى رغم أكلافها الباهظة التى لاتقل عن أحد عشر مليون جنيه ، وأول من احتل جزيرة سنغافورة (السير ستامفورد رافل) سنة ١٨١٩ وكانت تكسى بالغابات المهملة وبها قرية حقيرة فابتاعها الانجليز من سلطان جوهور بخمسة آلاف جنيه و ١٥٠٠ جنيه كمرتب سنوى يدفع مدة حياة ذاك السلطان واليوم



صخرة بنانج تكسوها الغابات ويتسلقها ترام الجبال

تضخم سكانها فأضحوا ٤٢٠ ألفاً منهم ٣١٥ صينيون و٥٤ ملايو و٣٢ هنود ولكثرة التزاحم هناك بدأت الحكومة تفكر فى تحديد المهاجرة اليها واعترافا بفضل (السير رافل) ترى تمثاله يزين أكبر ميادين المدينة واسمه ذائع فى كثير من منشآتها

أما سائر الملايو فتتألف من ولايات بعضها مؤتلف والبعض تحت سلاطين مستقلين وجميعهم تحت إرشاد الانجليز وأول مكان احتله الانجليز من شبه الجزيرة مدينة ملقة التى انتزعوها من هولنده ثم بنانج وهى جزيرة على الساحل الغربى وكانت تدير كل ذلك شركة الهند الشرقية

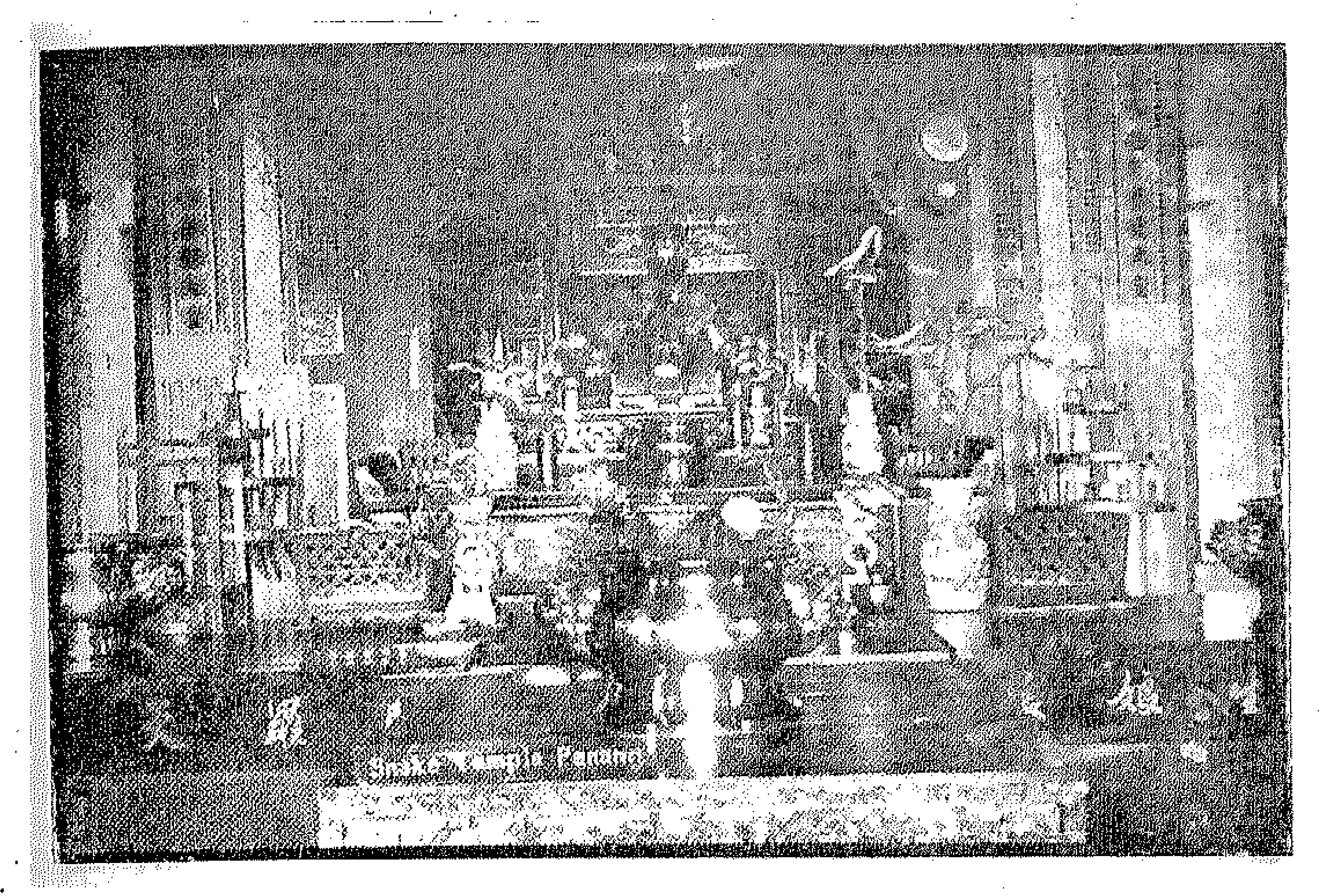
ثم انتقلت للتاج البريطانى ويغلب أن تكون الجهات التى تقام بها الحصون الانجليزية الى الجانب الغربي من الملايو لتشرف على البوغاز

رسونا على پنانج : فى عودتى لمصر ويفصلها عن الملايو بوغاز ضيق يؤوى عدداً كبيراً من السفن والجزيرة صخرية يحيط بشاطئها طريق مبسوط محيطه ٢٦ ميلا وتقام غالب المساكن على جانب ذلك الطريق على أن بعضها كان يقوم على منحدراتها التى يعلو بعضها إلى ثلاثة آلاف قدم أما الطبقة الممتازة فتقطن الذروة التى تصلها بقطار كهربائى هوائى ومن هنالك ينكشف منظر البحر وشتى جزائره فى زواء ساحر ومبانيها شبيهة بتلك التى فى سنغافوره وكذلك ساكنوها ولعل أجملهم سحنة الملايو فهم أقرب الى الملامح العربية فى سمرة خفيفة وهم أخف روحا وأكثر جاذبية من الصينيين والهنود وتعوز الجميع النظافة وغالبهم يبدو بجسمه العارى البراق المنفر وقد التصقوا بجدران دورهم فى خمول زائد ولعل للجو الرطب الحار المجهد أثراً فى هذا ، أما ضواحى المدينة فتكسوها الغابات الكثيفة وكان أظهر شجرها النرجيل والمطاط وبعض أشجار الفاكهة الغريبة كالمانجوستين والرامو ندان والدوريان ولغالبها أهداب فى ألوان مختلفة كذلك فاكهة الخبز والاناناس وكثير غيرها وكانت تقوم مساكن القوم وسط تلك الغابات شأنها فى جميع بلاد الملايو على عمد من جذوع الشجر لاجتناب السيول والحشرات وليستظلوا بالشجر الكثيف من وهج الشمس الاستوائية وهناك حديقة للنبات شبيهة بتلك التى فى سنغافورة ولعل أغرب ما زرته

هناك معبد الافاعى دخلناه فراعنا كثرة الأفاعى الطليقة التى لاتصيب أحداً بأذى رغم أنها كانت تسير حولنا وتزحف فوق أكتافنا باحجامها المختلفة ونقوشها البديعة وكان كثير منها يتدلى من الأركان والمصابيح والشرفات وعددها مائتان تستهلك فى اليوم مائة

(تقوم بيوت الملايو على عمد من خشب وسط الغابات)

بيضة وهى تخرج لتمرح فى الغابات المجاورة للمعبد ليلا وتظل طوال نهارها داخل المعبد وغريب أنها لاتؤذى رغم وجود أسنانها وكنا نرى كثيراً من جلودها الشفافة التى انسلخت عنها معلقة فى كامل طولها ونقشها وهناك فى قفص كبير أفعى بالغة الحجم والطول تنفر نفرات مخيفة كلما أحطنا بها ، ورواد المعبد يقدسون تلك لافاعى و يقدمون لها المساعدات المالية إبقاء عليها و إجلالا لها



معبد الافاعى تمرح به الحيات وتتدلى من جميع الاركان

ونفقات المعيشة فى تلك البلاد عالية الى حد لايطاق رغم أن المرء يزهد فى المقام فى جوها المحرق القتال

غادرنا الملايو وسنغافوره صوب بلاد اليابان و بعد خمسة أيام وصلنا هنج كنج وفى ثلاثة أيام رسونا على شنغهاى ثم تبعتها كوبى أول ثغور اليابان فى ثلاثة أيام أخرى

اليابان

آية العصر فى الاخلاص والنهوض

نبذة تاريخية : يبدأ تاريخ اليابان منذ عهد الامبراطور (كيماى تنو) سنة ٥٤٠ ميلادية وسبقه نحو ألف عام سادتها الاوهام والأقاصيص عن بعض الأبطال مذ لم يدون عنها شىء باليقين وفى القرن السادس دخلت البوذية البلاد و بدأت مدنية اليابان الحقة فلقد أحضر القسس من كوريا كتبهم المقدسة ونقلوا معهم فن الطباعة وتماثيل بوذا وطائفة من صانعى التماثيل و بناة المعابد والمصورين والمثالين والمدرسين ونشروا التقويم والحساب الصينى ولقد ساد الدين الجديد عقول البلاط حتى عدوه دين الدولة سنة ٦٢١ وعد الأمير (شوتوكو) مؤسسه على أن دين البلاد — الشنتوى — قاوم الدين الجديد فى البدء لكن سرعان ما تهادن الاثنان لما أن اعترف البوذى بالآلهة الشنتوية ، نهض عندئذ الفن اليابانى ونشطت العمارة فظهرت آثارها فى معبد (هوريوجى) أقدم بناء أقيم من الخشب فى العالم والأثر الوحيد الباقى اليوم الذى أقيم على نمط الهندسة الكورية والصينية منذ ١٣٠٠ سنة

وفى صدر القرن السابع سادت الحضارة الصينية الناس جميعاً حتى

فى نظام الحكومة الذى تغير من الحكم الاقطاعى ألى الملكية (سنة ٦٠٣) فقسمت فروع الأدارة على النمط الصينى ونشأت طبقة من الأشراف ، على أن هذا النظام كان له خصوم فساعدت المشادة بين الفريقين على قيام هيئة عسكرية امتازت على جماعة الزراع واتخذت (نارا) عاصمة البلاد كلها سنة ٧١٠ وهنا ازدهر الفن يؤيد ذلك التمثال الأكبر (ديابوتسو) لبودا ولا يزال أكبر تماثيل اليابان من النحاس ثم الناقوس الاكبر وكذلك أقدم كتاب خط باليابانية

وعلى أثر ازدياد الحماسة للدين الحديث كثرت المنشآت الدينية واتسعت أملاكها وثروتها تحرسها فئة مسلحة لم تلبث أن تدخلت فى شؤون الدولة فلم تر الحكومة بداً من نقل العاصمة الى كيوتو سنة ٧٩٤ التى ظلت مهداً للحضارة أربعة قرون حتى كانت سنة ١١٩٢ حين أقام (يوريتومو) حكومة عسكرية فى كاما كورا فأصبح نفوذ الحاضرة الامبراطورية (كيوتو) صوريا بجانبها واختار وزراءه من زعماء عائلات خاصة طالما أدى التنافر بينها إلى قتال داخلى وآلت سلطة البلاد اليهم وأصبح الميكادو لاحول له ولاقوة

أخضع (يوريتومو) البلاد جميعها وازدهر فى كاما كورا نوع من الحضارة ساذج يلائم الروح العسكرية اذ ذاك ومن العائلات التى سادت متعاقبة فوجيوارا ، طايرا (هايكي) وميناموتو (جنجى) ومن الأسرات الهامة عائلة (هوجو) التى سادت مائة سنة حتى غلبتها أسرة (تيتا) حين أحرقت العاصمة كاما كورا وأعيد الامبراطور (جودايجو) من منفاه ، فزادت

حركة العصيان حتى قامت حكومة (شواجن آشيكاجا) فى كيوتو ، وهنا امتاز العصر بالتهذيب الذوقى والرقى الفنى وانتشرت حفلات الشاى والتمثيل والرقص على نمط (نو) القديم ونشطت التجارة مع الصين وتزاور القسس ورجال الفن بين البلدين وفى ١٥٤١ وصلت أول باخرة برتغالية وتبعها الاسبان ثم أسست أول بعثة للجزويت سنة ١٥٤٩

سادت الفوضى البلاد مائة عام حتى جاء (هيديوشى) فهدأها وحاول فتح كوريا والصين سنة ١٥٩٢ لكن أهل كوريا بمعاونة الصين وقفوا فى سبيله وتبع هذا نزاع داخلى أدى الى انتصار (أيياسو) من أسرة (طوكوجاوا) سنة ١٦١٥ وظلت حكومة شواجن تلك الأسرة ٢٥٠ سنة استمتعت البلاد خلالها بالسلم والانتعاش خصوصاً وانهم أباحوا حرية الاتجار والعقائد فشجر النزاع بين الهولنديين والبرتغال سنة ١٦٣٧ فتدخلت الحكومة اليابانية وقاومتهم بالشدة وحرمت على الأجانب الدخول الى بلادها حتى كانت سنة ١٨٥٣ حين أقبل الكومودور بيرى من أمريكا يطالب اليابان بفتح ثغورها للتجارة الأجنبية فأسرع الشواجن الى الميكادو ، وكان قبل مهملا ، فطلبوا منه السماح بذلك فرفضت الحاشية وقرروا طرد الأجانب جميعاً بقوة الدايميو ، فرجع الأجانب يطالبون بالتعويض عما فقدوا من بواخر ورعايا ، ولما ظهر الشجون (كايكى) اذ ذاك بالعجز عن معالجة الموقف تنازل عن حقوقه للميكادو الذى استعاد سلطته لأول مرة بعد أن سلبها ألف عام

ومنذ ١٨٥٨ أمضت البلاد عدة معاهدات مع الأجانب وبدأت تشعر

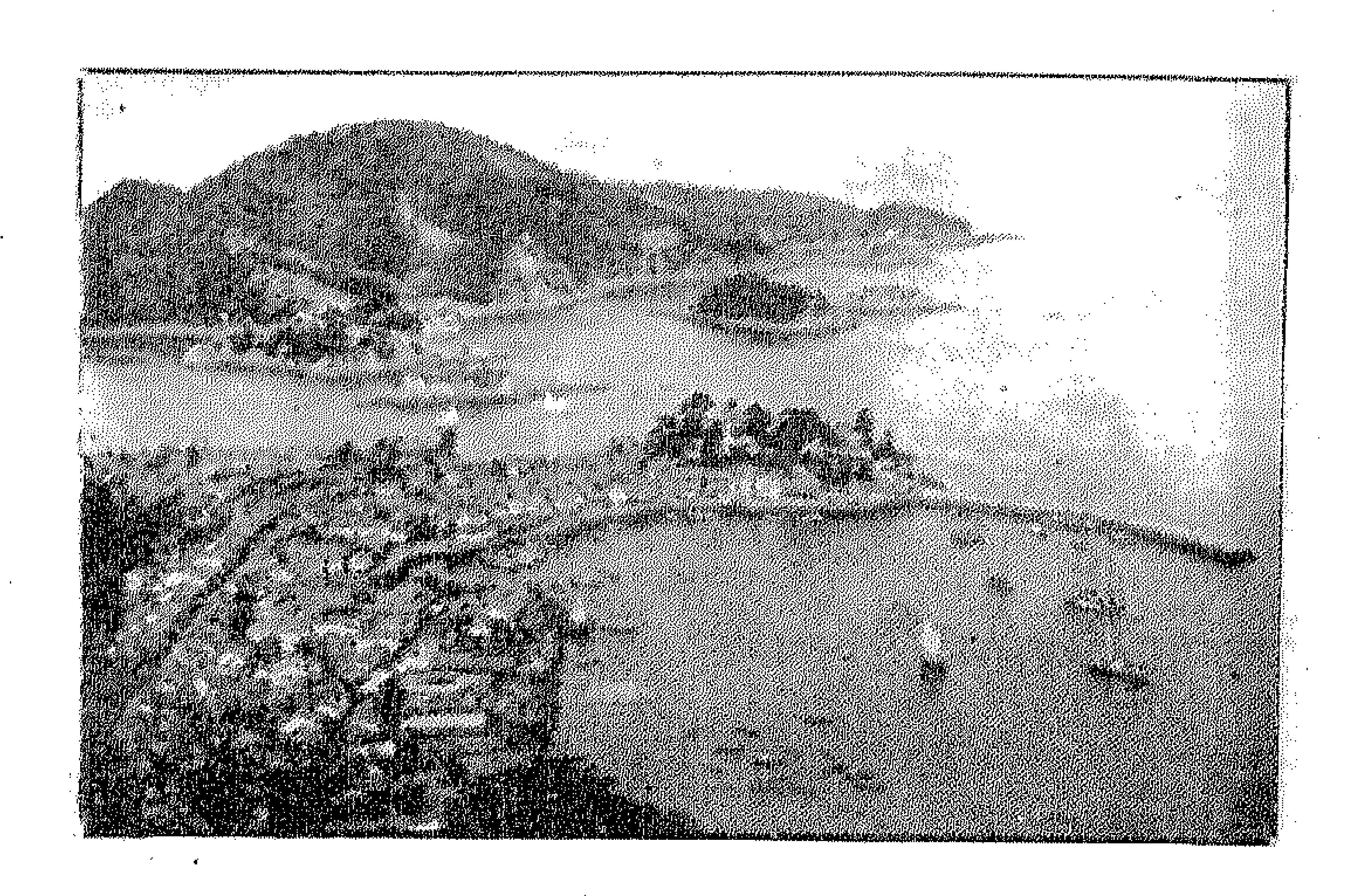
بحاجتها للنهوض كى تتمشى مع العالم المتمدين وكان فى عجزها أمام الأجانب حين أرغموها على التعويض خير حافز لها على بناء الجيوش والأساطيل التى زادت سمعتها فى انتصارها على الصين سنة ١٨٩٢ وعلى الروسيا سنة ١٩٠٤ حين بسطت نفوذها على كوريا وشبه جزيرة لياوتونج وسكة حديد منشوريا وجنوب سخالين وفى ١٩١٠ تم لها ضم كوريا نهائياً ، وتعاونت مع الحلفاء فى عصيان الملاكمين (Boxer) وفى الحرب الكبرى خطت إلى الأمام خطوات الجبابرة وأصبحت آية الدنيا جميعاً فى التقدم والنهوض

اليابان

أصبحنا والجزائر الصخرية تنتثر من أيماننا وشمائلنا فى غير حصر وشعر اليابانيون أنهم فى دارهم لما كان يبدو على وجوههم من بشر وكبرياء وتفاخر



مذ كنا نرى البواخر اليابانية تمخر عباب الماء بين الجزائر المترامية فى كثرة هائلة وكانت تبدو على ذرى تلك الجزائر الحصون العاتية وساريات البرق



البحر الداخلى وجزائره الانيقة المترامية

اللاسلكى وكلما أوغلنا فى تلك المياه اليابانية بدت منعة المكان ذاك الذى لن يدركه العدو كائنة ما كانت قوته ولا شك ان لموقع جزائر اليابان فضلا كبيراً فى دفع غائلة الأجنبى عنها ، ويحظر القوم اظهار آلة التصوير فى تلك البحار، وكنت أراهم طوال المدة يتطلعون بشىء من الاكبار لوطنهم والاخلاص له ذاك الاخلاص الذى أضحى مضرب الأمثال وكم كنت أغبطهم على موقفهم هذا وأتألم لنصيبنا من تلك العزة ، بدت الى يميننا جزيرة كيوسيو (ومعناها أرض القارات التسع) ثم تبعتها جزيرة سيكوكو (أرض القارات الأربع) وكانت تبدو مداخن المصانع العديدة شامخة فى السماء ولبثنا النهار كله والجزائر تترامى والبواخر اليابانية تمر تباعاً أما مشاهد الطبيعة هنا فساحرة جزائر تترامى فى أشكال هندسية متباينة تميزها المخاريط البركانية وتكسوها

الخضرة المدرجة والسماء تنتثر بالسحب الخفيفة التى تنعكس عليها أضواء الغروب فى بريق يستهوى القلوب ويسمون ذلك القسم البحر الداخلى وهو يمتد بين الجزيرتين السالفتين جنو بأوجزيرة هندو (القارة الرئيسية فى لغتهم) شمالا وامتداده ٢٧٠ ميلا ويتسع مابين ثلاثة أميال وثلاثين ومجموع جزائره تناهز ثلاثة آلاف ولعله أجمل بحار اليابان طراً

أقبلنا على كوبى : أكبر ثغور اليابان التجارية فبدت أرصفة الميناء ممدودة إلى الآفاق وهى تغص بالبواخر العظيمة والمدينة تقوم فى حجر جبل مشرف تكسوه الغابات وتزين منحدراته مبانى المدينة فى رونق جذاب ، وما كدت أطأ أرضها حتى بدت الحياة اليابانية فى مظاهرها الفذ فكل شيء عجيب جميل ، الناس يسيرون فى سيل دافق كل إلى عمله بنشاطه المشهور وأنت لن ترى منهم عاطلا أو خاملا ولا تسمع لكثرتهم جلبة ولا ضوضاء اللهم إلا قعقعة أحذيتهم الخشبية (قباقيبهم) نساء ورجالا تلك التى تسترعى الأنظار ، وقد تثير السخرية بادىء الأمر على أنها خير دافع عنهم أثر رطوبة جوهم الى الاقتصاد فى أكلافها والعجيب أنك تراهم يسيرون بها فى سرعة عجيبة وان اعوجت مشيتهم حتى ليخيل إليك ان فى أرجلهم غمزاً والجميع يلبسون الأردية الفضفاضة التى يسمونها (كيمونو) وكأنها (القفطان) بأكمامه الهادلة المتسعه وحزامه العريض والرداء يكاد يلمس القدمين لطوله ويغلب أن يكون من قماش خشن بسيط اللون للرجال لأنهم يمتدحون الخشونة والتقشف أما النساء ففى حرائر مهفهفة وألوان فنية ساحرة وتحاول

كل سيدة ألا تلبس
من لون سبقتها اليه
غيرها لذلك اضطر
النساجون أن يحيكوا
هـذه الأقمشة قطعاً
مختلفة تكفى كل لرداء
واحد ولعل أعجب
ما فى السيدة حزامها
وشعرها أما الحزام
(أوبى) فبالغ الطول
والعرض عرضه فوق
ثلث المتر وطوله أربعة
أمتار إلا قليلا يلف
حول الجسم مرتين

حسناء يابانية فى كامل ردائها القومى

ثم يربط الباقى فوق الظهر فى شكل منتفخ كأنه الفراش بديع اللون على أنى خلته باذىء الأمر وسادة تحملها السيدة كى تتكىء عليها اذا ماجلست وما كان أشد خجلى عند ما سألت أحدهم : لماذا تحمل السيدات تلك الوسائد الثقيلة ؟ فخبرنى أنه رباط الزينة والتجمل وقد علمت أن متوسط ثمنه لا يقل عن عشرة جنيهات

والنساء سافرات وليس بينهن كواعب قط ورؤوسهن عارية يكسوها تاج طبيعى من شعر أسود براق ثقيل يعنون بتنسيقه العناية كلها وهو الذى يعد مقياس الجاه والجمال وتراه يكور ويطوى فوق شباك من السلك فى أشكال هندسية عجيبة جذابة تختلف باختلاف الطبقات والأعمار والأغنياء يستقدمن الماشطات فى كل

الشعر آية التجمل عند اليابانيات

أسبوع لتعده ولا يقل أجرهن عن جنيه وتظل شباكه الأسبوع كله أو تزيد.

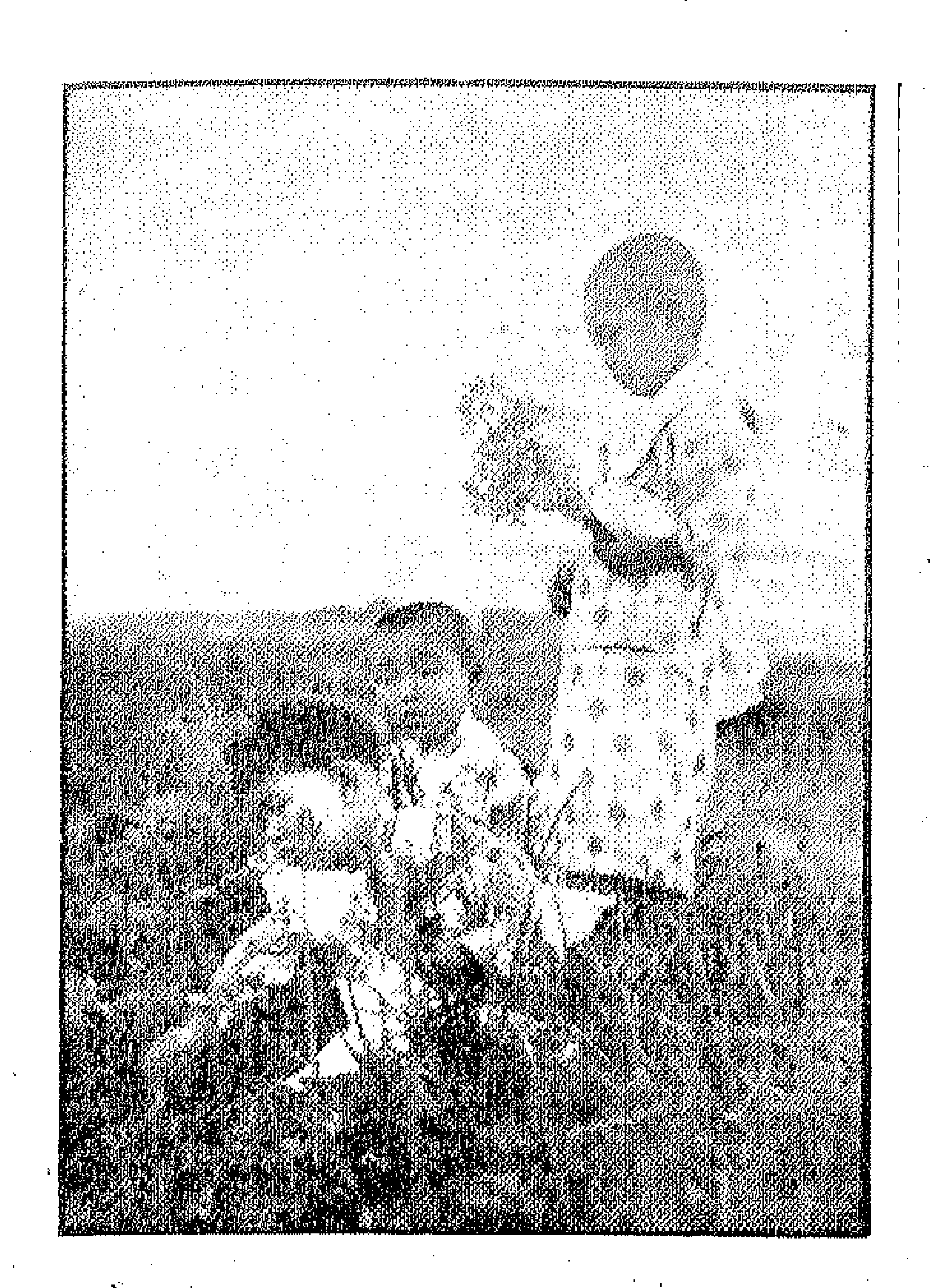
أما الوجوه فصفرة اللون منحرفة العيون ويعلب أن يستخدمن الأدهنة البيضاء لا الحمراء وجمال الوجوه نادر وان كانت الرشاقة والجاذبية بالغة حداً كبيراً يزيدها حسنا ذاك الهندام العجيب فى ألوانه الرقطاء الزاهية وتلك المشية التى تخب بها السيدة وكأنها البجع الساحر

قمنا بجولة فى جهة ريفية تسمى : أراشياما فى قاطرة كهربائية سلكت طرائق متلوية تحوطها الغدران والتلال تجللها الغابات فى مناظر ساحرة شأن سائر الريف هناك ، وأخيراً جللنا القرية التى تقوم على جدول ماء يتلوى يمنة ويسرة وسط الربا الشاهقة تتخللها البيوت من خشب فى شكل نظيف.

أنيق و بعض أجزائها تتخذ حوانيت ومقاهى صغيرة وكنارى السلع تعرض وعليها أثمانها فيمر الواحد و يتناول مايريد و يلقى بدريهماته فى صندوق مغلق فى غير حاجة إلى رقيب، فانظر مبلغ الأمانة وثقة القوم فى طهارة أخلاقهم! أخذنا زورقا وذهبنا فى الغدير بعيداً وسط الخضرة الوفيرة والجنادل والمنحدرات تحوطها الزهور ، وهكذا طبيعة اليابان فى كل ناحية منها فليس بعجيب أن يقدرها أهلها و يعشقوها بل و يعبدوها ، فتراهم يخرجون متجولين فى هدوء شامل وخيال سارح وهم ينقلون عنها أسماءهم اذ تراهم يحملون اسم جبل شامخ أو ذروة سامقة أو حقل ممتد أو مرج جذاب كذلك فهم يقدسون المكان الجميل ، فتقوم عند مدخله أقواس من خشب هى شعار التقديس لديهم ، ولا يخلو مكان جميل من معبد لأنهم عبدوا طبيعة بلادهم الطاهرة و يخال بعضهم ان تقديسهم لوطنهم أثر من آثار جمال بلادهم التى استمالتهم فعبدوها وقدسوها ، الى ذلك الزهور التى نبغوا فى تنميقها وترتيبها حتى الأطفال منهم فلهم فى تنسيقها نظم تختلف باختلاف البيئات والمناسبات فكل تصنيف منها يدل على معنى خاص يفهمونه لمجرد النظر الى باقة من الزهر ، وهى فى مقدمة مايتعلمه النشء فى المدارس و بخاصة الفتيات ولا يكاد يمضى شهر لا بل أسبوع لاترى به طائفة جديدة من زهور وهم لذلك يحبذون الحساب بالتقويم الزهرى فتراهم يؤرخون الخطاب مثلا بزهرة كذا بدل كتابة التاريخ لأن لكل أسبوع طائفة خاصة من زهور يعرفها الجميع

آوينا بعد تلك النزهة الساحرة الى نزل يابانى وما كادت تقف بنا السيارة أمامه حتى أسرع أصحابه رجالا ونساء ملا كاواًتباعا يتقدمهم رئيسهم لاستقبالنا

شأنهم مع كل ضيف وصاحوا جميعاً صيحة ترحيب أعقبتها سلسلة الحناءات عاجلة متكررة تكاد تلمس فيها جباههم الارض احتراماً وتأدبا والعادة أن يرد الضيف التحية بأحسن منها و إلا عد ذلك من سوء الأدب فأخذنا ننحني مرات كنت خلالها موضع سخرية أمام نفسي لأني لم أكن أعرف كيف تكون وما حدودها . بعد ذلك تقدمنا نحو المدخل فراعنا صفيف (القباقيب) والاحذية على جانبيه وكلها لنزلاء الدار أذ يجب خلع الأحذية



جميعا أمام البيوت والفنادق تربية الزهور يدرسها حتى الأطفال منذ نشأتهم فخلعنا عنا أحذيتنا وناولتنا الفتاة (خفا) من الحوص وكلها صغيرة الحجم لأن أقدامهم أصغر بكثير من أقدامنا، أخذنا نسير به فى دهاليز الدار وكلها تقام من خشب يطلى بأدهنة براقة غاية فى النظافة ويهتز تحت أقدامنا وكان النزل من طابقين ولما أن وصلنا غرفتنا خلعنا الخف أمامها ودخلنا غرفة صغيره تفرش أرضها بقطع من الحصير السميك الطرى يحوط كل واحدة افريز أسود ولا تكاد ترى داخلها من الأثاث إلا منضده واطئة فى الخرط اليابانى



جانب من بيوتهم الخشبية المنسقة

حولها الحشيات (الشلت) الوثيرة يجلس القوم عليها ركعا طوال الوقت وخلف الضيف مقصورة هى لديهن موضع التجلة والتقديس (توكونوما) بها (فاز) ثمين يملأ بالزهر المناسب للمقام ويغلب أن تطل الباقة نحو الضيف علامة الترحيب به وهم يقرأون فى كل باقة معنى جديدا لمجرد النظر ، وعند المدخل حاجز (پاراڤان) قصير أنيق وتتدلى من الجدران ألواح مصورة (كاكيمونو) برسوم يابانية ثمينة ، أما النوافذ فمعدومة لأن جانب الحائط ينفتح كله بالانزلاق وراء الذى يليه بحيث يمكن أن تصبح الحجرة شرفة (بلكونة) أو تزال فواصل الحجرات كلها فتظهر اللوكاندة كلها بهوا واحدا كذلك الحالة فى مساكنهم جميعا فى الريف والحضر

أخذنا مجلسنا (القرفصاء) من المائدة فتقدمت منا فتاة بكوبين صغيرين من شراب أخضر يعتقدون أنه قاتل للعطش لم يرقنى طعمه وعلمت أنه مسحوق

الشاى يغلى فى الماء ثم دنت منا فتاة ثانية و بيدها سلة صغيرة من خيزران (بامبو) و بهـا قطيلة (فوطة) مبللة بماء مغلى يتصاعد منـه البخار فتناولناها ومسحنا بها وجوهنا وأيدينا فشعرنا بانتعاش كبير فى ذلك الجو الحار وتلك تقدم فى كل مكان حتى فى المحال التجارية ، و بعد هنيهة أقبلت فتاة أخرى تحمل الشاى اليابانى المخفف الذى لم يكد يصفر ماؤه والذى يتناوله الجميع بدون تحلية قط (بدون سكر) فى قعاب صغيرة مكورة من الخشب اليابانى الثمين (اللاكيه) ، وما كاد يستوى بنا المجلس حتى أقبلت الفتاة تهمس فى أذنى فلم أفهم اليابانية فخبرنى صاحبى أنها تريدنى أن أخلع بدلتى لأرتدى (الكيمونو) فقمت وهى تلازمنى وتتقدم بنفسها لتخلع عنى ملابسى وترخى الكيمونو على جسدى وكان يملكنى الحياء لولا ما رأيته من جرأة صديقى الذى علمت منه ألا حرج فى ذلك فتلك عادة القوم هناك ، ولما أن عدت إلى المائدة أقبلت فتاة الحمام تقول أنها أعدته لى فقلت لصاحبى لا حاجة لى به لكن علمت أن ذلك ينافى طباعهم إذ هم يرونه فرضا على الجميع أن يستحموا مرة أو اثنتين فى اليوم ، قادتنى هى وجمع من صويحباتها إلى الحمام هنالك دخلت غرفة صغيرة صفت بها الحشيات والتكآت للاستراحة قليلا بعد الحمام ومن داخلها حوض الحمام من خشب نظيف يملؤه ماء ساخن جدا فى درجة حرارة تتراوح بين ٤٠ و٥٠ م والى جانبه مقاعد صغيرة من خشب وأكواز ومناطيل خشبية ، وقفت الفتاة وانتظرت فى حيرة حتى تخرج لاوصد الباب فما كادت تجتاز الباب الى الخارج حتى أسرعت بغلقه لكنى لم أجد به ما يحبسه عن الفتح فخلعت ثيابى واذا بالفتاة تدخل وتنظر إلى كأنها تريد

أن تخدمني في شيء فجلست خجلا إلى جوار الحوض ولما أن أدركت ما كنت
فيه من ربكة خرجت فأسرعت بدعك جسمي بالصابون وما كان أشد
دهشتي حين دخلت مع زميلات لها وكأنها شكتني إليهن فما كان مني إلا أن
رميت بنفسي في الحوض رغم مائه المحرق ، هنا علت صيحة الضجر منهن
وأسرعن الى الخارج ولم أدر ما الخبر فعجلت بالخروج واذا بالهرج قد زاد وعلا
وعلمت بعد أني ارتكبت خطأ فاحشاً لأنه لا يجوز النزول في الحوض مخافة تدنيسه
فكانت مني اعتذارات لا أظن أنها كفرت لديهم عن سيئتي هذه لأني
حرمت الاستحمام كل نزلاء اللوكاندة سحابة اليوم حتى يطهر ويجدد ماؤه
وعجبت مذ علمت بعد أن رؤية الاجساد عارية من الجنسين أمر طبعي لا غبار
عليه عندهم فالفتيات يناولن الرجال ما يطلبون ويغسلن لهم ظهورهم وهم
عرايا وكثيراً ما يغتسل اليابانيون نساء ورجالا أمام بيوتهم في جانب من
الطريق لا ينظر إليهم أحد خصوصا بين الطبقات الفقيرة وقد كانت الحمامات
العمومية خليطا من الجنسين معاً ولما أن كثر نقد الأجانب لهم أمروا بوضع
حبل يفصل بين ناحية النساء والرجال ، أمر نراه نحن شائنا وهم يرونه عاديا
لا يقع بسبب فساد قط ! ولا يأمن الغريب وهو في الحمام أن يطل عليه الجميع
من شقوق الدار الخشبية خصوصاً وانهم يعجبون لأجسادنا الطويلة وسحننا
الغريبة عنهم ، ويستنكر الأجانب رؤية أجساد اليابانيين أو اليابانيات
عارية على أن اليابانيين يرون ذلك أمراً طبيعياً فهو مهدئ للميول الجنسية

التي تبدو واضحة فى غالب الأوروبيين ، حدث مرة أن نادى أحد القناصل خادمه اليابانى فجاءه يرتدى قميصاً ونصف جسمه الأسفل عار وكان فى مجلس القنصل بعض السيدات فنفر من هذا وطرد الخادم لوقته

عدت الى المائدة فأحاطت بنا الفتيات يحاولن مسامرتنا وتلك عادتهم فى كل مكان حتى فى البيوت إذ يجلس حول الضيف فتيات الدار يسامرنه إمعانا فى التأدب والتظرف وفى عرفهن لا يجوز أن يترك الضيف وحده لحظة واحدة حتى يحين وقت النوم ، ولما كانت ساعة الطعام أقبل الفتيات يحملن القزامير (الصوانى) الصغيرة من الخشب اللامع عليها الأواني المكورة الصغيرة من خشب براق وفى مقدمة الجميع (برميل) نظيف من خشب يملؤه الأرز المسلوق

ملأت الفتاة لى آنية الأرز وسلمتنيها وفيها عصوان دقيقتان أتناول بهما الطعام وكان أول صنوف اللحم قطعاً من سمك نىء عليه قطع الثلج لك أن تغمس القطعة قبل تناولها فى سائل أحمر قانى حريف كالخل وما كنت أخاله نيئاً فما كدت أعض على قطعة السمك حتى عافتها النفس وجزعت جزعاً شديداً وآثرت أن أزدردها صحيحة لأنجو من رائحتها وفساد طعمها ثم تبعها صنف من حساء السمك البارد ثم الساخن ثم شواؤه فنوع يحكى (الجنبرى) إلى جانب شىء كالبطاطا الحلوه وبعض الأعشاب أخصها أعشاب البحر التى يحبون رائحتها المنتنة والخضر (المخللة) كل هذا نتناوله فى مجاورة الأرز الذى كلما فرغ إناؤه عجلت الفتاة بملئه من جديد ولما انتهى

اللحم قدم صنف من الفالوذج (مادته من الأرز) لا تكاد تحس حلاوته ثم أعقب ذلك بعض الفاكهة وكانت من خوخ ونوع آخر لم أره من قبل وكأنه قرون البازلاء البالغة وخلال كل ذلك كانت الفتاة تملأ لنا كأس النبيذ الياباني (الساكي) الذي يتخذه القوم من الأرز في طعمه المنفر وتعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع وبين آونة وأخرى يجب علينا بعد احتسائه أن نغسله بالماء ونملأه ثم نقدمه للفتاة فتشرب به ثم تعود فتغسله هي وتقدمه لنا ثانية وتلك من آداب المائدة لديهن لا يصح إغفالها وفي نهاية الطعام نُبقي في آنية الأرز قليلا ونصب عليه الشاي ونرتشفه بصوت مرتفع منفر علامة على ختام الطعام فترفع (الصواني) ويقدم الشاي المر نشرب منه ما نشاء ، موقف ساحر حقاً لولا ما كان يحوطني من ارتباك شديد في أداء التحيات المتكررة على الوجه الأكمل وفي استخدام العصي بدل الملاعق والشوك فهي تتطلب مراناً طويلا ، وكان في الغرفة المجانبة لنا قوم لعب (الساكي) بعقولهم — والياباني سريع التأثر بالخمر على خفته — فأخذوا يصيحون ويغنون وهم جلوس وأمامهم (الصواني) الصغيرة والفتيات يعزفن على الآلات الموسيقية اليابانية (الشامسين) شبيه (الطنبور) الكبير برقبته الطويلة (وقصعته) المربعة وله ثلاثة أوتار منفردة رنينها يحكي رنين المزهر (العود) القوي والعزف يكون بقطعة من خشب كالمروحة وهذه لا يكاد يخلو منها بيت أو منزل والقطعة الثانية تحكي (القانون) من ثلاثة عشر وتراً منفرداً ويسمى (كوتو) والأنغام متشابهة بسيطة في غير تعقيد على أنها تعوزها الجاذبية أما أغانيهم فمنفرة للغاية حتى



أحب الآلات الموسيقية لديهم الشامسين الى اليمين والكوتو الى اليسار

الفتيات اللاتى يهززن فى أصواتهن بتقطيع منكر وكأنها أصوات (الماعز) وهى (تمأمئ) ، اعتزمت الارتحال فودعنا الجميع بأدبهم الجم ثم قدم لنا رب النزل هدية صغيرة منديلا منقوشاً يلف فى غطاء من ورق أبيض صقيل يربط بشريط نصفه أبيض والنصف أحمر وفى عقدته قطعة من سمك مجفف تيمنا ومثل تلك الهدايا يتبادلها الجميع كلما تزاوروا فى مناسبات كثيرة ويغالى بعضهم حتى يبيح الاستدانة كى يؤدى هذا المظهر من الكرم ولذلك كثرت المحال التجارية الخاصة ببيع تلك الهدايا .

عدنا الى كوبى وتفقدنا بعض معابدها وجلها متشابه تعوزه الفخامة ، ومن أجلها معبد القمر فى قمة ماياسان (ومعناه الجبل المحترم) ، ويتوجون بتلك الكلمة (سان) كل الجهات الطبيعية الجميلة ، وهذا المعبد فى ذروة الجبل

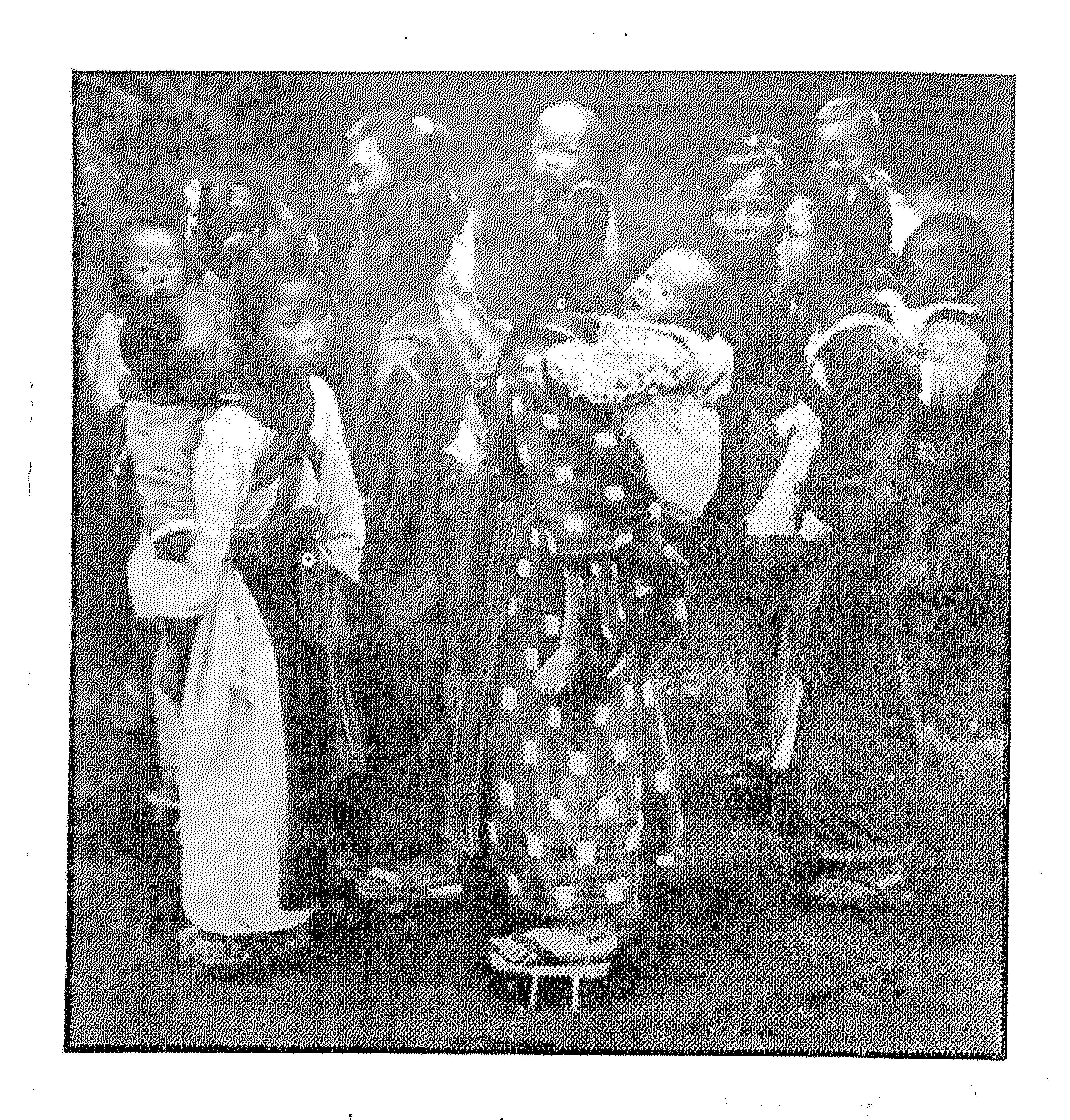
المشرف على المدينة تسلقناه بترام هوائى كان يديره سويسريون إلى أمد قريب واليوم يديره اليابانيون بعد أن استغنوا عن معونة الأجانب شأنهم فى جميع المنشآت الكبيرة الأخرى لذلك ترى الأجانب حانقين عليهم — من هذا العلو الشاهق بدت المدينة ممدودة على شاطئ البحر فى رواء بالغ ، وكنا نرى مبانيها على بعد تتصل بضواحى أوزاكا أكبر البلاد الصناعية ، وفى نهاية الترام كثير من المقاهى والمطاعم زهيدة الأسعار رغم نظافتها التامة وفخامتها الرائعة حتى انى تساءلت عن سبب ذلك فعلمت أن الجهة يعدها الجميع متنزهاً شعبياً يشجع الفقراء على حب الرياضة والاستمتاع بالطبيعة ، وللناس أن يستأجروا خياماً زهيدة الأجر للمبيت فوق منحدرات الجبال حيثما شاءوا ، من هنا بدأنا بصعود الدرج الموصلة للمعبد وعددها ثلاثمائة وسط الأدغال والنبت الوفير كابدنا كبير المشقة فى ارتقائها فكان لنا فى سحر المناظر هنالك خير عوض عما صرفناه من عناء وجهد ويحج الى هذا المعبد نحو ثلث مليون فى السنة اجلالا لتمثال صغير لأم بودا ، وعند ما أظلم الجو بدت المدينة من دوننا تحكى بسيطا من الجمر المتلألئ أو قبة السماء وقد انقلبت بنجومها فبدت من تحتنا وكانت ثريات الخط الكهربائى تبدو كالعقد الرائع البديع

وفى المساء زرت بعض دور الملاهى ، ولعل أحبها لديهم الخيالة (السينما) التى لايكاد يخلو منها شارع وللقوم بها ولوع شديد ، وأعجب مايسترعى النظر بها رجل يقف بجانب اللوحة ويشرح باليابانية فى صوته المتنفر كل مايعرض من المناظر وكان سبب ذلك عرض أفلام أجنبية لكنهم يتبعون نفس

الطريقة رغم ان غالب الأفلام اليوم تصنع فى اليابان وتكتب ايضاحاتها باليابانية ، وقد يرفع الستار عن مسرح يظهر فيه فتياتهن وهن يرقصن ويغنين ، وقد يمثلن روايات بلباقة لا تنقص عن الأوروبيات رغم انه لم يسمح للنساء باعتلاء المسارح هناك إلا قريباً

ومن أكبر دور الملاهى التى زرتها ملهى (تكاراسوكا) فى قرية بين كوبى واوزاكا يتسع لألف وخمسمائة وهو فاخر إلى حد كبير على أن أجوره زهيدة للغاية رغبة منهم فى الترويح عن عناء الفقراء . وكأنه مدينة صغيرة تمون أهلها بكل شىء من مطاعم وملاعب وحدائق وحمامات وما إليها والتمثيل فيه على النظام الحديث فى الغالب والممثلات كلهن فتيات وقد يلبسن أثواب الرجال وقد يمثلن على أنغام الموسيقى ، وأجمل ما هناك الأزياء الخلابة وسرعة تغييرها رغم الكثرة الهائلة فى عدد الممثلات كما ان مشاهد المسرح رائعة وأضواءه خاطفة مما يشهد لهم بالتقدم العجيب

ومما أدهشنى فى هذا المجتمع الهائل ميل الناس الى الهدوء وبخاصة الأطفال فقد كنت أرى السيدات يحملن أطفالهن وقد ربطوا الى ظهورهن فلا يكاد يرى منهم سوى رأس ناتىء — وتلك عادتهم فى حمل الأطفال — ولم أكد أسمع همساً طوال الوقت ، والمعروف عن اليابانى أنه هادىء الأعصاب بارد الطبع ويظهر أن تلك فطرته منذ طفولته لذلك لا تكاد تسمع لسيل الناس الدافق فى الطرق من جلبة اللهم إلا قعقعة (القباقيب) . هذا إلى صفير السيارات ودوى الراديو المنبعث من غالب المحال التجارية

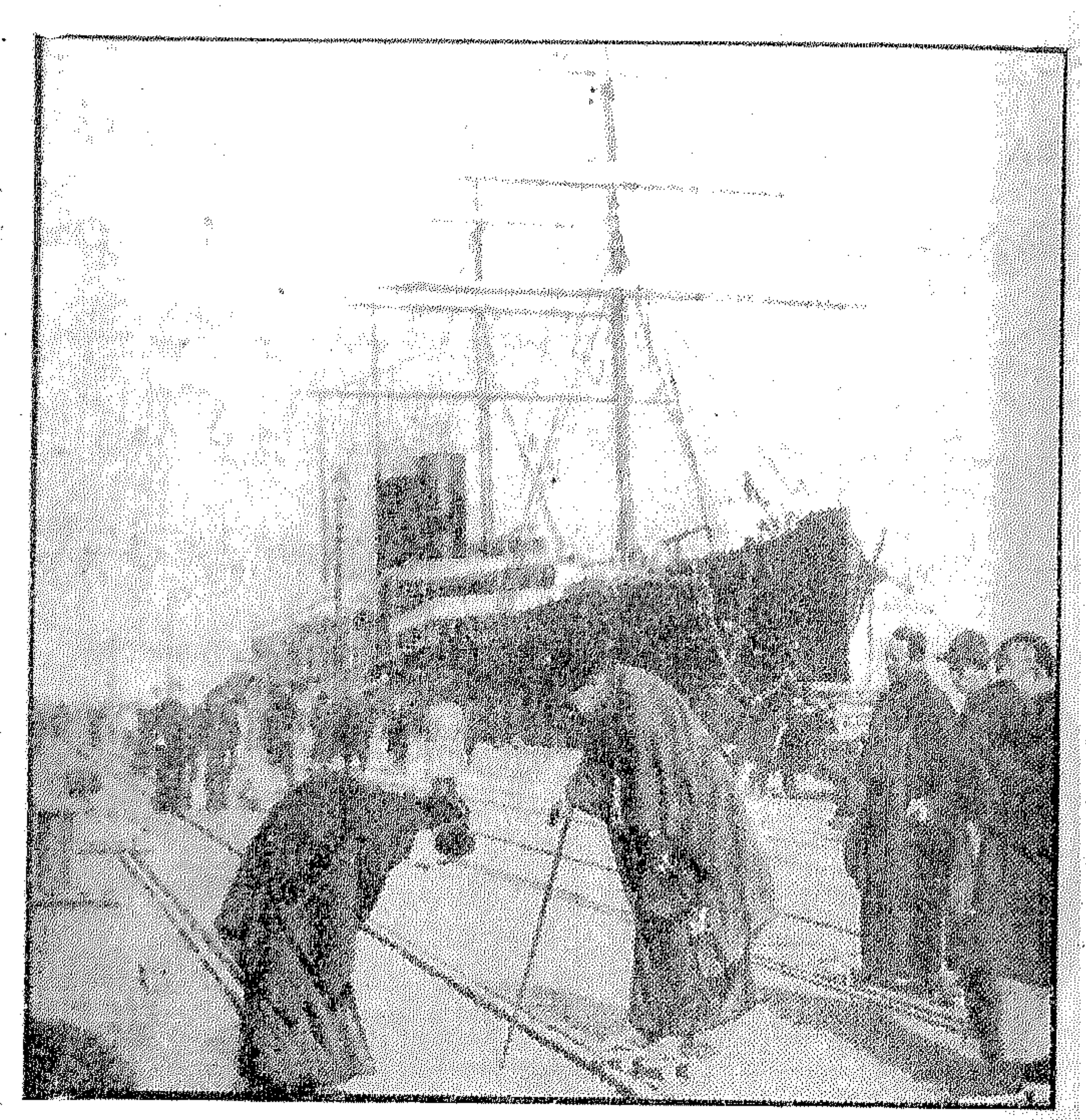


طريقة اليابانيات فى حمل الأطفال وراء ظهورهن

أذكر أننى تركت آلة التصوير هنا بين فصول الرواية ولما عدت لم أجدها فأبلغت الأمر لرجل البوليس وهنا رأيت عجباً مذ عرت الرجل هزة قومية وساده هو واخوانه اضطراب وخجل وأخذ يدافع عن اليابان و يعتذر للحادث بأن عامة الناس هناك من طبقة العمال فقد يسف بعضهم إلى حد السرقة على أنه أكد لى أنه لايمكن أن يضيع شىء فى بلاد اليابان وأنه سيرتسل إلى الفتوغرافية قريباً أينما كنت بعد أن أخذ عنوانى وهومضطرب متألم لأن فى ذلك جرحاً للعزة اليابانية التى يقدسها الجميع

عدنا إلى كوبى وتجولنا فى إحدى أسواقها (موتوماتشى) الذى لا يكاد المرء يشق طريقه وسط جماهير الغادين فيه والرائحين وأجمل مايرى فى المساء حين تضاء مصابيح الأسواق فى بوابات من حديد ترص عليها الثريات الكبيرة فى تلألؤ شديد ألى ذلك أضواء المحال التجارية بمفروشاتها اليابانية الجذابة وهذه تظل إلى ساعة متأخرة من الليل وفى فروعه أزقة تحكى خان الخليلى عندنا يلذ للمرء التجول فيها طويلا لغرابة المناظر وجمال الألوان وشدة بريق المكان ونظافته وهناك دار وطنية للسينما يجلس المتفرجون فيها على الحصر والحشيات (والشلت) على نظام البيوت اليابانية

سوق موتوماتشى الزاخر ليلا ومصابيحه تحكى البوائك شأن أسواق اليابان طرا



ثغر يوكوهاما وترى طريقتهم فى الترحيب والاستقبال

الى يوكوهاما : قمت بالباخرة ظهراً صوب يوكوهاما التى وصلتها الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالى ، أما البحر فقليل الجزائر موحد المناظر ممل ليس فيه شيء من جمال البحر الداخلى سالف الذكر ، حللت المدينة فبدت ثغراً عظيم الحركة نظيف الطرق فسيحها وهى مدينة تحكى فى كثير من الوجوه المدن الأوربية لولا هندام الناس وسحنهم لذلك لم ترقنى كثيراً ، ولقد أنشئت من جديد منذ ١٩٢٣ حين دكها الزلزال عن آخرها وفى ثلاث

سنين أعيد بناؤها على أساسها الجديد و بلغت أكلافها عشرين مليون جنيه.

أما طوكيو العاصمة فقد دمر الزلزال نصفها وأهلك من أهلها ٥٨ ألفاً وكبدت خسائر بنحو خمسمائة مليون جنيه ، وقد أنفقت الحكومة على تعميرها وانشائها من جديد فوق السبعين مليوناً

كاما كورا : ضاحية تبعد عن يوكوهاما بنحو ساعة بالسيارة التى مرت بنا فى طرق متلوية تعلو وتهبط ومن حولها الربى ذات المناظر الساحرة تجللها الغابات وتكسو مدرجاتها منابت الأرز ولقد اتخذ المدينة (شوجون مينا موتو) عاصمة اليابان فى القرن الثانى عشر وظلت كذلك مائتى عام وكان سكانها يناهزون نحو ثمانمائة ألف لكنها انضمرت اليوم وأصبحت مزاراً صيفياً ولا يزال بها بعض المعابد الهامة ولعل أجملها



(بودا فى نظراته الوديعة)

معبد بودا الذى يقوم فيه تمثال هائل لبودا يعد أجمل تماثيل اليابان طرا علوه خمسون قدماً أقيم سنة ١٢٥٢ وسط معبد دمرته عاصفة سنة ١٣٦٩ واكتسحه المد سنة ١٤٩٤ — واليابان تعرف بقسوة عواصفها المسماة بالتيفون وبعتو مدها — وكانت عيون التمثال من ذهب ونطاق جبهته من فضة زنتها ثلاثون رطلا وهو يمثل (Amida) أحب معبودات اليابان ، وتعجبك نظراته الهادئة ويداه المبسوطتان على حجره والابهامان يتلامسان علامة الايمان الراسخ — وفى بعض التماثيل ترى

اليد اليسرى مبسوطة على حجره واليمنى مرفوعة وهـذا دليل التبشير وفى غيرها تضم اليدان إلى الصدر دليل الجمع بين الحياة الروحية والمادية. وثم معابد كثيرة فاخرة تزينها تماثيل بودا وحفظته فى أشكالها المنفرة المروعة ويحفظ فى بعضها شىء من مخلفات عصر كاما كورا من أثاث وأردية وأسلحة وما اليها .

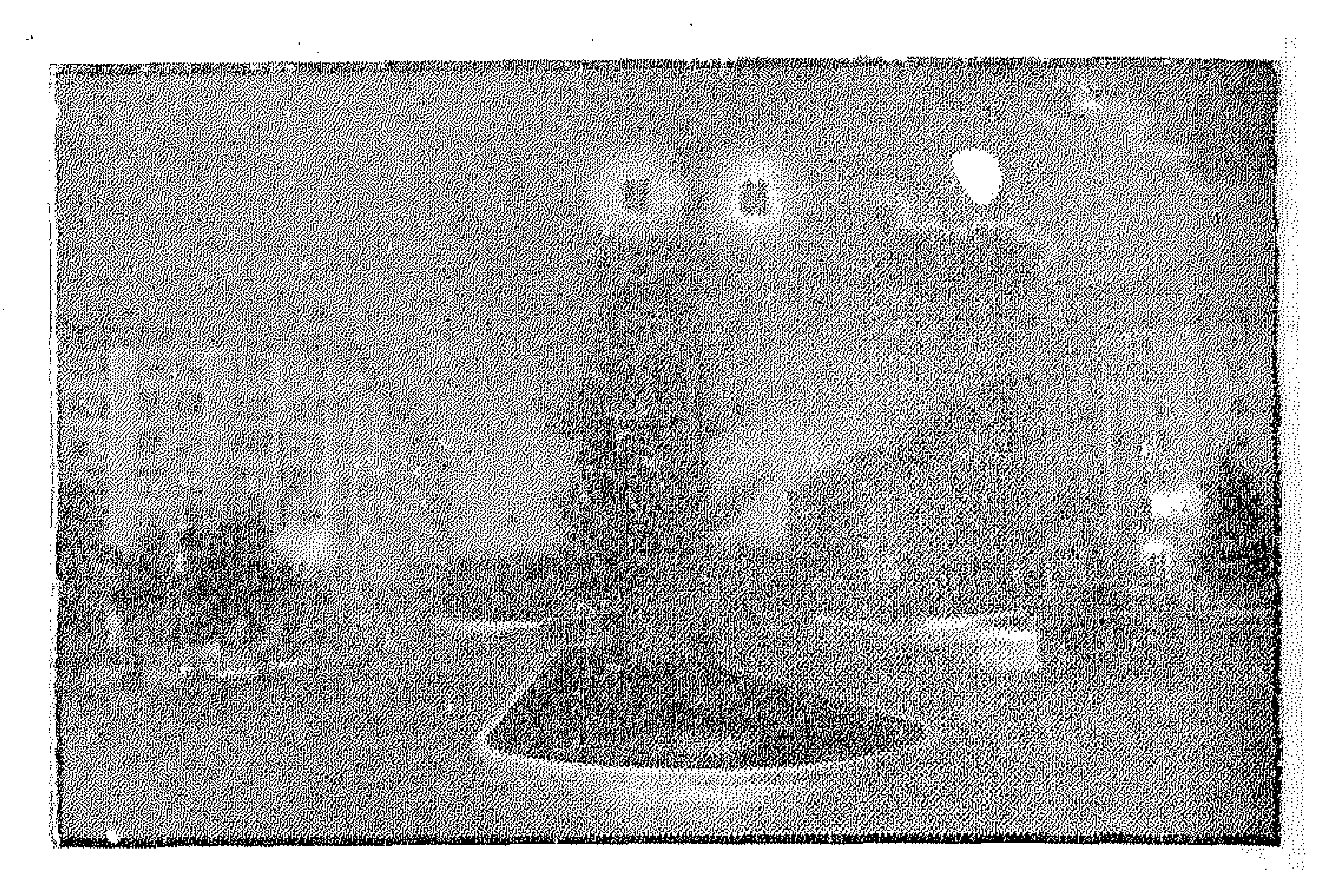
عدت إلى يوكوهاما ومنها إلى طوكيو حاضرة البلاد فوصلتها فى ثلثى ساعة ووسائل النقل أليها متعددة وفى اتقان ودقة ونظافة ترى المقاعـد وقد

أمام نصب بودا الرائع فى كاما كورا

أعدت بالفرش الوثيرة بعضها يسير بالبخار والبعض بالكهرباء وهذه تكاد تعم البلاد كلها فى كثرة هائلة وأجور زهيدة جداً هذا إلى الترام والاتوبيس والسيارات . والحق أن وسائل النقل فى اليابان كلها مما يدعو للاعجاب والاكبار فهى ترعى صوالح الجمهور وتوفر له الراحة التامة والأمن المكفول

فترى فى المحاط كافة وسائل الارشاد والهدى من خرائط ومصابيح إلى ذلك عناية حارس القطار وأدبه الجم فعند ما تقارب كل محطة يستأذن ويدخل العربة ثم ينحنى ويرفع قبعته احتراماً ويخاطبنا فى بشاشة قائلا : سادتى نحن مقبلون على مكان كذا وقبل مبارحته العربة يدير لنا وجهه وينحنى ثانية ثم يخرج ، الى ذلك كنت ألاحظ أدب سائقى السيارات فلا يمر أحدهم على زميله دون أن يحييه بانحناءاته الوديعة ، وهو يتقبل منك ماتعطيه أجراً مهما قل ولا يناقشك قط بل يصيح قائلا (آريجاتوسان) أعنى شكراً سيدى المحترم ويشيعك بانحناء وابتسام ، وان سألت أحد المارة شيئاً بالغ فى خدمتك واكرامك فأن لم يفهمك استرشد بغيره فى الحال . أدب جم وتسامح جميل امتازت به اليابان على سائر الشعوب

طوكيو : (ومعناها العاصمة الشرقية سكانها ٢ ¼ مليوناً) بأي لسان أستطيع أن أقص ما أرى من عظمة ودقة ، تنميق حسن وذوق سليم ، مدينة تتجلى فى كل مناحيها أبهة الملك وعزة السلطان ، هى تفوق فى نظرى كثيراً من عواصم أوروبا بقصورها الشامخة وطرقها الممدودة وحدائقها الوارفة، تكاد تمتد كل طرقها الرئيسية على نمط واحد واتساع رحب يتوسطها ممر الترام والعجلات الكبيرة ثم أفريز من خضرة ثم ممر للعجلات الصغيرة فأطار للمارة، والمصابيح تعلو فى عناقيد الى مد البصر ، ورجل البوليس يتوسط مفارق الطرق ويسير الحركة بالمصابيح الملونة والصفافير واليدين فى دقة عجيبة ومهابة يقدرها الجميع .. وتوزيع مخافر البوليس فى بلاد اليابان يغايره



المدخل الرئيسى لطوكيو فى وهج المصابيح الوضاءة ليلا

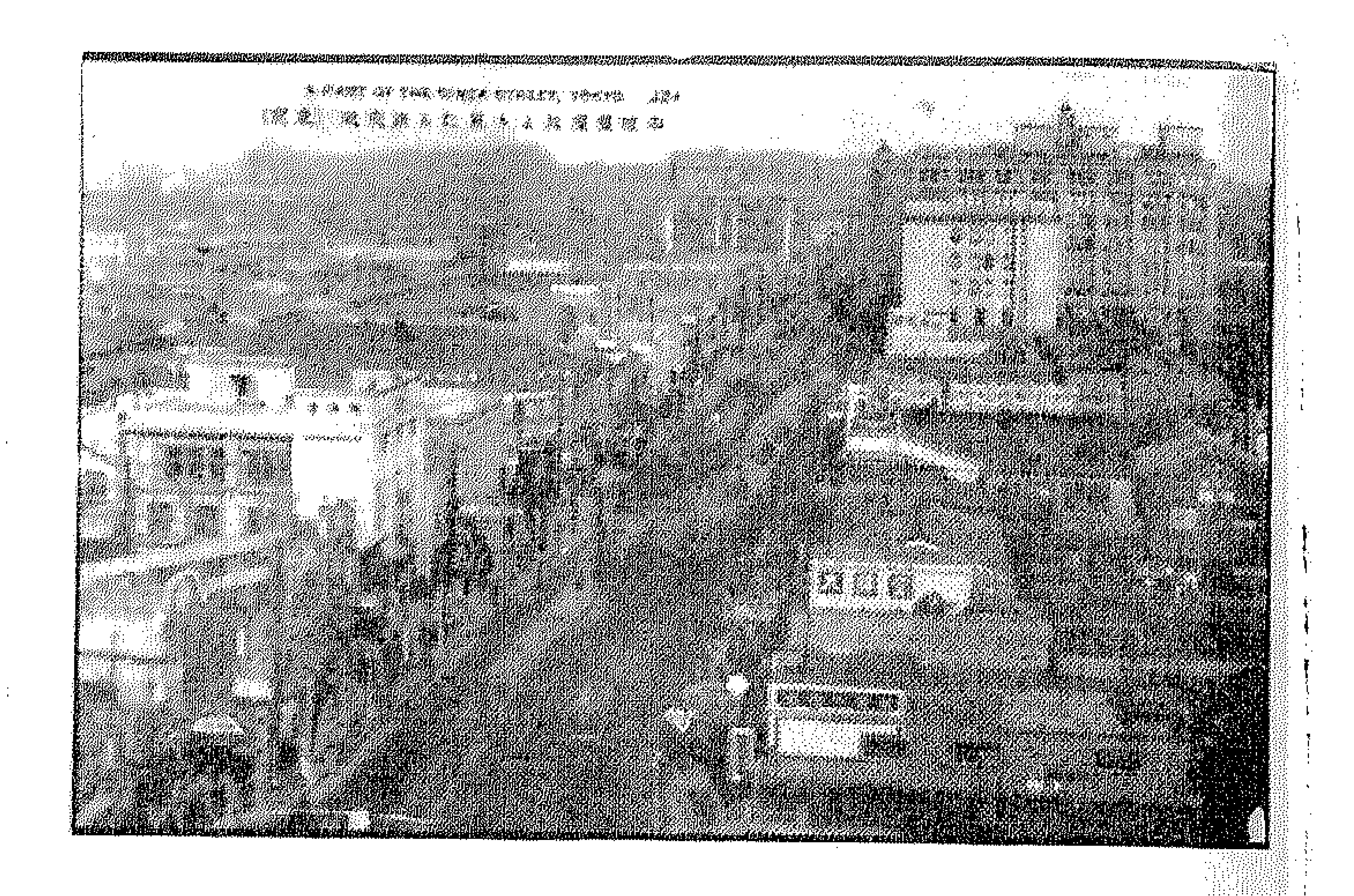
فى البلدان الأخرى مذ ترى جوسقاً صغيراً به ضابط البوليس ومعاونه وحولها التليفون والسجلات والخرائط وتتوزع تلك الجواسق فى مسافات متقاربة وحتى داخل الأزقة لتكفل الأمن من جهة ولتهدى المارة لما يطلبون . أما نظام البوليس المركز فى أقسام كبيرة نائية عن بعضها كما نراه عندنا فليس له وجود ، لذلك فأنك تري البوليس ملماً هناك بكل شئ عالما بدقائق منطقته الصغيرة وسكانها. حدث مرة أن أحد النزلاء من الطليان انتقل الى دار جديدة فلما كان المساء عاد الرجل فاشتبه عليه الأمر وضل طريقه الى داره الجديدة فباغته رجل البوليس وهو حائر قائلا أأنت فلان؟ ماذا تريد ؟ فخبره أنه ضل طريقه فقاده رجل البوليس الى بيته الجديد ! لذلك قلما تقلت البوليس هناك جريمة لا يهتدى اليها عاجلا

حللت نزل (Chuo) الفاخر وهو على النمط الأفرنجى يديره اليابانيون رجالا ونساء فقوبلت بالانحناءات والابتسامات وما ان حللت غرفتى حتى أقبلت الفتاة تقدم شاى التحية — وهذا يكرر كلما عدت الى النزل وفى أية ساعة — ثم عقبته باخبارى ان قد أعد الحمّام ، وحتى فى

الموسيقيات المنجولات فى طوكيو وتلك هى الطريقة الوحيدة التى يباح فيها الاستجداء

غرفة الطعام الأفرنجية تراهن وقوفا زرافات يحاولن تسليتك ولو لم يعرفن لغتك

حدث أن مرفتاتان بباب النزل وأنا فى غرفة الطعام يعزفن على الشاآمسين و يرقصن ويغنين فأسرعت اليهن ومعى صاحب الفندق وفتياته وقالوا ان تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يباح فيها الاستجداء ، يؤيد ذلك انى لم أر متسولا واحداً فى جميع البلاد التى جبتها هناك ، وما كدت أبرز آلة التصوير لأخذ صورتهن حتى غضب الجميع ومنعونى دفاعا عن عزتهم القومية فاعتذرت لهم رغم أن الفتيات كن فى هندام نظيف جذاب



شارع جنزا مستراض الشباب فى طوكيو

هدانى تجوالى فى المساء الى شارع (جنزا) بأضوائه الخاطفة وتنسيقه الياباني الخلاب هو متنزه الشباب ومحط سروره حوى ٣٤٨ من الأنزال والملاهى ومشارب الشاى وما اليها ، الى ذلك بعض المحال التجارية تعرض بها المستحدثات التى تروق الشباب ، ولن أنسى قعقعة (القباقيب) ولا سحابات الفراش الآدمى فى ألوانه الجميلة ومن المقاهى ماهو يابانى ترى الأحذية والقباقيب وقد صفت أمام الباب مذ يجب خلعها قبل الدخول ، ولعل أكبر مميزات هذا الشارع الباعة الرحل الذين يفترشون الاطارين بسلعهم طوال الطريق وهى نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة التى تدل على مهارتهم الكاملة خصوصاً اذا علمت ان غالبها يصنع فى البيوت (كلعب الأطفال وأشغال الورق والغاب وما اليها) ، واذا ما انتصف الليل عكف كل يطوى



مدخل القصر الامبراطورى وفى أعلاه صورة الامبراطور والامبراطورة

معروضاته قطعة قطعة بثبات وصبر غريب ثم يحملها الى بيته ليعيد الكرة فى الغد . نشاط وصبر الى نظافة وتقشف امتاز بها اليابانى فكان مزاحماً قوياً لزميله الأمريكى والأوروبى

قصدت قصر الأمبراطور وهنا تجلت العظمة بأجلى معانيها هو شبه قلعة مشرفة كأنها الجبل يحوطها خندق تعبره القناطر تؤدى الى القصر وهندسته مزيج من اليابانية والصينية فى طابق واحدوسقوف منحدرة خشبية تتقوس أركانها إلى السماء ولا يباح لأحد دخول القصر ولا تصويره تقديساً له وللامبراطور ابن السماء ، حدث أنى كنت أحاول أخذ صورة فلم أشعر إلا وفارس قد أقبل مسرعاً وأخذ الفتوغرافية وأفسد الفلم بيده وهو

يعتذر بأن ذلك غير مباح وتركني بعد أن بش فى وجهي وانحنى تأدباً، أما الميدان الذى يتقدم القصر فعظيم لا يعرف مداه وتقوم عليه حول القصر كثير من دور الحكومة فى قصور سامقة أخصها دار البرلمان فى هندستها الغريبة ووزارة الحربية والبحرية بأعمدة اللاسلكى تسامت السماء وتهول الناظر بضخامتها وتتناثر هنا وهناك تماثيل عليتهم ممن ابلوا للوطن البلاء الحسن

وتقديس القوم للامبراطور يثير الدهشة فكل شيء هناك يتلاشى الى جانبه فهو مطلق التصرف فى البلاد وسلطة البرلمان ضئيلة أمامه خصوصاً فيما يختص بالمالية والشئون الحربية ومجلس الوزراء مسئول أمامه فقط وهو الذى يعين رئيسه ولا يشترط اختيار الوزراء من رجال الحزب السائد فى البرلمان ووزيرا الحربية والبحرية يقابلان الأمبراطور رأساً ولا يسقطان بسقوط الوزارة

ويتساءل المرء كيف يقبل القوم هذا الخضوع والولاء الشديد لهذا النوع من الحكم المطلق ، على أن نظام اليابان الاجتماعى والدينى يساعد على ذلك حتى الهيئات التجارية والصناعية فهى تقوم على صوالح الأسرة والقرية والدولة ، وتلقين النشء الاخلاص للوطن فرض على الجميع خصوصاً منذ عهد الامبراطور ميجى (١٨٦٨ — ١٩١٢) جد الامبراطور الحالى وخالق النهضة اليابانية ذاك الذى حول مبادئ الديانة السائدة فى اليابان وهى الشنتوية — التى تعبد الأجداد — الى عبادة الوطن فكل آلهة العائلات

تمثل آلهة الشمس وهى جدة الأسرة الحاكمة فالامبراطور أذن هو ممثل الآلهة فى الأرض لايعصى له أمر وساعدهم على ذلك حماسته النادرة فى النهوض ببلاده لذلك عد البيت الامبراطورى مقدساً حتى أن القوم لا يصح لهم ذكر اسم الامبراطور بل يسمونه (Tenno Heka) أى ابن السماء ، حدث مرة أن سمى ريفى ابنه باسم الامبراطور على غير علم منه فلما عرف أن هذا هو اسم الامبراطور انتحر خجلا وخزيا ، وحادث آخر أن أحد أكابر الموظفين تعرض فى محاضرته لمستقبل اليابان وأشار إلى النزعة الديمقراطية التى تتزايد ، وتألم لما عساه أن يحل باليابان من الويلات اذا حدث لاقدر الله وزال حكم الأسرة المالكة فكان هذا مبرراً لفصله على الفور . ويحمل الجميع صور الامبراطور ويخفونها فى صدورهم الى يوم عيد الميلاد حين تعرض فى حفل كبير يقام فى المدارس وغيرها وعند كشفها يخر الجميع ركعاً ، ويخالون أن روح الامبراطور تحل بعض المعابد أحياناً لذلك علمت أن قاضى القضاة الذى كلف الحكم فى قضية خطيرة تمس الاشتراكية كان يذهب إلى معبد طوكيو كل صباح ليستمد الإلهام الصادق من روح الامبراطور ميجى لكى يوفقه فى الحكم.

وقلما يخرج الامبراطور ليراه الناس وان حصل ذلك أغلقت جميع النوافذ على جانبى الطريق حتى لاينظر اليه أحد من عل ويصطف الناس وعيونهم الى الأرض ولايجرؤ أحدهم النظر اليه مهما علت مرتبته ، ويقف البوليس وظهره الى الامبراطور ، ويجب على مصلحة الصحة أن تطهر الطريق كلها قبل مروره ، وقلما يحضر الامبراطور بنفسه الولائم والحفلات

الرسمية التى تقام فى القصر و يحضرها كبار الأجانب وسفراؤهم و يغلب أن ينيب عنه أحد الأمراء وقد يطلع عليهم وهم وقوف فى صف و يرفع لهم يده حتى قيل ان غالب السفراء لايطيقون ذلك رغم انها من تقاليد البلاد

فليس بعجيب اذن أن يخلق هذا حكومة مركزية مدعمة الأركان فى أمد وجيز فالى سنة ١٨٦٨ كانت اليابان مقسمة الى اقطاعات تحت امرة (الدايميو) الذين كان يرأسهم (الشواجن) أى الحكام العسكريون وهم حكام اليابان الحقيقيون ، وكانت أسرة (توكوجاوا) هى السائدة خلال ٢٥٠ سنة وكانت من قبل من أسرات (الدايميو) أما الامبراطور فكان فى كيوتو كأنه سجين لادخل له بالسياسة وفى منتصف القرن التاسع عشر بدأت حكومة الشواجن تضمحل بسبب سوءالحكم و بَدْء تدخل الأجانب الذين هددوا استقلال البلاد مذ أرغموهم على فتح ثغورهم للأجانب سنة ١٨٥٤ فبدا جلياً (للساموری)مدیری المقاطعات من قِبَل زعماء الأقطاع أن تغيير الحكومة واجب إذا أرادوا المحافظة على استقلال اليابان فأغروا الزعماء من الدايميو الذين كانوا حانقين على (الشواجن) فثاروا جميعاً بزعامة أسرتى (تشوشو ، ساتسوما) الذين ناشدوا رجال الحرب أن يخلعوا نير الشواجن و يعيدوا للامبراطور سلطته فنجحوا و بدأ العصر الجديد سنة ١٨٦٨ حين تسلم الامبراطور (ميجى) الامر بعد ما حرمته الأسرة تسعمائة سنة وفى ١٨٧١ زال حكم الاقطاع تماما وسلم الدايميو بلادهم ثم تنازلوا عن جميع امتيازاتهم المالية الموروثة بمحض اختيارهم رغم عدم وجود موارد أخرى

لهم وهنا تبدو متانة الخلق اليابانى فى التضحية والاخلاص إذ تركوا صوالحهم الذاتية وتعاونوا على معاضدة النظم الجديدة لصالح اليابان أما الشعب فلم يقم بشيء إيجابى قط

ولكى تتمشى البلاد مع الدول العظمى شعروا بالحاجة للجيوش والاساطيل الحديثة والنهوض بالصناعة ووسائل النقل والتعليم وقد وقع جل هذه الأعمال على عاتق أسرتى (تشوشو ، ساتسوما) الذين أتوا بالمعجزات لانقاذ البلاد من المخاطر التى كادت تحيق بها ولم يروا لازما أن يقلدوا أوروبا فى كل شيء بل فى تنظيم الحكومة ووسائل الأنتاج وقد نقح الأمير (أيتو) الدستور سنة ١٨٨٩ على أساس دستور ألمانيا وعين غالب زعماء الأقطاع (الدايميو) أعضاء فى المجلس الاعلى (والساموراى) فى المجلس الأدنى وخصت أسرتا (تشوشو ، ساتسوما) بالحربية والبحرية وكان لهم الرأى الأعلى حتى بدأ يناوئهم بعض الهيئات الأخرى فلجأوا الى تشكيل هيأة اسموها (Genro) أى جماعة السياسيين المحنكين لتقوم بوظيفة المستشار الامبراطورى وهم الذين يقترحون تعيين رئيس الوزراء وينصحون للامبراطور بكل التصرفات ووزيرا الحربية والبحرية يختاران من بين رجالها، فالحكومة اليابانية نوع من الألجاركية لكنها مصلحة تعمل للرأى العام حساباً والرأى العام فى اليابان قوى جداً فلمجرد احتجاجه على تصرفات الوزارة سنة ١٩١٤ استقالت هى وكذلك التى تبعتها سنة ١٩١٨ حين احتجوا على وزارة (تيروشى) الذى كان ينتمى الى (الجنرو) ويومئذ قام الناس باعتصاب الارز الذى

أسقط الوزارة لوقتها وفى سنة ١٩٢٣ استقالت وزارة (ياماموتو) على أثر اغتيال حياة الأمير نائب الملك ، الأمر الذى عده الشعب دليلا على عجز الوزارة أن توطد الأمن فى البلاد وكلما حدث اعتداء من هذا القبيل أسرعت الوزارة أو رؤساء الشرطة بتقديم الاستقالة كما حصل فى يناير الماضى حين حاول شاب ثورى من كوريا أن يغتال الامبراطور بقنبلة انفجرت فأصابت أحد خيل المركبة فاستقال مدير الشرطة وكبار رجال البوليس اعتقادا منهم أنهم المسؤولون عن ذلك ، وكذلك انتحار الاميرال شنوازادى قائد أسطول اليابان فى مياه شنغهاى لما أن عزل بسبب سوء تصرفه هناك فى الحرب الحالية بينها و بين الصين

على أن جماعة الجنرو ممثلى عهد الأقطاع اليوم بدأوا يشعرون بمناوئ قوى اليوم هو نفوذ رجال الأعمال التجارية والمالية والصناعية خصوصا فى طوكيو المركز المالى وفى أوزاكا المركز الصناعى وكثير من أولئك من سلائل الساموراى واسرة (متسوى) أغنى الجميع وهى تشتغل تحت ارشاد الحكومة وقد بدأ نفوذها يؤثر فى الحكومة و يسود رجال الهيأة العسكرية لذلك بدأت تنتعش سلطة المجلس الأدنى الذى يستمد المال من تلك الهيئات الصناعية لمناهضة رجال الحرب وقد نجحوا فى إسناد الوزارة الى (كاتو) من نصرائهم سنة ١٩٢٤ لذلك كان يطلق عليها (حكومة متسو بيشى) هذا وقد أدى نمو الصناعة الى الدعاية الاشتراكية لصالح العمال و بدأ يظهر أثر هذا فى التحفز للاضراب وفى النزاع الذى بدأ بين المزارعين والملاك

على أن الحكومة تقاوم كل ذلك مقاومة فعالة خصوصاً وان غالب الصناعة ووسائل النقل تحت أشرافها المباشر

وتمتاز طوكيو بمتنزهاتها الكثيرة زرت فيها متنزه (هيبيا) عظيم الاتساع وفير الزهور وبخاصة (الأزاليا) ويجد القوم فيه مكانا صالحاً للنزهة واللعب ولذلك ترى أدوات اللعب كالصوالج والاراجيح وما اليها منثورة فى أرجائه الفسيحه كذلك متنزه (شيبا) ويشتهر بمدافن أسرة طوكوجاوا من الشواجن و بعضها فاخر النقش فى الخرط اليابانى الغريت وأغشية الذهب والفضة فى إسراف لايفوقه سوى مدافن نكو

ولعل أكبر المتنزهات وأجملها (و ينو) تزينه أشجار الكريز بزهرها الجميل وفى داخله كثير من الملاعب الى ذلك حديقة الحيوان المتواضعة ودار الكتب والمتحف الفنى والمتحف الامبراطورى وهذا أهمها وان بدا صغيراً قليل المعروضات بالنسبة لمتاحف أوروبا ومجاميعه فى الطابق الأعلى رسوم خيالية مطرزة على ستائر ثقيلة ثم منتجات اللاكيه المرصع بالصدف وجدائل الذهب فى أتقان كبير وفى الطابق الأسفل تعرض الأدوات النحاسية والخشبية ثم الزجاج والخزف والاحجار الملونة ثم تماثيل كبيرة لبودا وحراسه وعفاريته بعضها من ذهب وفضة والبعض من خشب الى ذلك بعض الأسلحة القديمة والنقود على أن الفن يعوز غالبها وفقر المعروضات لا يكشف للقوم عن ماض مجيد قط فهم لم يرثوا عن آبائهم من عظمتهم الحالية شيئا مما يزيدهم إكباراً وفخرا



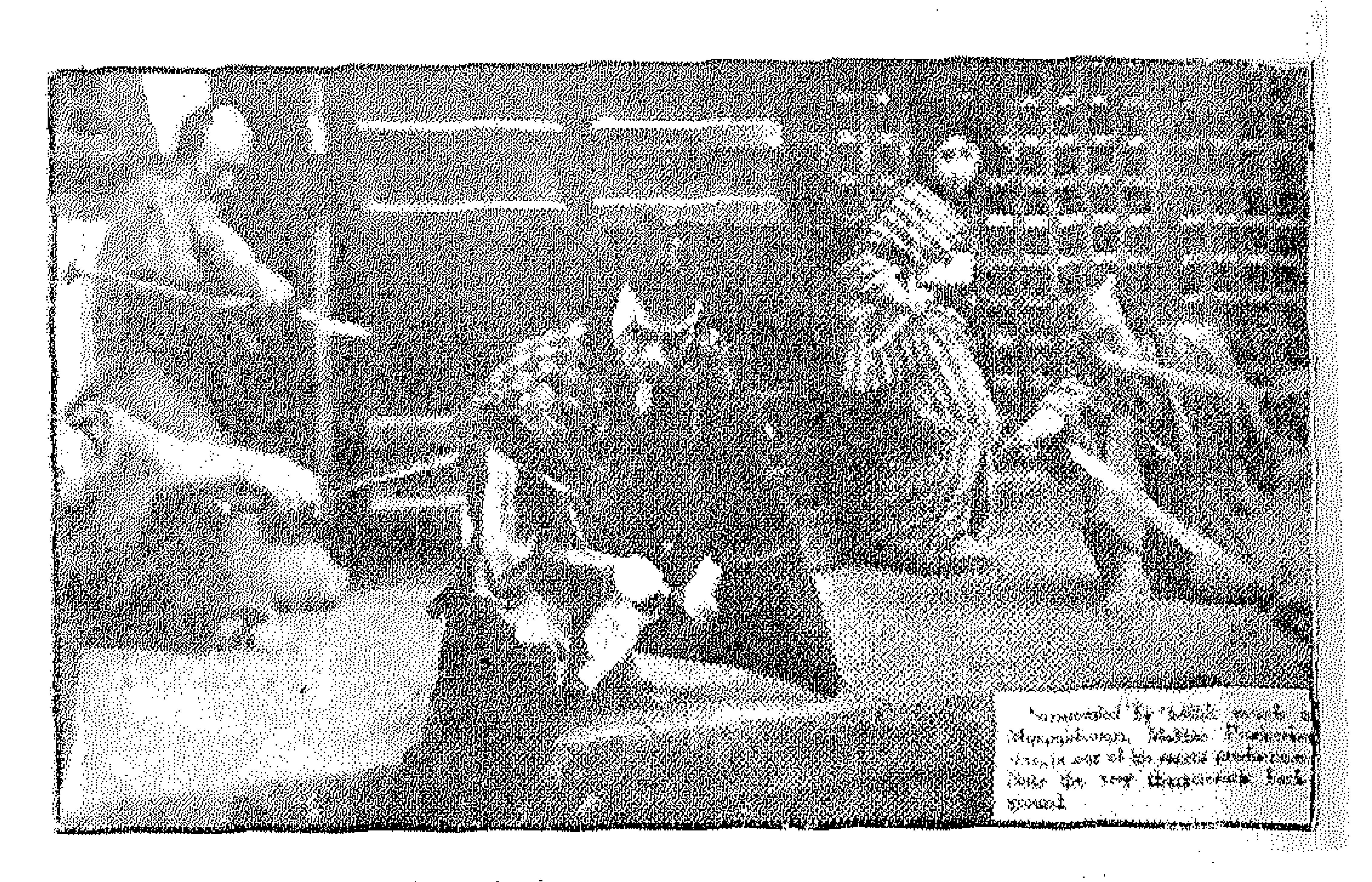
الطريق التجارى الى معبد أسا كوسا بجوانبه الخشبية وسيل المارة الدافق

قصدت الى متنزه (اسا كوسا) وفى مدخله معبد شعبي لآلهة الرحمة نصل اليه وسط طريق صفت على جانبه الحوانيت بعروضاتها اليابانية الجذابة ومصابيحها الورقية الملونة وشرفاتها الخشبية وأنت تذهل هناك لسيل الناس الجارف صباحا ومساء وكلهم فى أرديتهم القومية الجذابة ، والمعبد فاخر وأعجب ما رأيته هنالك لفائف ضخمة من شعر آدمى جدل فى حبال بالغة الطول والسمك تبرع به فتيات ذاك العصر كى يعاونوا على سرعة أقامة المعبد بعمده الضخمة التى لم تقو الحبال العادية على رفعها ، وفى ذلك مثل لميلهم الشديد للتضحية خصوصاً وان الشعر أكبر ماتعتز به الفتاة اليابانية وتتجمل بمرآه ، وهذا المعبد هو المكان الوحيد من ذاك الحى من طوكيو الذى لم يحترق على أثر نكبة الزلزال الكبرى سنة ١٩٢٣ فعزا القوم ذلك الى قدسيته ، وعجيب

ان ترى خلف المعبد مباشرة أكبر مناطق طوكيو للمجون والملاهى الشعبية تلك التى يعدها الجميع خير مكان للتسلية لذلك لاتهدأ حركة المتنزه ولا تخبو أضواؤه الخاطفة طوال الليل

فى المساء طلبت إلى صاحب النزل أن يدلنى على دار للتمثيل اليابانى القديم وهو أحب أنواع التمثيل لديهم فأرشدنى الى (تياترو شمباشى) من أفخم دور التمثيل فى طوكيو وما أن وصلت الباب وهممت بشراء التذكرة حتى تقدمت إلى فتاة تجيد الانجليزية تقول : أأنت ياسيدى المستر ثابت النازل فى لوكاندة شوو ؟ فدهشت وقلت نعم فقادتنى الى داخل المكان بعد أن رفضت بتاتا أن أدفع ثمن التذكرة وأحلتنى مجلساً فاخراً وقالت بأن التياترو ملك لشقيق صاحب النزل وقد أعطانا اشارة تلفونية أن نكرم وفادتك فغمرتنى تلك الأخلاق الجميلة وظلت الفتاة تشرح لى بالانجليزية كل مشاهد التمثيل طوال الوقت حتى برحت المكان !

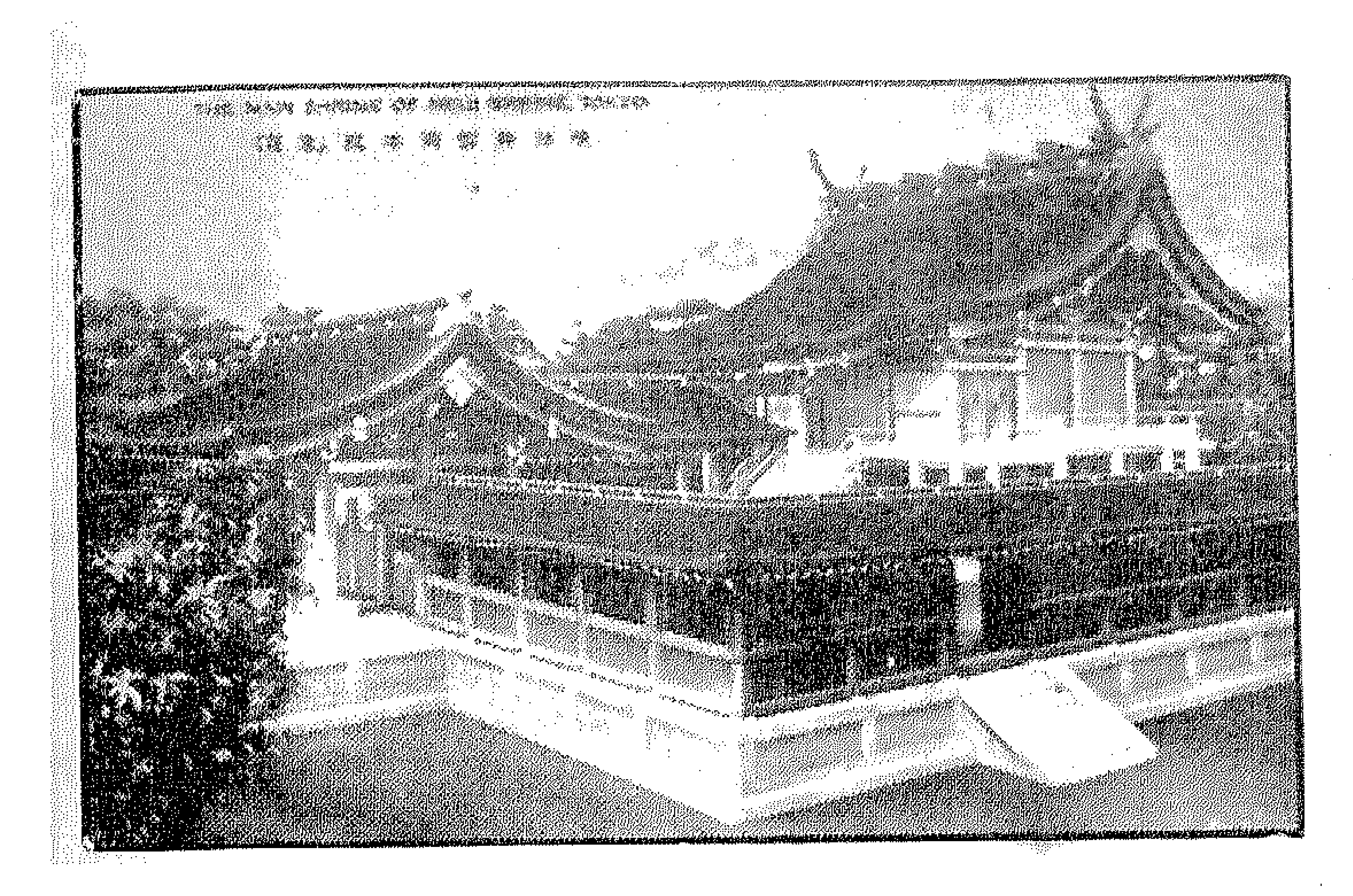
أما التمثيل فغاية فى الاتقان ومناظر المسرح رائعة وكلما أريد تغيير مشهد دار المسرح كله على كبره حول نفسه فبدا منظر جديد ، والرواية كانت قصة لفتاة زوجها أبواها من صبى لاتحبه وهى طفلة كعادة اليابانيين قديماً ولايزال للعادة أثر إلى اليوم ، وكانت تحب فتى آخر جنديا لم يسعها الا أن تسير اليه مخالفة أبويها ، فتلاقى الفتى مع غريمه وكان معه أعوان كثيرون بارزهم جميعاً وغالبهم فصرعهم عن آخرهم ، وأجمل ماراقنى منظر (خمارة) ضمت القوم وهم يرقصون ويهللون وقد أخذ (الساكي) بلبهم جميعاً بشكل يدل على



أحد مشاهد التمثيل القديمة أحب أنواعه لديهم

ان الادمان كان ديدنهم (ولا يزالون يكثرون من تناول الخمر) وختمت الرواية بفصل المبارزة التي يفاخر بها القوم ويجلونها إلى اليوم وكان المتفرجون يصفقون بحدة تشجيعاً لهم ، و بقدر التكلف فى نعومة اللفظ والتدلل من جانب النساء كانت غلظة الرجال فى حديثهم وانتحالهم وجوهاً مقطبة وهم يتكلمون فى نعمة الآمر المستبد ولأقل سبب كانوا يستلون سيوفهم ، وهذا النوع من التمثيل يسمونه (نو) وتقام له أكبر دور التمثيل فى جميع البلدان و يتسابق القوم لاقتناء تذاكره فى تهافت عجيب

زرت بعض معابد المدينة وأفخرها معبد ميجى خالق النهضة اليابانية مداخله ممتدة تتخللها البوابات الخشبية الشامخة — وهى تتقدم مداخل المعابد كلها — وفى قراره مقصورة الهيكل يسجد الناس أمامها ويلقون بقطع النقود تقربا و زلفى ، ثم زرت معبد (سنجا كوجى) ويشتهر بمدافن جنود



داخل معبد ميجى فى كامل روعته

(الرونين) أى فاقدى الرئيس ولهم قصة عجيبة مذ كانوا أتباعا لرئيس لحقته اهانة من غيره فهم بطعنه لكن حيل بينه و بين رغبته وقضى عليه بالانتحار كعادتهم فهام أتباعه هؤلاء (وكانوا ٤٧) لايهنأ لهم عيش حتى يأخذوا بثأر سيدهم ولما حققوا أمنيتهم أسرعوا إلى قبر سيدهم ، وأعلنوا أنهم أدوا الأمانة ثم انتحروا جميعاً بجواره خشية أن يحكم عليهم بالموت بشكل غير مشرف ، لذلك أقام اليابانيون لهم معبداً لأنهم يقدسون الشجاعة والوفاء ولو فى مظهرها الوحشى

والأخذ بالثأر كان لديهم مقدساً لمحو العار فاذا أهان أحدهم غيره قتله لكن يعود القانون فيحكم على القاتل بالانتحار والا قتل نفسه قبل ذلك فأن نفذ فيه الحكم ظل الثأر فى رقبة أتباعه الذين لابدأن يأخذوا بثأر سيدهم

يوما ما ، وعجيب أن كان قانونهم يبيح ذلك وكان يحتم على المنتقم أن يبلغ الأمر للمحكمة لكى تحدد له ميعاد الانتقام واذا احتمى القاتل فى الاشراف أو أصبح جنديا سقط عنه القصاص وقيل ان تلك التعاليم أخذت عن (كنفوشيوس). والانتحار أشرف لديهم من الاعدام لذلك كان يفضل القاتل أن ينتحر أمام الناس بيديه وكان القانون يعطى للمجرم الحق فى الانتحار أمام الناس أو ينفذ فيه الاعدام ويؤثر المنتحر أن يموت بسيفه الخاص (Hara Kiri) وهاك وصف حادثة انتحار حدثت أمام جمع من الأوربيين :

حكم على الأمير تاكى زنزا بورو بالانتحار ترضية للأجانب لأنه هو الذى أمر بضرب النار عليهم سنة ١٨٦٨ فدعا الميكادو الأجانب إلى أحد المعابد واصطف الجند وجىء بالمنتحر ومعه اثنان من أعز أصدقائه ليساعداه على قتل نفسه ان خانته قواه وتسلم الخنجر المدبب ماضى الحدين وجلس القرفصاء كعادة اليابانيين ثم رفع الخنجر فوق رأسه شجاعة واحتراماً وأخذ يعترف بجريرته فى جرأة واقدام وطلب معذرة الحاضرين وسألهم أن يسبغوا عليه شرف مشاهدتهم أياه وهو يبقر بطنه ثم انحنى مرات احتراماً ورفع قميصه ومال إلى الأمام قليلا مخافة أن يقع على ظهره ساعة انتحاره وهو عار لايمحى ثم أخذ يرمق الخنجر بنظرات العجب والتيه وطعن به جانب بطنه الأيسر وطفق يشقه محركا يده الى الجانب الأيمن وهنا اجتذبه الى أعلى امعاناً فى الشجاعة والجلد وهو خلال ذلك كله لم يمتقع وجهه ، بعد ذلك انحنى الى

الأمام ساجداً وفى لمح البصر هوى سيف صديقه على رأسه ففصلها عن جسمه ثم مسح الحسام بورقة وأعاده إلى غمده بعد أن انحنى وانسحب

منظر مزعج لكنه يدل على مبلغ ضبط النفس ورباطة الجأش وهدوء الاعصاب فى المنتحر وأصحابه وعجيب أنهم يعدون ذلك أكبر فخر خصوصاً أذا قام أقرب المقربين بالاجهاز على حياة صديقه وهذا يقدسه جميع اليابانيين لدرجة أن بعضهم عرض على البرلمان سنة ١٨٦٩ الغاء الانتحار فرفض اقتراحه بأغلبية ٢٠٠ ضد ٩ بحجة الاخلاص للمبدأ والشعور القومى وحفز الفضيلة وعجيب أن (أونو سيجورو) وهو الذى اقترح هذا الالغاء مات بالطريقة نفسها بعد ذلك بزمن يسير، هذا ورغم تحريم القانون ذلك اليوم نرى الانتحار منتشراً هناك حتى لمناسبات تافهة

تفقدت بعض المحال التجارية الكبرى وأخصها (متسو كوشى) شبيه لافاييت بباريس وشكوريل بمصر إلا أنه أفخم بناء وأعظم امتداداً حوى كل شىء حتى الطيور والفاكهة والمطاعم والمقاهى الى جانب مستلزمات النساء والرجال جميعاً وفوق سطحه بعد الطابق السابع حديقة يابانية أشبه بالحدائق المعلقة ينمو شجرها ويتفتح زهرها وتتوسطها النافورات والصخور وترى المقاعد صفت للمتريضين وأراجيح الأطفال وملاعبهم منتشرة خلالها وأمثال تلك الحدائق تعلو غالب المباني وتسمى بالحدائق السماوية وفى أقصى أركان الحديقة هيكل يقام لإله النجاح يزوره الجميع لكيلا تنسيهم المادة واجبهم المعنوى ، وللمحل عدد كبير من السيارات الضخمة

الفاخرة تنقل رواد المكان إلى محطة سكة الحديد ومنها بدون مقابل

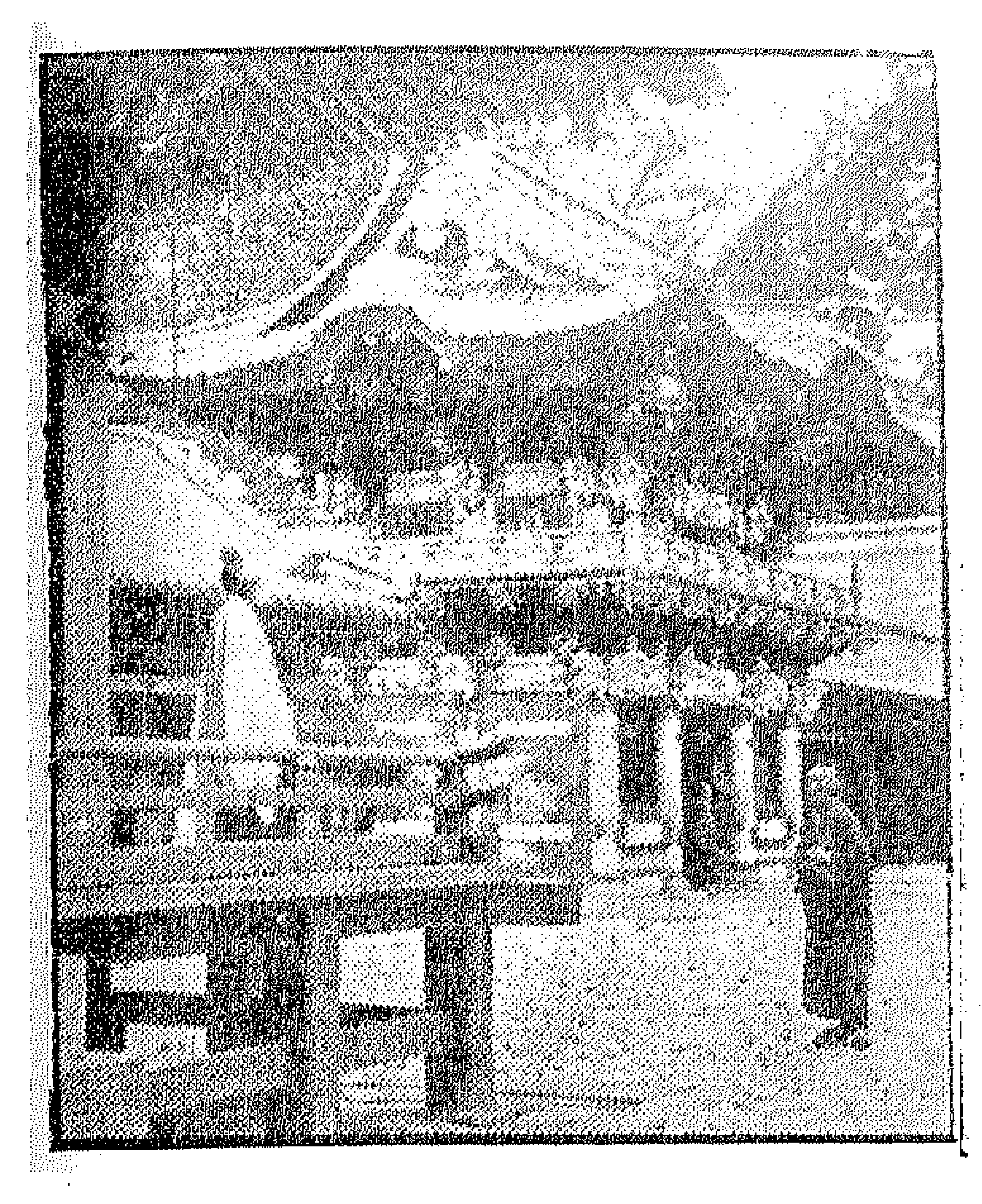
الى نكو :

مصطاف ملكى ساحر صافى السماء — ومن ثم سمى نكو أعنى ضوء الشمس — يقع وسط الجبال المعقدة تفصل ما بينها وديان متلوية سحيقة تغص بالشلالات والخوانق وغابات الصنوبر تكاد تكسو



حديقة معلقة فوق الطابق السابع من محل متسوكوشى التجارى فى طوكيو

المدينة كلها ، وصلتها فى ثلاث ساعات بقطار الكهرباء فبدت مناظر الطريق فى قسمه الأول سهولا يكسوها الأرز الذى يخطط الأرض فى تماثل جميل وبين آونة وأخرى تبدو منابت الكتان والخضر ، وعلى مقربة من نكو ظهرت الربى والغابات وأخذنا فى الصعود حتى حللنا القرية ببيوتها الخشبية اليابانية التى يستخدم ظاهرها لعرض المنتجات اليابانية الدقيقة ، وأهم جانب هنالك ناحية المعابد فهى عديدة لا تحصى وغالبها جميل الهندسة موفور الطلاء


البوابة الفاخرة فى معبد أيياسو

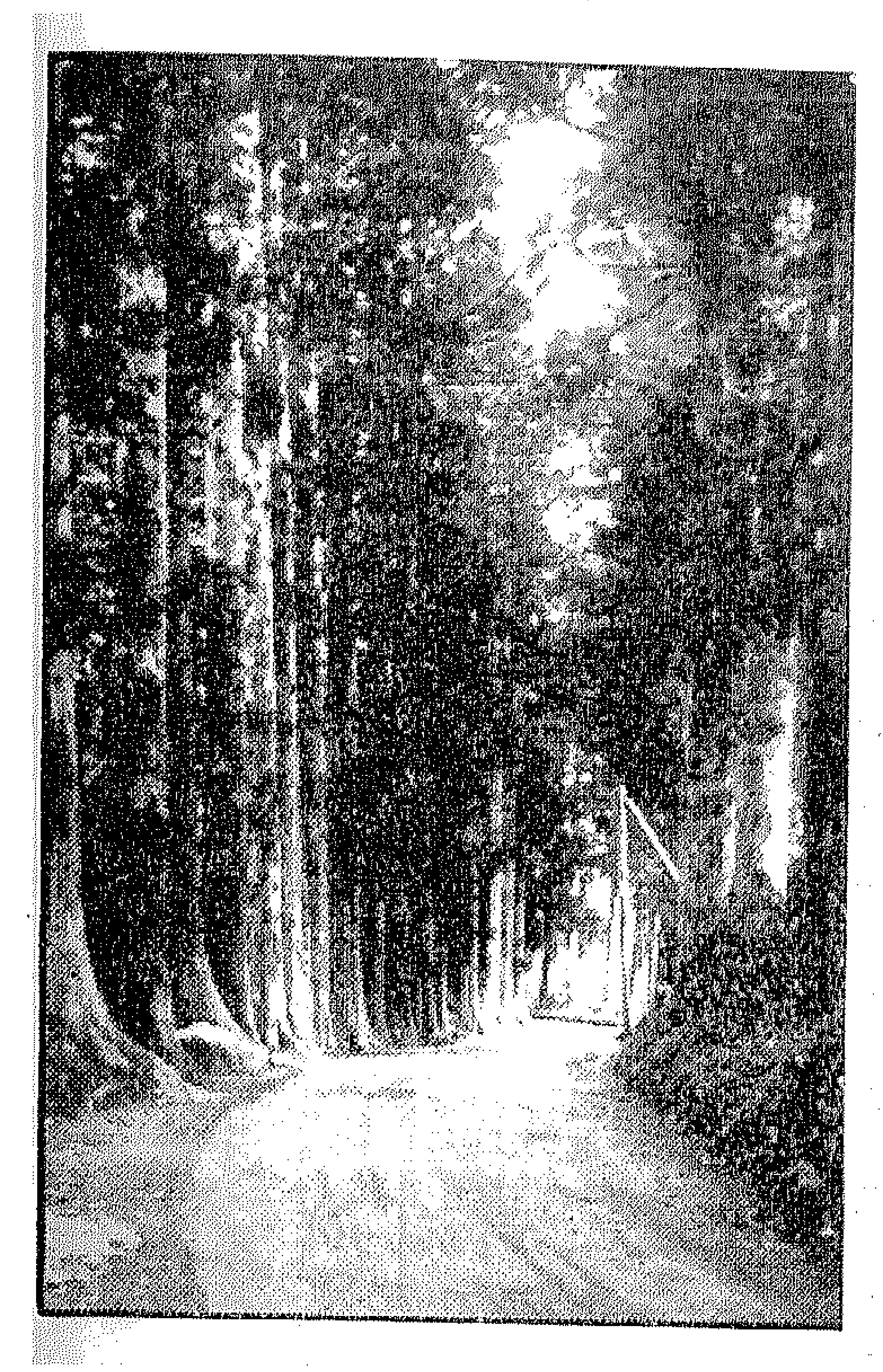
سلكنا سبلنا اليها صعداً ومررنا بجانب قنطرة مقوسة صغيرة فى لون أحمر جذاب تقع على نهر دايا المقدس ويسمونها القنطرة الالهية ولا يجوز أن يعبرها غير الامبراطور وأسرته فحسب ، وأفخر المعابد طراً معبد (أيياسو) ومدفنه وهو مؤسس أسرة شواجن طوكوجاوا (١٦٠٠ — ١٨٦٨) بناها حفيد ايياسو ثالث الشواجن سنة ١٦٢٤ وظل العمل ١٢ سنة يبذله من العمال ١٥ ألفاً كل يوم حتى قدرت نفقاته بمليونى جنيه، أخذنا نجتاز بوابات من خشب باسق فى خرط يابانى تطوقها رقائق النحاس البراق وطلاء الذهب الخاطف وتلفت النظر بنوع خاص البوابة الثانية التى تبهر النظر لكثرة زخرفها وبريقها ولا يكاد يفوقها جمالا سوى (تاج محل) فى الهند وفى داخلها تقوم المقبرة فى هرم مدرج من نحاس يضم الرماد المخلف من احتراق جثة ايياسو وعند ماتم بناؤه خشى مهندسوه حسد الآلهة وحنقها على الامبراطور من فرط جمال البناء لذلك أقاموا نماذج مصغرة للبناء فوق بعض الأعمدة وهى منكسة دفعاً لذلك واتقاء غضب الآلهة ، وأغرب مايذكره القوم عن ايياسو

انه أباح للزوج الطلاق بغير مبرر كما أباح اتخاذ أى عدد من الخليلات مع الزوجة على أن يكون أولاده منهن جميعاً شرعيين لكن ابن الزوجة هو الوارث والا ورث أخوه أو أقرب الناس اليه واذا لم تعقب الزوجة سوى الاناث تبنى أحد أفراد عائلة أخرى ولا يجوز لمن دون ١٦ سنة أن يتبنى غيره إلا اذا كان على فراش الموت خشية انقطاع حبل الأسرة وكان يبيح للزوج قتل زوجته مع خليلها فان قتل أحدهما عد مذنبا . وحول المكان معابد لاتدخل تحت حصر وبجانبه

فى مدخل معابد نكو ومن ورائنا البرج القديم

(پاجودا) تمثل برجا يابانيا من سبعة طوابق وتعد من أجمل منتجاب الفن الياباني وترى فى مداخل أغلب المعابد خصوصا البودية تماثيل حفظة المكان وقتلة الجن فى أشكال مزعجة منفرة لاتسيغ لك نفسك النظر اليها ويسميها بعضهم (يأجوج ومأجوج) وكنت ألاحظ الزائرين اليابانيين

يبصقون عليها قطعاً من ورق يمضغونها فان التصقت لبابة الورق بالتمثال كان خيراً و إلا دل على غضب الآلهة وعدم قبول الصلاة

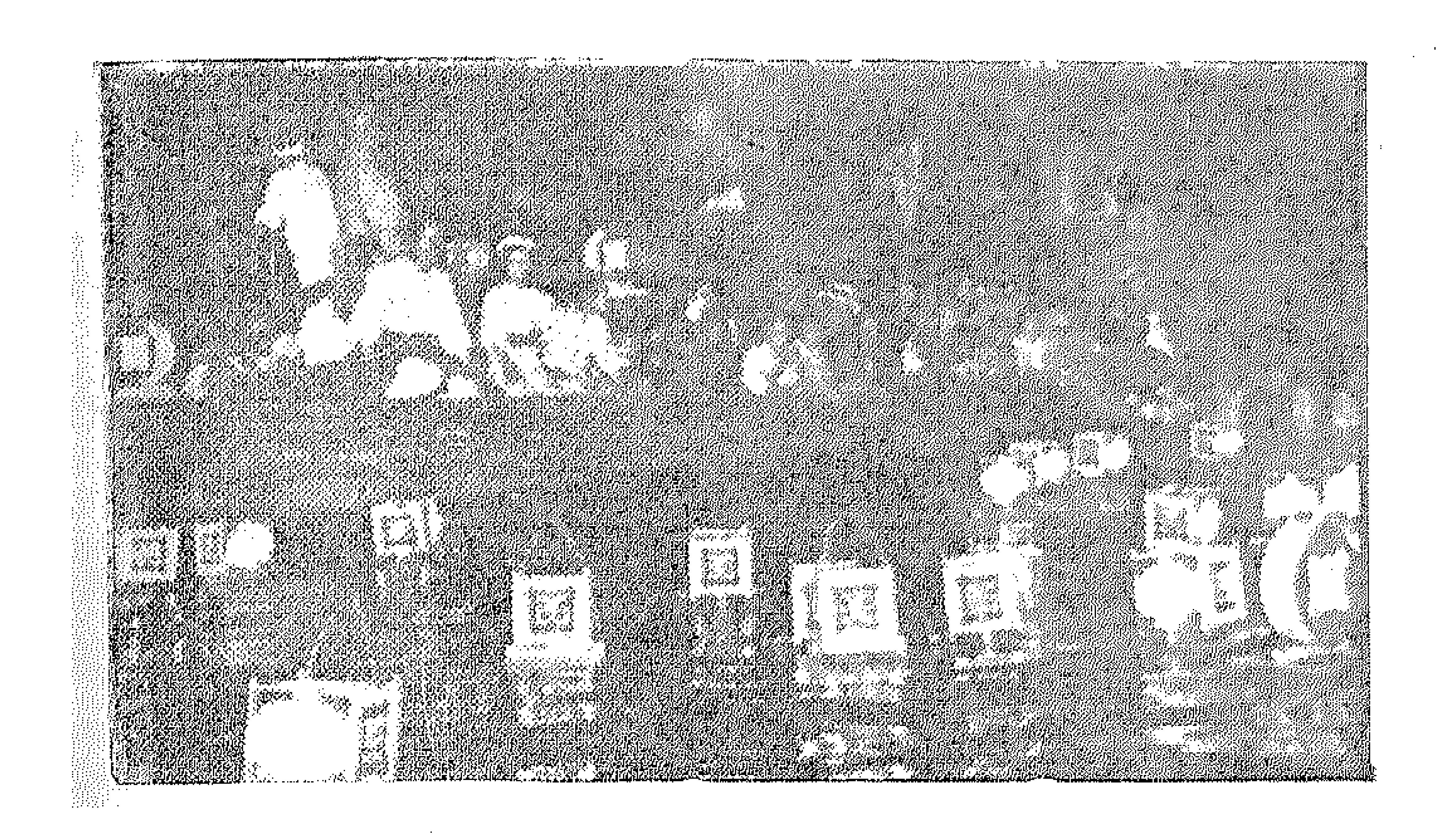


ندخل نكو من طريق تحفه أشجار (الكربتوميريا) الى مدى ٢٢ ميلا

وللمدينة مدخل رائع بين صفين من شجر (Cryptomeria) السامق الرهيب الذى يكاد يتعانق من أعلاه ويخط طريقاً قاتماً رائعاً يمتد ٢٢ ميلا فى تماثل جذاب أقيمت أشجاره سنة ١٦٤٨ فبلغت ٤٠ ألفاً وهي اليوم ١٨ ألفاً ، والسير فى الطريق يذهب بخيال المرء كل مذهب بحيث يترك فى المخيلة أثراً لاتمحوه السنون ، هنا أقلتنى سيارة وسارت صعداً بين الربى والشلالات والنقائع فوق طريق لياته من الأعاجيب عددت منها ٣٥ لية وكانت السيارات تسير كأنها متوازية تماماً كل رجة من الطريق تعلوا الأخرى وكلما علونا بعد غور الوديان وفتر منظرها لكن

ظل دوى مائها يتردد فى أرجاء الربى من حولنا فى شدة رهيبة و بعد ساعة كاملة فى ذاك الصعود ، وقفنا الى جانب شلال كوجون وغور مسقطه ٣٣٠ قدماً وقد أعد القوم قبالته مشرب شاى جميل ، أخيراً وصلنا منبع النهر من بحيرة (شوزنجى) على علو ٤١٩٤ قدم تنعكس على صفحتها اللجينية الآسنة، الربى السندسية . ومنظرها من داخل المعبد الذى أقيم تقديساً لها ساحر جدير بعبقرية الشعراء التى تستطيع ترجمته للناس فى جلاء وسحر بيان ، ويقينى ان نكّو جمعت بين جمال الفن الأثرى والابداع الطبيعى فهى مقام هانئ لمحبى الفنون ورواد الهدوء وواسعى الخيال ولليابانيين الحق فى مثلهم السائر : — لاتقل نيكو (Neko أى فخم) ألا بعد أن ترى نكو Nikko على انى لاحظت افتقار مناظر اليابان الطبيعية لطوائف الحيوان على اختلاف أنواعه فهى لاتلائم الصياد قط فقلما يسمع المرء فيها تغريد طائر فاحراشهاوغاباتها ساكنةسكون الموت مما يجعلهاموحشةرغم جمالها الساحر

قمت بجولة على ضفاف نهر (سوميدا) فى طوكيوفهالنى منظر المصابيح الملونة من الورق تصف على جانبى النهر وعلمت أن يومى هذا صادف حفلة يسمونها : عيد المصابيح حين تحرق سيقان جافة من الكتان فى مدفن العائلة وقبل خمودها يشعل فيها مصباح المدفن ومنه يضاء مصباح آخر ينقل الى البيت ويضاء منه الهيكل ويزعمون أن هذه النار توقظ أرواح الأجداد فتسير على هديها إلى البيت لذلك يقدمون القرابين من المأكولات أمام الهيكل فى كل بيت ويركعون للآلهة وفى نهاية الليل تعود الأرواح إلى



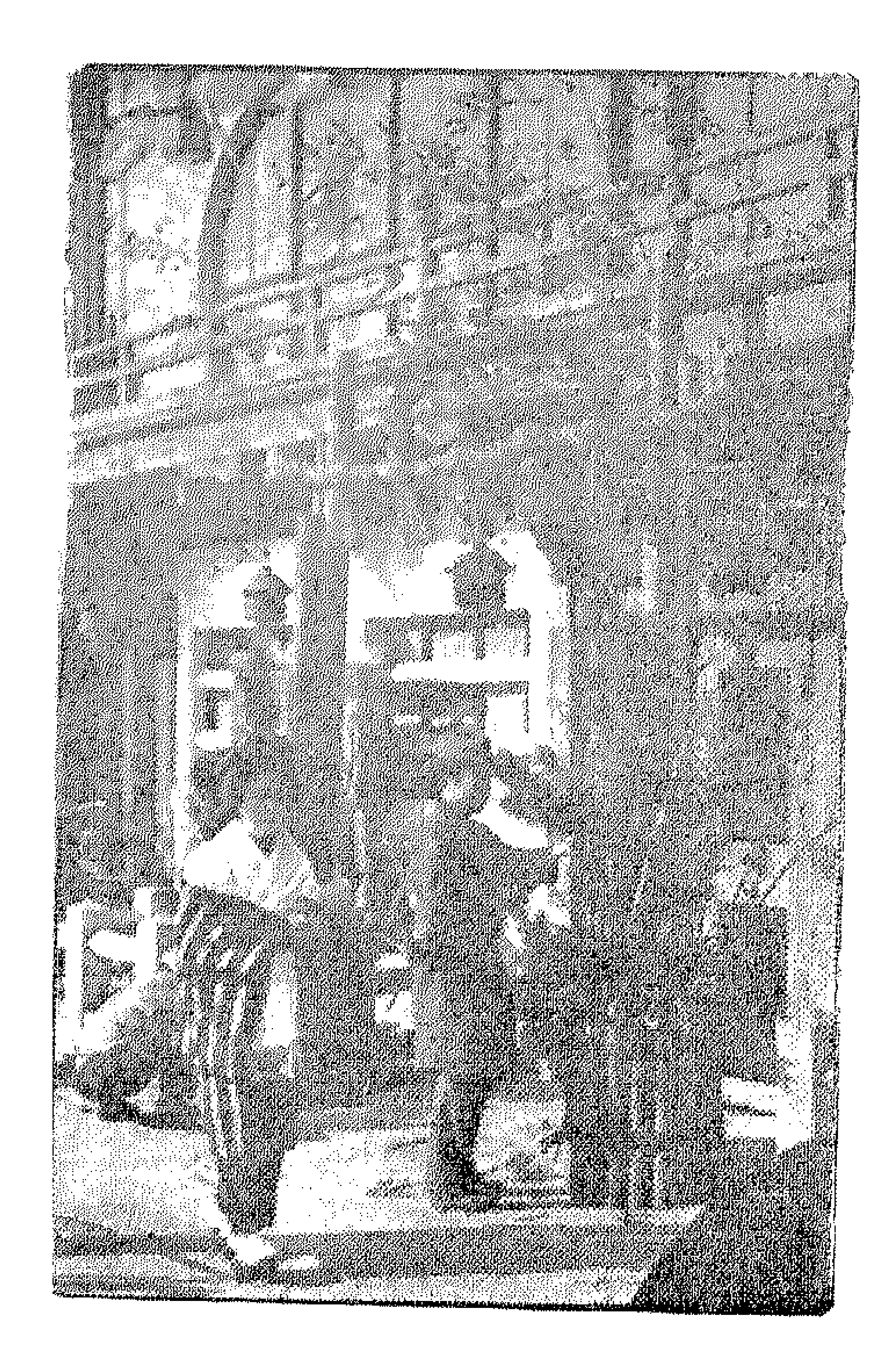
المصابيح الملونة تلقى فى اليم وهى تتلألأ فيذهب بها التيار بعيدا وسط تهليل القوم
مقرها بعد أن تبارك الذرية وتكفل لها السعادة طوال العام وفى غالب البلاد
تضاء مصابيح لاحصر لها فى شكل طيور الماء وتعوم فى اليم الى المصب وسط
تهليل القوم فى الضفاف والزوارق فى مشهد غريب

وأمثال تلك الحفلات يقيمونها فى كثير من المناسبات من بينها : حفلة
رأس السنة القمرية — لأن حسابهم القديم كان وفق التقويم القمرى[1]
فتقام شجرة أمام كل بيت تدخلها الآلهة فى زعمهم فان حسن استقبالها كانت
سنتهم سنة خير و بركة لذلك يقطع الجميع الشجرة المقدسة قبل نهاية السنة

---

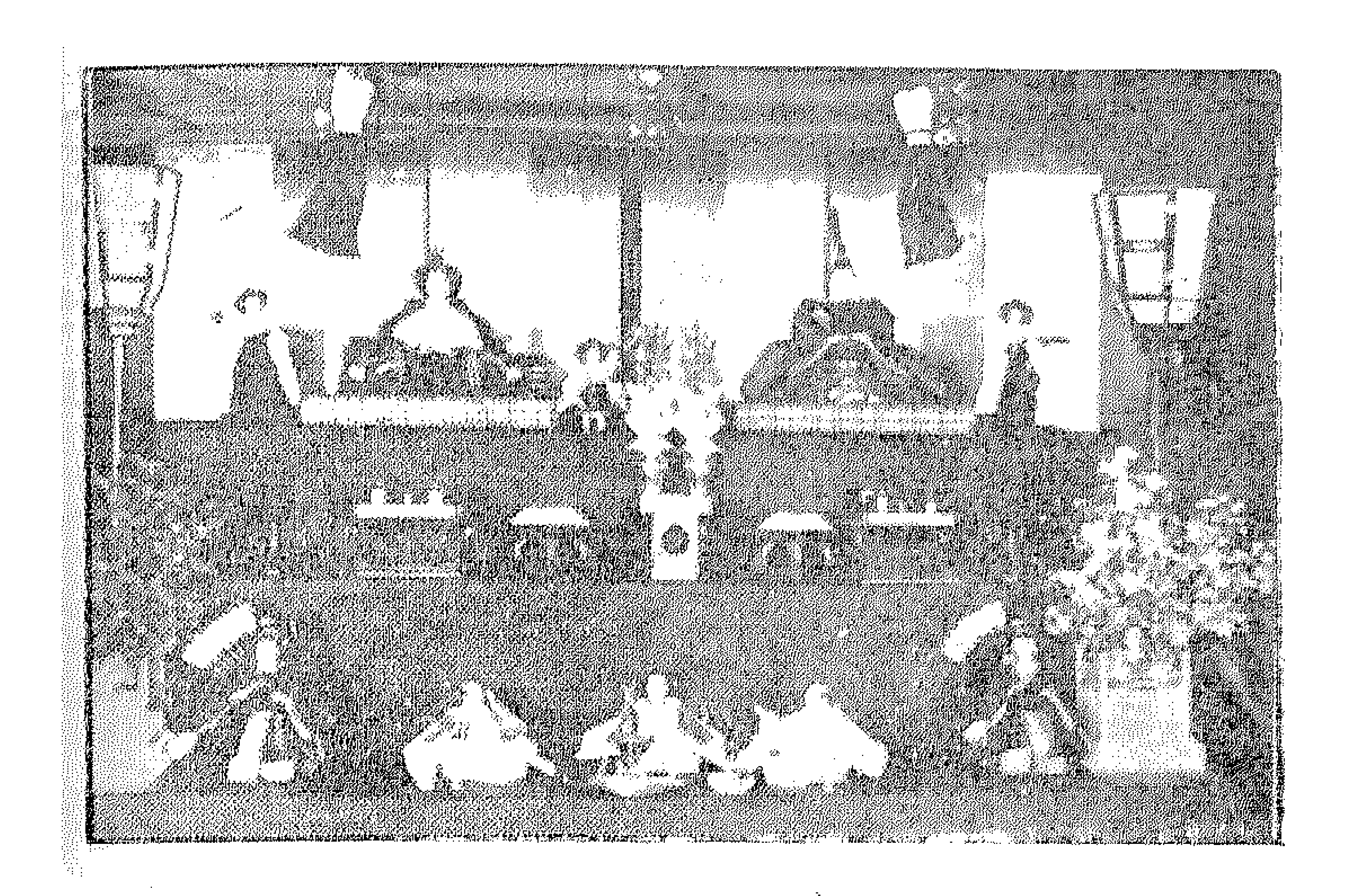
(١) لايزالون يقسمون اليوم إلى ١٢ ساعة مزدوجة يرمز لكل بحيوان
فمن منتصف الليل إلى الثانية صباحا ساعة الفأر تليها ساعة الثور ثم النمر
ثم الأرنب ثم التنين ثم الأفعى ثم الحصان ثم الجمل ثم القرد فالديك فالقنفد
فالثعلب فيقول لك أحدهم سأزورك ساعة الأفعى أى بين العاشرة والثانية
عشرة وهكذا

بأربعة أيام وتغطى بالعشب فى زاوية من البيت ويقدم (الساكى) حولها وفى ليلة رأس السنة تزرع أمام الدار ومنها تصنع عصى الأكل التى تستخدم فى حفلات السنة كلها وبعد أسبوعين تقتلع هذه الأشجار وتحرق خارج المدينة وسط تهليل الجماهير توديعاً للآلهة ، وفى هذا



شجرة رأس السنة أمام الدار

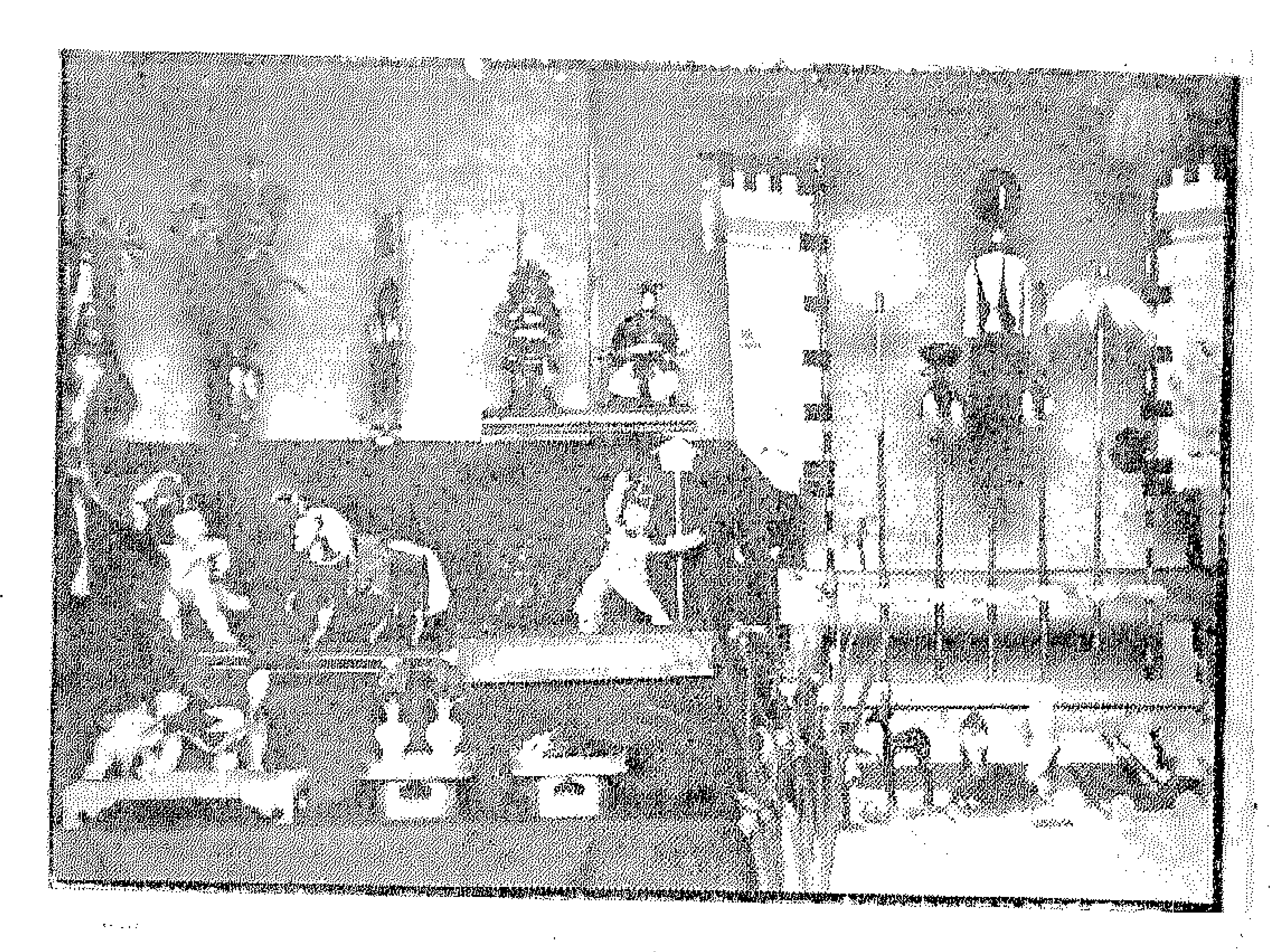
العيد يؤدى كل مدين دينه وإلا فقد شرفه بين الناس لذلك يحاول دفعه فان عجز عرض بعض ما يمتلك للبيع ويحاول اجتذاب المشترين ولذلك تكتظ الاسواق فى الأسبوع الأخير من السنة بالباعة والمشترين لوفاء ديونهم وعجيب أن يُحل بعضهم السرقة لسد دينه لأنه يرى فى عدم الوفاء بعهده جرما أكبر من السرقة ولهذا كانت أغلب الجرائم هناك فى هذين الأسبوعين وأعجب من ذلك أن الدائن لا يأخذ صكا على مدينه بل يقول له : ان لم تدفع فى الميعاد قلت



عيد الفتيات يجتمعن فيه حول الدمى الكثيرة
ويقدمن مختلف الطعام والشراب

الأمر لجيرانك وفى هذه الفضيحة الكبرى

ومن أجمل حفلاتهم : حفلات الأطفال : فحفلة الفتيات (هيناماتسورى) تقيمها كل عائلة عقبت فتيات ويكون ذلك يوم ٣١ مارس وهو موسم أزهار شجر الخوخ ويشترك فيها جميع أوانس الأسرة ولا يشترك فيها الذكور قط فتقوم دميتان كبيرتان تمثلان نبيلا وزوجته ومن حولهما دمى كثيرة تمثل الخدم والاتباع ويلبس الجميع ثياباً فاخرة وتعرض بجانب الدمى سائر أدوات المنزل فى حجم صغير دقيق وبعض تلك يتطلب نفقات باهظة لذلك قامت مصانع لأعداد ذلك وفتيات الجيران يدعون لتناول الطعام فى تلك الآنية الصغيرة والى جانبه شراب مخفف من (السا كى) وبعد ذلك يلعبن ويعزفن ويغنين وقبل بزوغ الفجر تلف كل تلك المعروضات لكى يعد



عيد الصبية وتعرض فيه الحراب والدروع والخيول والاجناد

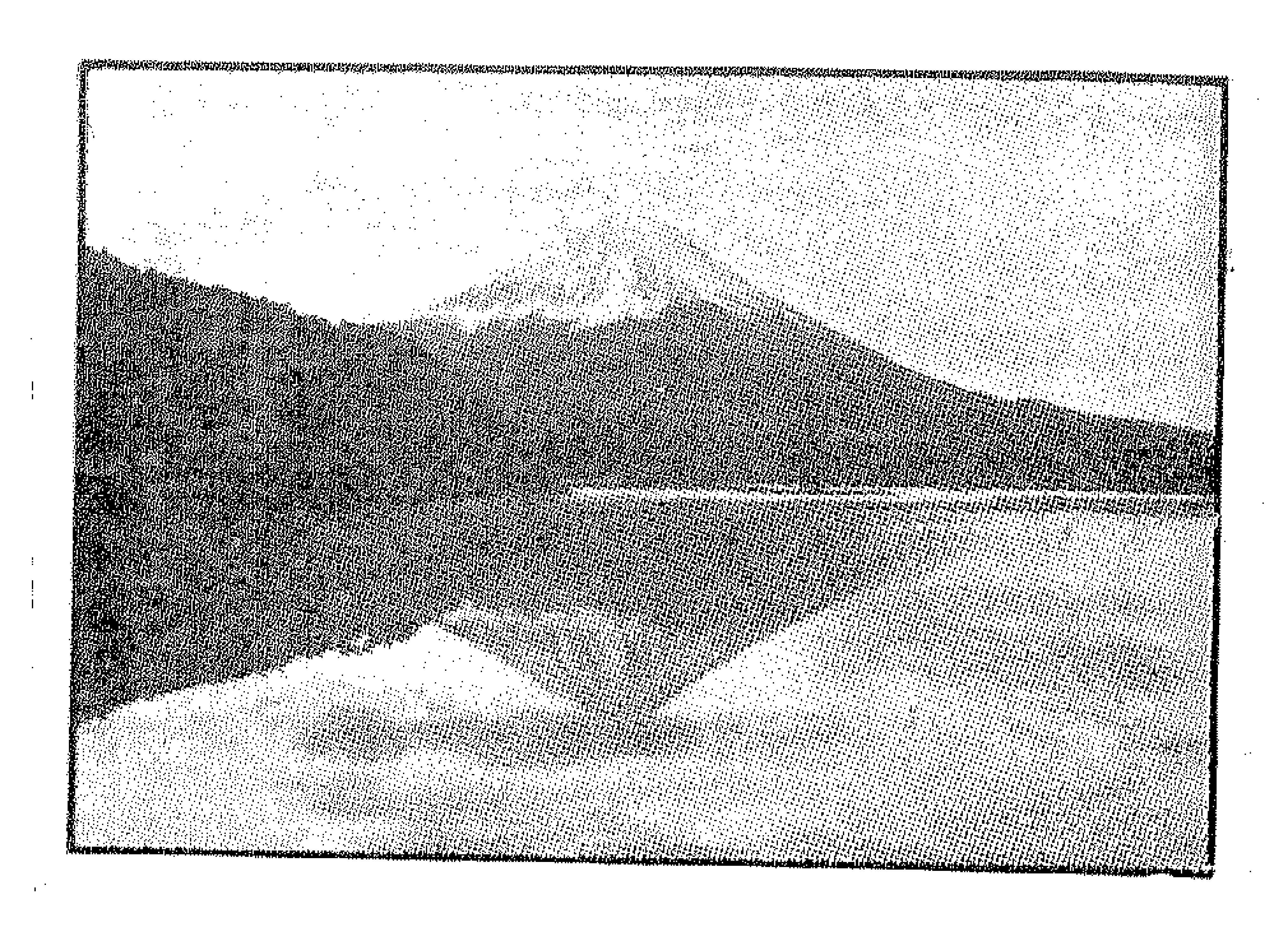
ذلك فألا بزواج الفتاة المبكر ويقولون أن تلك العادة خرافة قديمة نقلت عن تفاؤلهم بالبنات لأنهن بشيرا نتاج الأرض الوفير لذلك كانوا يكلفون البنات بعمل الدمى لتدفن فى الحقول ثم تطورت الى الاعتقاد بأن الدمى تمائم تقى الفتيات الشر ، وكان من عاداتهم القديمة أن تحلق الفتاة يوم الزفاف حاجبيها وتخضب أسنانها باللون الأسود علامة الوفاء لذلك تراهم يمثلون ذلك فى الدمى المعروضة فى هذا العيد

أما الفتيان : فيقيمون لهم حفلة (تانجونوسكو) كل معروضاتها من دروع وحراب وأعلام واردية عسكرية يقدم أمامها الساكى والحلوى ويأكل الاطفال كعك الأرز تكسوه أوراق الشجر وفى هذا العيد يستحم

جميع الأطفال فى ماء ساخن جداً تعطره أوراق شجر خضراء ويقيمون أعمدة تطير فوقها مقاصيص الورق وكأنها الطير أو السمك يسبح فى الهواء

الى ها كونى : قطعنا ٥٢ ميلا إلى ضاحية تسمى ميانوشيتا (أعنى أسفل الجبل) فى مناظر لاتقل سحرا عن مناظر نكو وبها من المقاهى والانزال الشىء الكثير حالت أفخرها على نهر (هايا) وحول النزل كثير من الينابيع التى قد تبلغ حرارة بعضها ٧٥°م يؤمها القوم للاستحمام والاستشفاء ومن هنالك أقلتنى سيارة الى بحيرة ها كونى التى تبعد بنحو ٨ أميال فوق الربى هنالك بدت صفحة من فضة ينعكس عليها (فوجى ياما) أروع مناظر اليابان وأعلاها ذروة وأسماها مكاناً حتى عده الجميع خير الجهات المقدسة قاطبة ويحج أليه الجميع فى مواسم معينة بصابيحهم وقرابينهم ويتسلقون مخروطه القاتم تجلله خطوط الثلج الوضاء وهو أبدا يرتسم على محيا البحيرة حتى فى ضوء القمر لذلك أسماها القوم بحيرة (سا كاسافوجى) أعنى فوجى المزدوج على أن يومنا كان غائما كثيف الضباب غزير الأمطار لذلك أخفى عنا جانباً من روعة المناظر ولم أكد أرى من فوجى إلا قبساً ضئيلا لم يشف غلة فكأنه آلى ألا أن يحرمنى الاستمتاع به كاملا لأنى غريب عن أهله مارق عن مذهبه ، على انى فى عودتى من طوكيو الى أوزا كا كنت أراه بكامل روائه طوال الطريق

عدت الى طوكيو ورغبت فى زيارة بعض دور العلم بمعاونة صديق يابانى هو (المستر يوكو ياما) أقام فى مصر سنتين فى رياسة المعرض اليابانى



مخروط فوجى ياما الرائع ينعكس على صفحة بحيرة هاكونى

وهو كما بدا لى من أحاديثه من المحبين لمصر والمصريين ولا يذكر بلادنا إلا بالخير مما حببنى فيه وقد عاوننى فى ارتياد كثير من نواحى العاصمة وضواحيها ، ولقد كان واسطة التعارف بينى وبين أحد أساتذة الجامعة من الأمريكان ولم يسعدنى الحظ بزيارة المدارس لأنها كانت فى شهور العطلة غير أنى لم أحرم فائدة ماقصه على من أنباء التعليم فى تلك البلاد الناهضة التى نقلت غالب نظمها فى التعليم عن أمريكا ولقد نشط التعليم منذ سنة ١٨٦٩ حين أقسم الامبراطور انه سيعمل على نشر التعليم حتى لاتبقى عائلة جاهلة ولا يبقى عضو أمى من أية عائلة كائنة ما كانت ، ولقد نجحوا فى ذلك حتى لم يبق من الأميين اليوم مايبلغ الواحد فى المائة ، وللطلبة هناك شأنهم فى بلاد الشرق طرا — احترام شديد وتأثيرهم فى الرأى العام كبير وكثيراً مايتدخلون فى شئون الدولة نفسها ، ولهم ملابس خاصة شبيهة بالملابس

العسكرية وتلك نقلت عن ألمانيا وجميع المدارس تحت ادارة حكومية ونظام التعليم هناك ديمقراطى لايفرق بين أبناء الطبقات المختلفة ، ويدرس التلاميذ في المدارس الابتدائية لغتهم وتاريخهم وشطراً كبيراً من علم الأخلاق والكتب موحدة وترمى إلى حثهم على التضحية والولاء للدولة ، والتعليم الابتدائى اجبارى للذكور والاناث ومدته ست سنين ويليه التعليم المتوسط لمدة خمس سنين ويحكى المدارس الثانوية عندنا وهو مجانى هنا أيضاً على أنه غير اجبارى وعند الالتحاق بتلك المدارس يجب على الطالب أداء امتحان مسابقة لأن تلك المدارس لاتسع سوى ١٠ ٪ ممن أتموا التعليم الابتدائى وهنا يبدأ تعليم اللغة الانجليزية ، ويلى التعليم المتوسط التعليم العالى لمدة أربع سنين ومن أراد دخول الجامعة اقتصر فى فرع آخر من المدارس العليا على ثلاث سنين وفى الجامعة يظل ثلاث سنين أو أربعاً . وبذلك لاينتهى الطالب من دراسته الا فى سن السادسة والعشرين على الأقل ، ولعل سبب طول مدة الدراسة هكذا راجع الى أنه يتلقى نوعين من الثقافة اليابانية والغربية وكذلك قد تكون صعوبة اللغة اليابانية من الأسباب فانها تؤخر الطالب نحو ثلاث سنين ، ومن مزايا نظام التعليم فى اليابان انه يقوم على امتحانات المسابقة فالكفاءة هى الشفيع الوحيد فى دخول المدارس وليست الجاه والمال (كما هى الحال فى انجلترا مثلا) والطالب يجهد نفسه فى التحضير لتلك الاختبارات من جهة ولدروسه المدرسية من جهة أخرى مما أثر فى حالته الصحية ، والتدريس هناك يقوم على المحاضرات فى المدارس العليا كلها

وعدد الفرق كبير جداً ودروس الأسبوع ٣٥ مما لم يترك للطالب وقتاً كافياً للاطلاع فاعتمد على المدرس وما يلقنه اياه ، وفقد جانباً كبيراً من قوة الابتكار رغم ما أوتى اليابانى من توقد فى القريحة وفرط فى الذكاء يفوق أقرانه فى سائر الشعوب

ويلفت النظر ما للرأى العام بين الطلبة من الأثر على المدرس فأن لم يرق الطلبة نقدوه علناً وطالبوا بتغييره ويغلب أن يجاب طلبهم ولا يعد المدرس ناجحاً إلا اذا استمال طلبته اليه ولهذا أثره السيء فى تغافلهم عن التعمق فى الدرس وهم يحاولون أن يظهروا بمظهر العلماء وفى هذا مافيه من الغرور الأجوف الذى زاده احترام أهل تلك البلاد للرقى العقلى والثقافة أكثر مما يلاحظ ذلك فى بلاد الغرب التي لاتعطى للمتعلم ذاك الاحترام الكبير لذلك يحاول المتعلمون طلاء أساليبهم فى اغراب كبير وقد يدخلون بعض الكلمات الأجنبية زيادة فى التنميق وحباً فى الظهور ، حدث مرة أن قام وزير يخطب فى دعاية دينية فلما انتهى من كلمته فى لغتها المتكلفة التفت أحد الحاضرين الى جاره وقال : أنا لا أفهم الانجليزية ! كذلك حدث لما زار اينشتين اليابان وحاضرهم فى موضوع النسبية أن كان يستمع له أستاذ الماني وتلميذ له يابانى تلقى عليه الالمانية لمدة نصف عام فلما انتهت المحاضرة قال الطالب لاستاذه أنا أفهم كل شيء بالالمانية ولم تكن بنا حاجة الى هذا المترجم . فقال له استاذه : اذن فانت أقدر مني فى الالمانية لانني لم أفهم من الموضوع إلا القليل

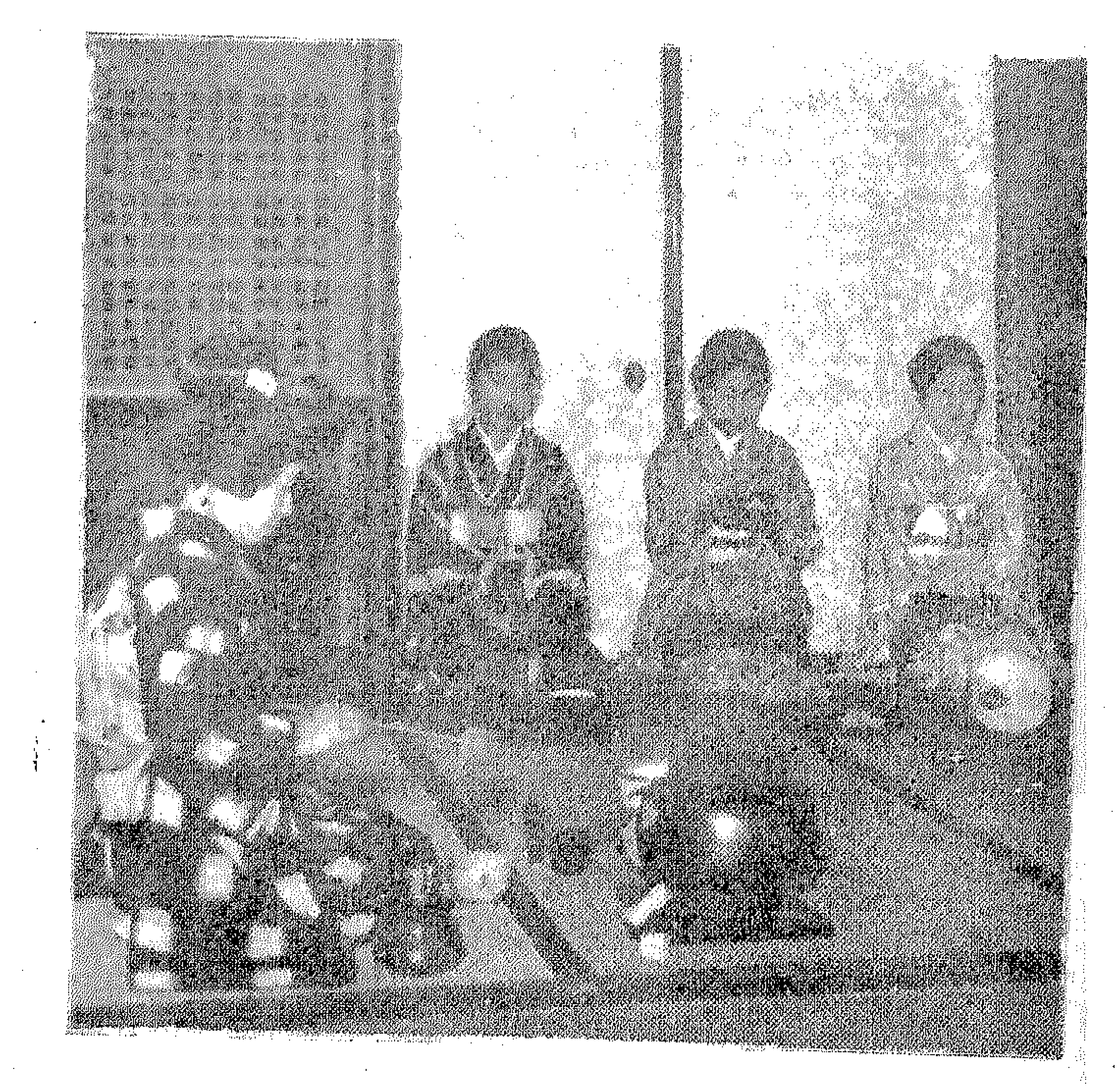
ومنذ عهد ميجى كان غرض التعليم هناك نقل المدنية المادية عن الغرب لحفظ كيان الدولة ولم تعترف اليابان بأن حضارتها ونظامها الاجتماعى دون حضارة الغرب مقاما فكان هم الزعماء الوطنيين الجمع بين الاثنتين رغم مابينهما من تنافر ففى أوروبا يرمى التعليم الى ترقية عقل الفرد وخلقه بصرف النظر عن قومه وعائلته لكن اليابانى خاضع للاسرة وللدولة بحكم نظامه الاجتماعى لذلك كان الغرض من تعليمه خدمة السياسة القومية ومن ثم نجح التعليم هناك فى تخريج طائفة قديرة من رجال الادارة والجند ورجال الصناعة والتجارة والاعمال الماليه و بفضل هؤلاء بلغت البلاد هذا المستوي من الرقى أما النابهون المبرزون العباقرة فيندر وجودهم هناك

على أن التغير بدأ يسود طوائف الطلبة منذ الحرب الكبرى فقد تدفقت عناصر الحضارة الغربية تلك التى قوت روح النقد لتصرفات القدماء وأصبح موقف الشبان هناك شبيها بموقف شباب ايطاليا عهد النهضة حين ثملوا بخمر ما داهمهم من حضارة الغرب خصوصا فى الفن والموسيقى والنظام الاجتماعي والسياسى، فبعد ان كان يلقن الطاعة للآباء والولاء للدولة والخضوع لتعليم الدين الشنتوى أخذ يدرس فى الجامعات الحرية الشخصية والحكومات النيابية مما يثيره على النظم القديمة فتراه اليوم حائرا أى السبيلين يسلك مما أضعف ايمانه فلم يرم لغرض واحد ذلك الذى كان خير كفيل بتقدم اليابان الاخير . وقد أحس بافتقاره لوسائل التسلية التى يتمتع بها نظيره الغربى وكذلك أحس بضيق فسحة الفراغ التى تساعد الاطلاع والبحث

ولا يزال ينقد الاجانب نظام المدارس لكبر الفصول وحداثة عهد المدرسين ذاك الذى لايوجد التعارف الشخصى بين المدرس وطلبته ويزيل التأدب الظاهر ويحل الحب المتبادل والاخلاص محله ولا يزال المدرس الذى يمتزج بالطلبة عرضة للاهانة هناك وقد أخذ الآباء يتهمون النشء بنقص فى الوطنية يبدو جليا فى نفورهم من التجنيد وأوضح ما يظهر ذلك فى كراهية الطلبة للضابط الذى يخصص لتعليم الطلبة النظم العسكرية فى جميع الكليات على أن الفرنسيين عموما والانجليز خصوصا يرون أن نظام التعليم اليابانى على مابه من عيوب أفضل من نظمهم لانه يسوى بين الطبقات جميعها فلا يفضل طالب لجاهه أو ثروته بل لكفاءته مما ساعد الحب المتبادل بين أفراد جميع الطبقات فكان لذلك أثره القومى الجليل

الى كيوتو (ومعناها عاصمة العواصم) : أخذت القطار السريع فوصلتها فى عشر ساعات، اسست سنة ٧٩٤ وظلت عاصمة البلاد الى ١٨٦٩ حين انتقلت الى طوكيو (العاصمة الشرقية) وهى تقع وسط سهل تحوطه الربى من جوانب ثلاثة وقد كانت ولا تزال مقر الحضارة والفنون اليابانية البحة وتكاد تعد خير المدن اليابانية التى لم تمسسها يد التجديد قط فغالب مبانيها خشبية واطئة كسائر القرى اليابانية أثاثها قليل تفاديا من أخطار الزلازل التى يبلغ متوسط هزاتها الشديدة ثلاثا فى كل يوم حتى أثر ذلك على مجارى صرف المياه والأوضار فافسدت رائحة بلادهم وحقولهم حتى اتهمهم الاجانب بضعف حاسة الشم والعجيب أن البحث الطبى أثبت ضعف الشم والسمع

والبصر فى المتوسط هنالك ولعل للمناخ أثراً فى هذا. وحدائق البيوت نسقت على النمط اليابانى . والحديقة اليابانية نموذج مصغر لما يحوطهم من مناظر طبيعية فرغم صغرها توهم بوجود الجبال والبحيرات وقد يخيل للمرء أنه يرى شلالات على بعد رغم عدم وجود المياه وقد يعبر المرء صخرة أو قنطرة صغيرة تشعر بنهر وترى بقاعا مهملة عليها الحصى والرمل كأنه جزء من شاطىء بحر ، وكثيرا ما يقلد البستانى منطقة طبيعية معينة وتقع حدائق البيوت غالبا خلفها تطل عليها الحجرات الهامة لان الحديقة ملجأ العائلة فى سرورها وراحتها وتعبدها ففيها نوع من العزلة والحجاب وقد تكون الحديقة جبلية نقلا عن منحدرات الجبال وقد تكون مبسوطة نقلا عن مرج أو وادى و بحيرات الحديقة يجب أن تشعر ببحر صغير بسواحلها الرملية الخشنة وصخورها المنثورة وسطها ، ولا تخلو الحديقة من العيون الدافقة ولكى توحى بالجمال الطبيعى وجب أن تقام المصابيح من الحجر لتتمشى مع الصخور والاشجار وقد كان الغرض منها الاضاءة واضحت اليوم للزينة ويراعى فى ترتيب الشجر والنبت الاندماج وعدم التماثل مع الجمال الفتان وينتقى نحو أربعة أخماس الشجر من دائم الخضرة أما النفضى فقليل ومن ذوات الالوان التى تشعر بالدفء فى الربيع والخريف ولا تخلو حديقة من شجرتى البرقوق والكريز ذوات الزهور الساحرة أما الشجر المزهر فلا حصر له ولابد أن تبعثر الأشجار المزهرة خلف الدائمة الخضرة لكيلا يخلو الزهر من الخضرة حوله ولكيلا تشعر بعض فصول السنة بشىء من الجدب والجفاف ولا يكاد يخلو الماء من زهر السوسن



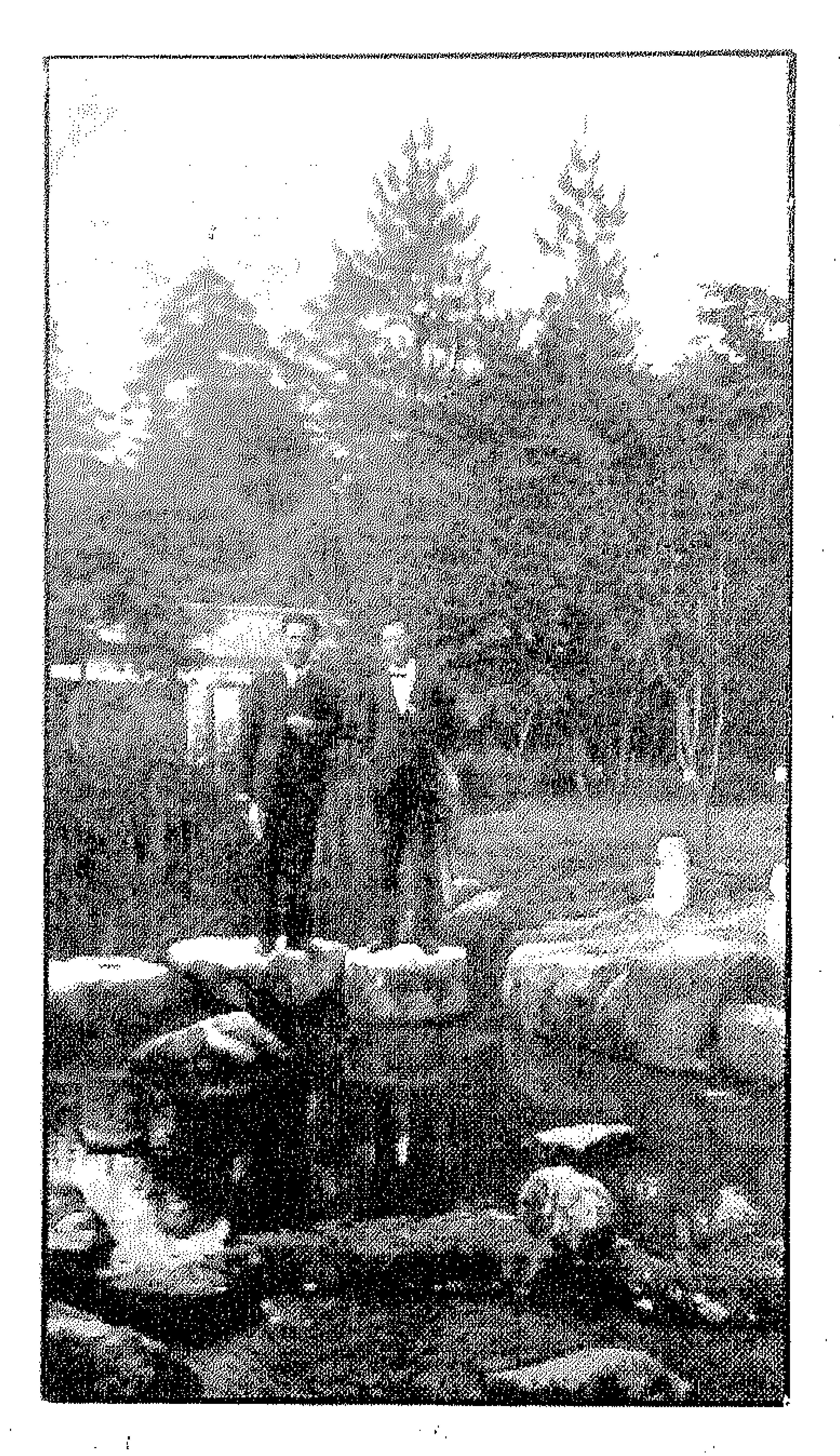
حفلة الشاى المنزلية وما يحوطها من مراسيم

والبنفسج. ذاك نموذج من حدائقهم التى تحكى الطبيعة، زرت بعضها فى الميادين وأخرى فى البيوت . وهناك جاست فى مقصورة الشاى التى يغلب أن تقام فى كل بيت ومن تحتنا الحشيات (الشلت) من الحرير المبرقش البراق وللشاى عندهم غرام عجيب يقدمونه فى أوانيهم الثمينة من الخشب المزركش بالذهب (واللاكيه) والفتيات يقدمن الكؤوس ونحن نقدم لهن كؤوسهن مجاملة وأدبا ويقيمون له حفلات فى مواسم خاصة ويعتقدون أنه من أكبر



الفتيات يقطفن أوراق الشاى الاخضر فى مزارعه الشاسعة فى اليابان

العوامل على تعليم القوم أدب الاجتماع وهو الذى نهض بكثير من صناعاتهم الدقيقة كالتصوير واللاكيه والخزف وتنسيق الحدائق وتنميق الزهور وقد أصبحت أوانى الشاي لديهم من النفائس وقد نقلوا ذلك عن الصين منذ القرن السابع وكان شرب الشاى اذ ذاك قاصرا على القسس ثم انتشر بين الخاصة وكان يشرب مسحوقا كالبن وقيل أن الموسيقى كانت تعزف عند سماع صوته وهو يسحق احتراما له وشاع بينهم أن شربه يطيل العمر وقد كشف الاستاذ سوزوكى سنة ١٩٢٥ أن الشاى الأخضر اليابانى يحتوى على مقدار من الفيتامين (ج) أكبر مما فى الفاكهة والخضر وهو ينشط الاعصاب لذلك يستهلك القوم ثلاثة أرباع ما يزرعون وهو مائة مليون

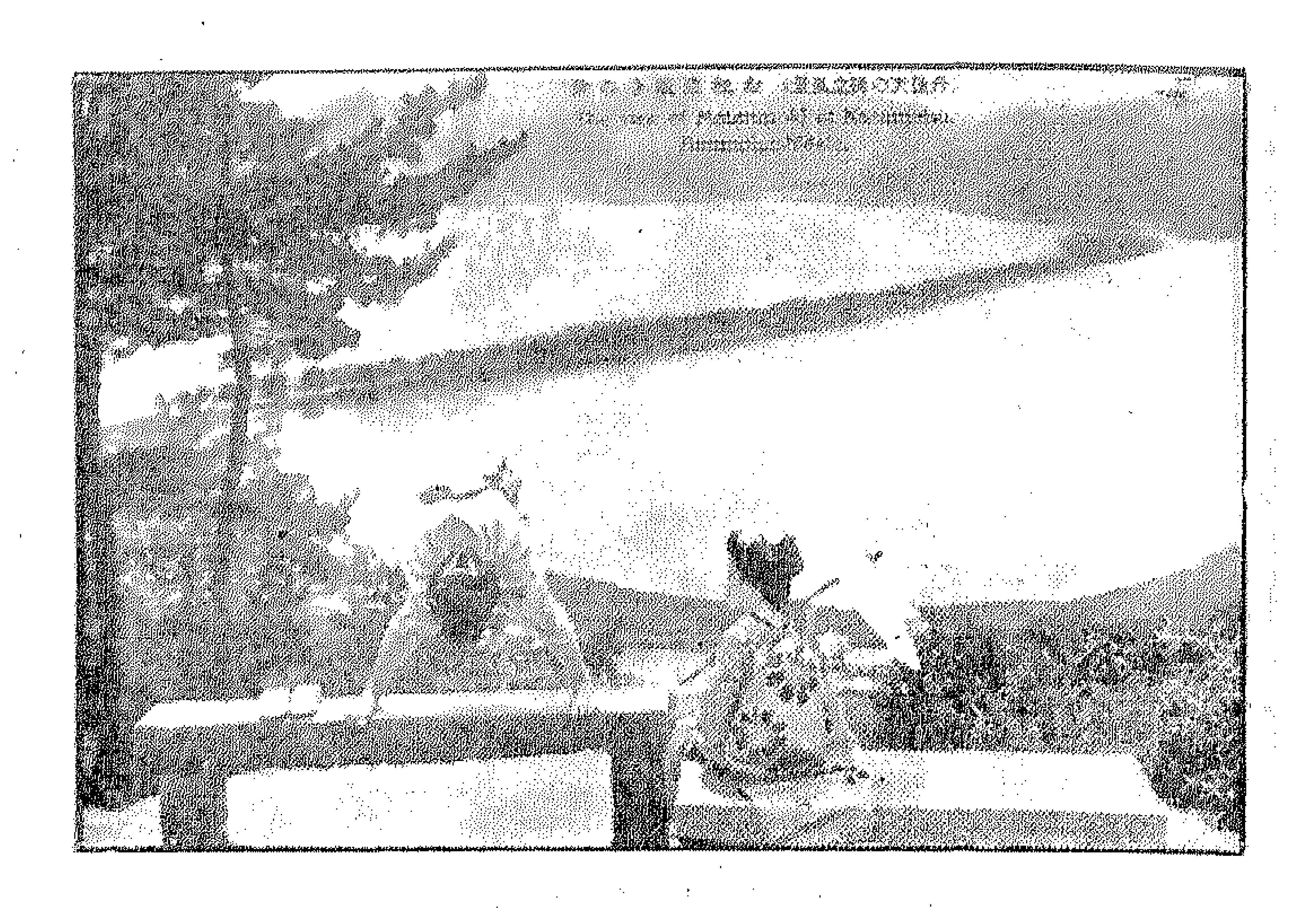


رطل وأول ما نقله الأرو بيون عنهم سنة ١٥٦٥ بواسطة (المايدا) البرتغالى ويقصون أن بعض عظمائهم مد سماطا للشاى بلغ ثلاثة أميال تكسوه الآنية الثمينة الفاخرة وحضره ٣٦٠ من المدعوين فى كيوتو وعن هذا النظام نقله الفرنسيون

ومن المتنزهات ذائعة الصيت فى كيوتو (ماروياما) متنزه ماروياما فى كيوتو وهو مثل من الحدائق اليابانية قضيت فى جناته طويلا ثم عرجت على زيارة معبده الكبير وأعجب ما هنالك نار يقوم الجميع على اشعالها أبداً ومنها يأخذ الناس قبسا فى خيوط يبتاعونها من القسس و يذهبون مسرعين الى بيوتهم لاشعال نار مستهل السنة كى تظل بركة النور المقدس تحل فى البيت وتستطيع أرواح الأجداد

زيارته وبعد أن جبت كثيراً من المعابد عرجت على القصر الامبراطورى بأسواره الممتدة يحوطها الخندق وهنا يتوج الامبراطور الى اليوم فى حفل كبير وبعده دخلت المتحف ولعله أكبر متاحف اليابان لكثرة معروضاته من مخلفات اليابان القديمة على أنها فى نظرى لا تشعر بماض مجيد وقد تناولت العشاء فى فندق يقوم فى بناء فاخر من خمسة طوابق شاهقة ويطل على النهر وكل طابق مقهى أعد على نظام يغاير الذى يليه فى التنسيق وفى نوع الطعام والشراب وفى الألوان والأضواء فتخيرت أعلاها لأن منظر المدينة من دونه بأضوائها الخاطفة ساحر لا أنسى روعته

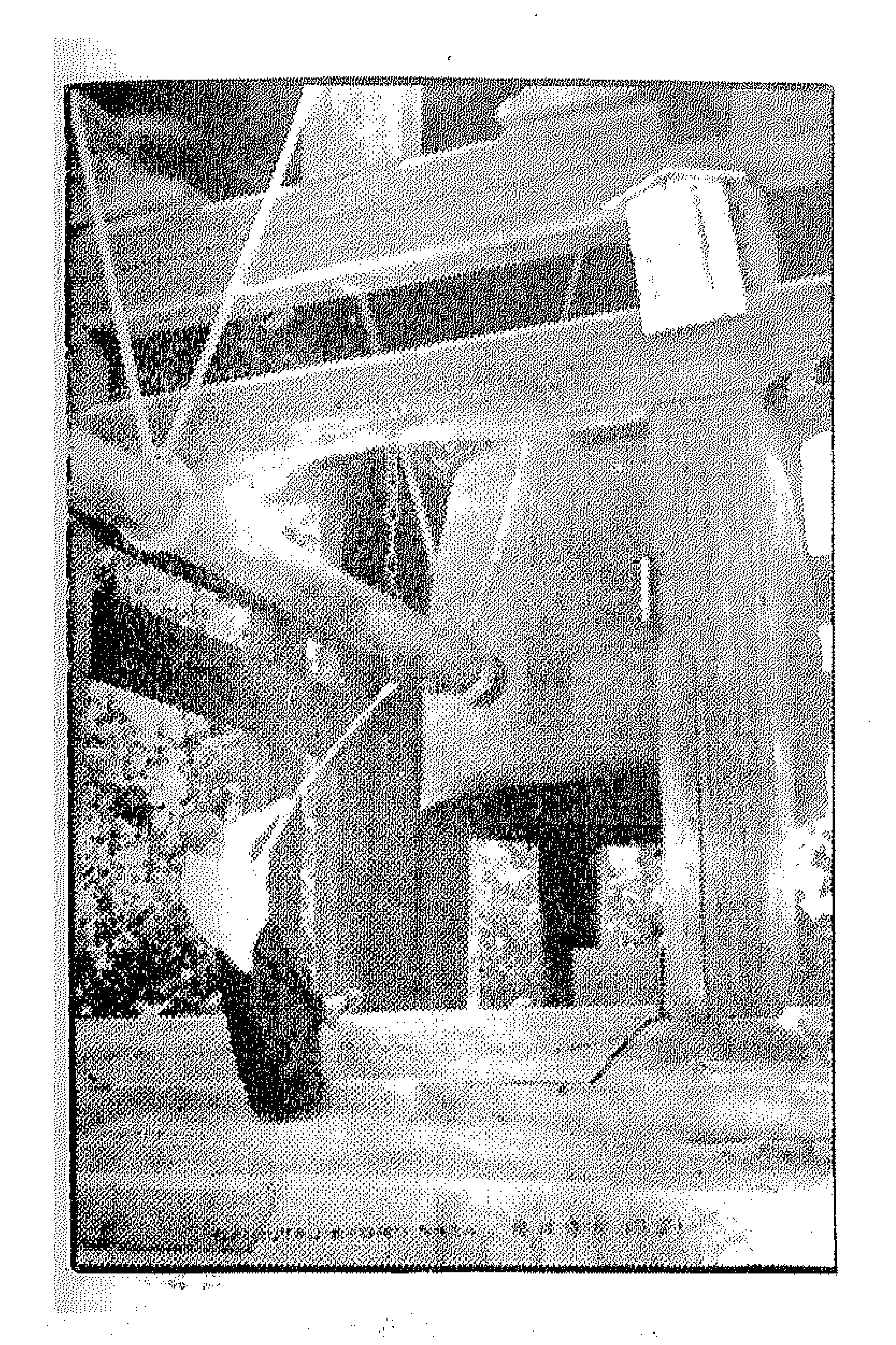
أمانو هاشداتى : (أعنى الجسر السماوى) أحدى آيات الطبيعة الثلاث فى اليابان وهى مياجيما جزيرة المعبد وماتسوشيما أو جزائر الصنوبر وعددها ٩٠٨ تكسوها الأشجار اليابانية وهاشيداتى وهدة تتغلغل فى جوانبها أجوان البحر الشمالى وتنتثر جزائره الصغيرة، وصلتها فى ست ساعات خلال طرق متلوية وفيرة النبت والغدران والشلالات شأن كل أرجاء اليابان وهنا يظهر جلياً أن الطبيعة جادت على اليابان بجمال وتنسيق بخلت به على سائر بلاد الدنيا فكأن اليابان آية ما أبدعته يد الطبيعة فأينما سرت تباغتك الطبيعة بسحرها الخلاب وقد سميت بالجسر السماوى لأن هناك جسراً نحيلا طوله ميلان وعرضه يتراوح بين ٤٠ و ٧٠ مترا يشق الماء وتكسوه أشجار الصنوبر، تسلقت فى أحد طرفيه ربوة بواسطة ترام كهربائى هوائى على قمتها معبد ومن حافة الربوة وقفت كسائر الحجاج وظهرى للماء والجسر وانحنيت



الجسر السماوى وترى الآنسة قد أطلت من بين فخذيها لترى الجسر وكأنه القنطرة

حتى أوشكت رأسى أن تدخل بين فخذى وهنا دهشت لأنى رأيت بركة الماء من دونى وقد انعكس عليها صفاء السماء فبدت هى سماء لألاءة والجسر كأنه القنطرة النحيلة قد بدت فوق لجتها

الى نارا : وهى إحدى العواصم القديمة التى ظلت زهاء ثلاثة أرباع القرن حاضرة اليابان قبيل كيوتو ، بدت على كبرها كأنها متنزه واحد وسط غابة ممدودة تتخللها المساكن والمعابد والمقاهى يؤمها الحجاج فى زرافات وتراهم منكبين على تناول المرطبات وبخاصة (الثلج المبشور) فى غير طعام ولا شراب ويظهر أنه أحب المرطبات لديهم لأنى كنت ألاحظه أينما حللت



أكبر نواقيس اليابان يدقه المتعبد أيقاظا للآلهة

ويليه أيسوكوريتو (جيلاتى) الذى يلتهمه الجميع بشره زائد ولعل شهرة نارا اليوم فى معابدها وأجلها : تمثال بودا النحاسى وهو أكبر تماثيل اليابان طراً وأن أعوزه الجمال والفن عن تمثال (كاما كورا) يعلو فى الجو ٥٣½ قدما ويزن خمسمائة طن وفى معبد آخر ناقوس ضخم زنته أربعون طنا وهو أكبر نواقيس اليابان يدقه المتعبد ساعة أن يلقى نقوده أو قرابينه للآلهة ليوقظها فترعاه وتكلأه ولصوته المزعج الرهيب دوى تردده الربى طويلا وأبنية المعابد كلها من خشب ضخم تكسوها السقوف المتحدرة تتقوس أطرافها إلى السماء دفعاً لغوائل الجن وترى آثار بودا الذى يوصى بالرفق بالحيوان جلية فى كثرة الحمام الأليف يبتاع له القوم الحب المقدس فيتهافت الطير علينا

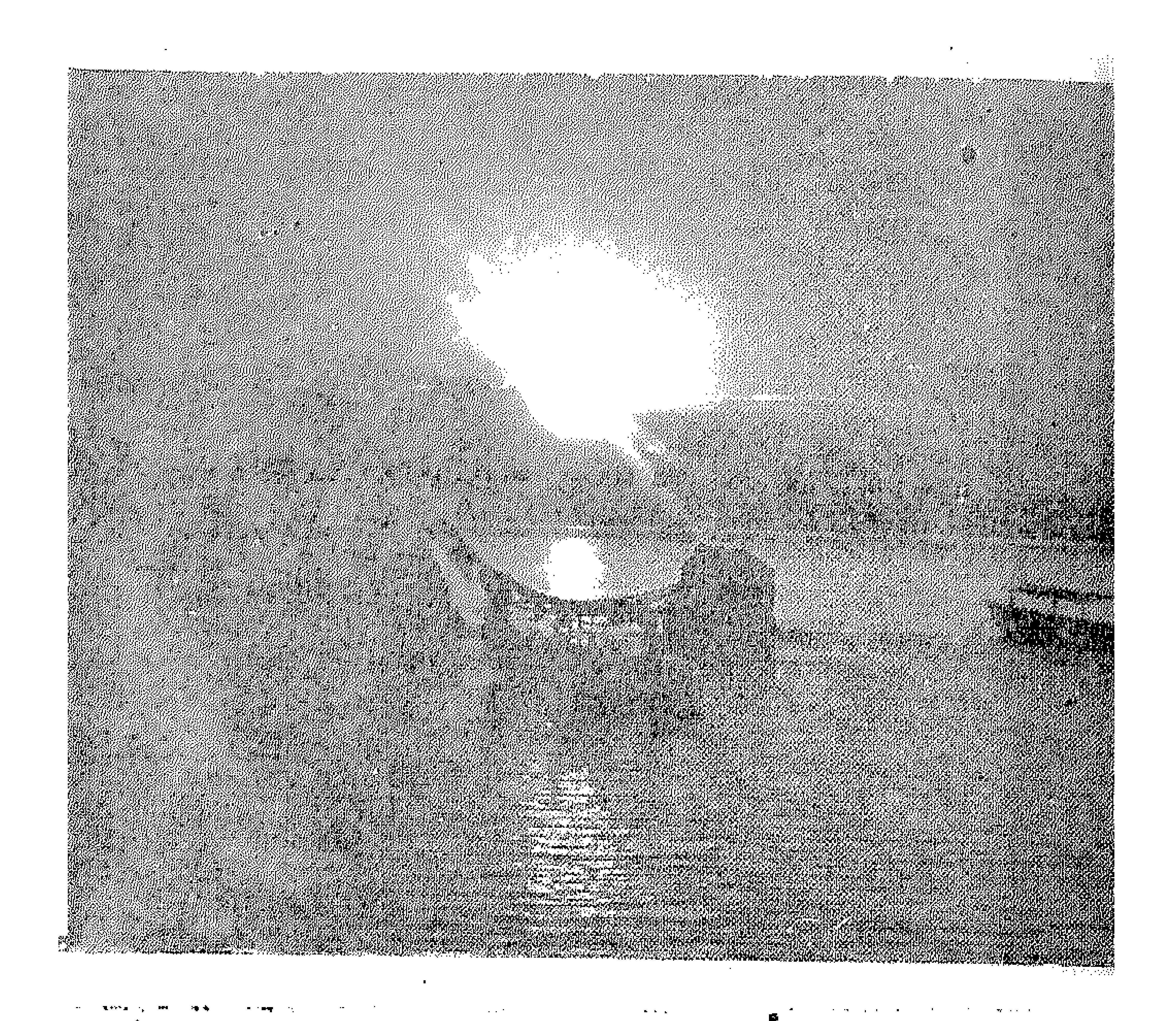


الغزلان المقدسة تأكل أقراص البازلاء من أيدينا

فى زرافات تختطف ما بأيدينا منه وما بأفواهنا وجيوبنا فى ألفة عجيبة وكذلك أسراب الظباء المقدسة التى تمرح فى أرجاء الغابة كلها نبتاع من أجلها أقراصاً من خبز (البازلاء) المقدد فتلتف حولنا وتلتهم الخبز من أيدينا فى هدوء واطمئنان وعند الأصيل يضرب الرجل بناعورته فتفد اليه من أقاصى الغابة ليطعمها ثم يقودها الى حيث تنام ومجموعها اليوم سبعمائة وفى شهر اكتوبر من كل عام تقص قرونها كيلا يؤذى بعضها البعض وفى

أقاصيصهم أن أحد الآلهة أتى هذا المكان يمتطى ظبياً ليتعبد فى معبد نارا الكبير ودعا اليه الإلاهين جاءاه على متون الغزلان فأصبحت الغزلان لذلك مقدسة الى اليوم

الى يمادا ايسى : وصلتها فى أربع ساعات وهى مقر دينى ومتنزه بديع وفى طريقى اليها عرجت على قرية (توبا) وبها صخرة فرتامى اورا المقدسة وهى من حجرين وسط الماء تشرق الشمس من بينهما فى مشهد جميل ويحج الناس اليها لزعمهم ان إحدى الآلهة جلست فوقها وكانت تستقبل شمس الصباح لذلك تعلوها بوابة صغيرة مقدسة وفى يامادا زرنا معبدين رائعين يعتقد القوم أن ارواح البراطرة تحل فيها لذلك ترى العناية بهما فائقة فى النظافة والتنسيق ولا بد من هدمهما واعادة تجديدهما كل عشرين عاماً وفى المداخل كلها يقف ضباط البوليس فى خشوع كأنهم يصدعون بأمر أرواح البراطرة والامبراطور نفسه والأمراء يزورون المكان لابلاغ وحى أجدادهم كل أمر جل أو صغر فعند ما ولدت للامبراطور بنته الأخيرة ذهب فأبلغ الأمر لروح أجداده كذلك لما عاد أخ الامبراطور تاكاماتسنو وزوجته من رحلتهما حول العالم ذهبا تواً الى المعبد وأعلنا الأجداد بحضورهما والمعابد هناك كلها شنتوية لذلك خلت من التماثيل فليس بها سوى البوابات الفخمة فى غير تقوس (كما هى حال البودية) والمقاصير العديدة التى تكاد تخلو من الأثاث وفى الهيكل يتدلى ستار أبيض من خلفه مرآة تمثل روح الله ويسجد القوم أمامها فى خشوع ولا تكشف المرآة إلا ثلاث مرات فى العام



صخرتا فوتامى أورا المقدستان تشرق الشمس من بينهما

فى مناسبات دينية كبيرة و يكثر أن يعلق القوم حول المعابد قصاصات من ورق وقيل أن السبب اتفاق كلمة ورق باليابانية مع اسم للآلهة وطالما كنت أرى دمية من قش دقتها الى شجرة المعبد زوجة هجرها زوجها وهى تعتقد أنها كلما أكثرت من دق المسامير فيها انقصت الآلهة من عمر زوجها الخائن وهى تعد المعبد أن تقتلع كل ذلك بعد موت زوجها لأن فى بقائها جرحا للشجرة المقدسة ومضايقة للآلهة وأمثال تلك الخرافات تعزى إلى قسوة عوامل الطبيعة تلك التى توحى بالأوهام وخشية القوى الخفية والجن ، ولذلك كثر السحرة والعرافون بينهم على أن الطبيعة رغم ذلك هدأت طباعهم بجمالها

الفتان، فعقائد اليابانيين كانت تبدو فى نظرى ساذجة بسيطة مبناها الخرافات التى يتمسك بها القوم جميعاً فى عصبية لاتتفق وتقدمهم العصرى المدهش وكنت كلما ناقشتهم لم يستطيعوا الاقناع بل أحالوا الأمر الى تقاليدهم التى يجب عليهم تقديسها . وكان البوديون وهم عامة الشعب يقولون بأن بودا هو الله كان إنساناً فى الأرض ثم صفت نفسه وصعد الى السماء وهم يؤمنون بالبعث والجنة والجحيم على عكس الشنتويين الذين يمثلون الطبقة الممتازة فهم يرون أن الموت النهاية الطبيعية للحياة لا بعث بعدها ويعتقدون أن الله روح عليا فى سماء اليابان فحسب وأفراد الديانتين يقدسون الأجداد ويرون أن أجداد الامبراطور من سلالة الآلهة، ولست أعرف فى العالم المتحضر اليوم ديانة تسود أذهان ذويها فى العقيدة والقومية معاً وتوحد بين الروح الدينى والزمنى مثل الدين اليهودى لذلك شهر أهله بالتعصب فشتتوا وبغضهم الجميع ولعل اليابانيين اليوم كذلك فالدين الشنتوى لديهم هو رباط الوطنية غالب الزمن والمبشرين جميعا وظل كما هو فهو ليس عقيدة فحسب بل رباط قومى قوى يؤثر على اليابانى فى جميع نواحيه وهو فى لبابه عبادة الطبيعة ورغم أنك لاترى مظهراً للتعصب فان العقيدة راسخة دعمت قوميتهم مذ كانت أساس الطاعة والوطنية وملتقى فضائلهم من الشجاعة والتأدب وشرف النفس فروح الشنتوية التقوى والطاعة البنوية وتضحية النفس فى سبيل المبدأ فى غير تردد ولا مناقشة فقد أضحى الدين حافزا خلقيا متوارثاً وهو من أكبر العوامل فى التوحيد بين الناس والتأليف بين قلوبهم فليس فيه



ما يدعو للجدل والنزاع كما نرى بين مذاهب الديانات الأخرى والشنتوية لا تعتمد على عقيدة معينة ولا كتاب مقدس ولا معبود خاص ولا شعائر محددة حتى ولا رجاء فى الآخرة لذلك لم تقع بينهـم حروب دينية قط وأخص ما ترمى اليه الشنتوية عبادة الطبيعة واحترام الموتى والآباء وهنا

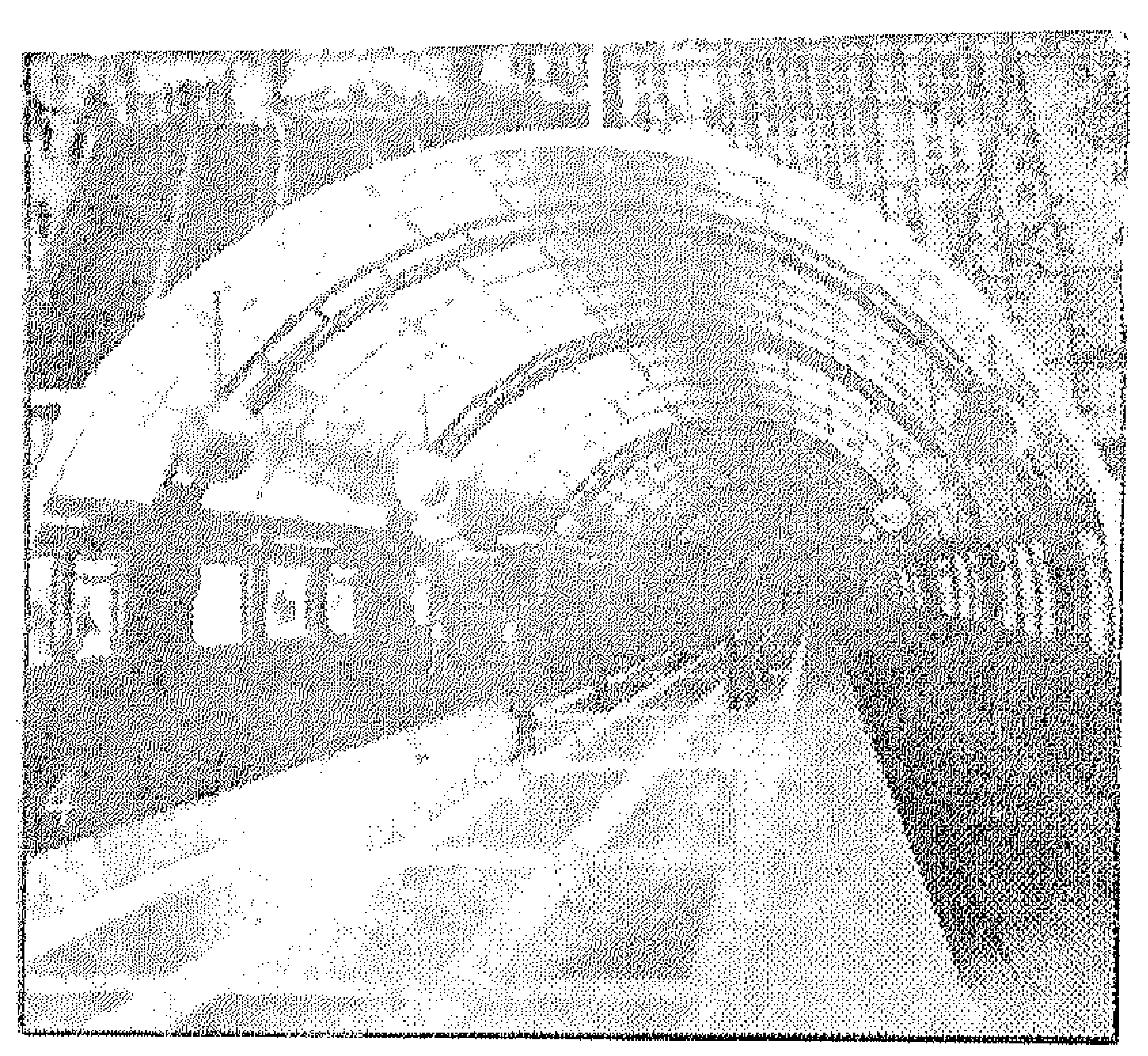
اليابانيون شديدو التمسك بدينهم لـكنهم بعيدون عن التعصب والكل يركع أمام المعبد حتى الاطفال

سر اخلاصهم لبلادهم

فالطبيعة هناك جديرة بالعبادة فى اختلاف مناخها ومناظرها الساحرة وثمارها الوافرة لذلك أقيمت البوابات المقدسة حيثما تفيض الطبيعة بروعتها ولوأن فى البلاد كثيراً من البوديين إلا أنهم لم ينزعوا من قلوبهم الشنتوية مذ عرف الجميع معناها فى الوطنية والاخلاص لبلادهم لذلك لايقوم خصام

بين الشنتوية والبودية فترى المعبدين متجاورين وقد يكون القسيس مشتركا بين المعبدين وكل القواعد التى شذ فيها الدين البودى عن الشنتوى مهملة غير مرعية من الجميع فالبودية تعاون على نشر روح التشاؤم ورغم ذلك فانك ترى التفاؤل والانتعاش النفسى هو السائد بين الشعوب اليابانية على عكس أهل الصين — ويحض بودا على السلام والوئام والدعة لكنك ترى اليابانى من أشد المحاربين مراساً فالبودية عندهم سطحية رغم ما يبدو من إسراف فى تشييد معابدها وكثيراً ما كنت أرى الرجل الواحد يؤدى الصلاة بالركوع فى معبدين متجاورين أحدهما شنتوى والآخر بودى.

وإذا مات أحدهم أقبل أصحاب الفقيد يقدمون بعض الهدايا من كعك ونقود وطعام وزهور وفى اليوم التالى يحضر القسيس ويضع الجثة فى حوض تحفه الزهور العبقة ثم تلف فى قماش أبيض ثم يحمله قوم فى أردية بيضاء يتقدمهم بعض المرتلين ومن ورائهم المشيعون وإذا ماوصلوا المعبد وضعت الجثة على المحراب وقرأ القوم بعض الآيات وأخذ المشيعون أمامها فرادي وهم يركعون ويلقون ببعض البخور فى كور متقد ثم توضع الجثة فى التنور حتى تصير رماداً تحت مراقبة المشيعين وهم خلال ذلك يأكلون ويشربون ويتحادثون عن فضائل الفقيد وكلما تم الاحتراق عاجلا كان ذلك مدعاة للتهنئة ، منظر رائع لامحالة لكننا اذا علمنا أن عقيدة اليابانى فى الموت أنه النهاية الطبيعية للحياة لا يعقبها ثواب ولا عقاب زال العجب وكثير منهم يحمل ما تخلف من رماد فى زجاجة تدفن فى مدافن



الأسرة ويقام عليها شاخص باسمه وقد تدفن الجثة بغير حرق واذا كانت المتوفاة آنسة قص شعرها وحفظ فى البيت تذكاراً لذويها

الى أوزاكا

قمنا بقطار الكهرباء ذاك الذى يكاد

(سكة حديد الكهرباء التى تسير تحت الأرض فى اوزاكا)

يشق جميع بلاد اليابان مما يدل على أنهم استغلوا منحدرات مياههم الكثيرة استغلالا جعلهم فى مقدمة بلاد الدنيا استفادة بالكهرباء وترى غالب الخطوط الحديدية مزدوجة بين أمهات المدن ، سكة البخار الى جوار سكة الكهرباء أما بلاد الريف فيغلب أن تتصل بالسكة الكهربائية

ويلفت نظر السائح هناك أن كثيراً من القاطرات خصوصا الريفية ذات مقاعد جانبية يجلس عليها القوم القرفصاء يواجه بعضهم بعضا لأنهم يكرهون الجلسة وأرجلهم مدلاة الى الأرض مثلنا ويقال أن السبب قصر قاماتهم التي تجعل أرجلهم معلقة مما يؤلمهم كثيراً

دخلنا أوزاكا فى أقل من ساعة فبدت غاصة بالحركة مكتظة بالسكان لأنها أغنى المناطق الصناعية وبخاصة فى النسيج حتى أطلقوا عليها اسم

منشستر اليابان وهى أكثف المدن سكانا لذلك لاتروق السائح كثيراً وأجمل مسالكها شارع (دوتومبرى) التجاري قليل الاتساع عظيم الامتداد أضواؤه فى الليل تبهر النظر بأشكالها اليابانية المكورة عديدة الألوان تتخللها الاعلانات والاسماء باللغة اليابانية فى حجم كبير وسيل الجماهير يثير الدهشة فهو لايكاد يسمح بالمرور إلا والاكتاف متلاصقة وأجمل ما بدا منظر ذاك السيل الآدمى من قنطرة نهر أوزاكا التى تشرف على الشارع من وسطه وترى زوارق الرياضة فى النهر وقد علقت بها مصابيح النور الملون الى مد البصر ، ويتقاطع مع ذلك الشارع آخر للملاهى والمراقص فى أضوائه الخاطفة وزخرفه وأثاثه اليابانى العجيب ، آويت ليلتى الى نزل يابانى صميم وما أن حللت بهو النزل حتى رأيت حواجز الخشب والورق تزلق من حولى وفى لحظة حُصرت فى غرفة ضيقه وأحاطنى القوم بأدبهم الجم وكرمهم المعروف وبعد أن قدموا الى شاى الاستقبال والقطيلة (الفوطة) المعقمة عرضوا على الحمام فرفضته — ولايلدغ المؤمن من جحر مرتين — ثم أقبل رب النزل يسألنى أتريد : جيشات ؟ وتلك طبقة من السميرات المحترفات لها مدارس خاصة فى سائر بلاد اليابان فيها يتعلم الفتيات وسائل السمر وأيناس الأضياف بما فى ذلك الغناء والعزف على الشماسين والكوتو ولا يخلو منهن مجلس قط ويحتقر اليابانيون جميع الأوربيين الذين يصادقون الفتيات ويغازلونهن على قارعة الطريق ، وحقاً لم ألاحظ شيئاً من هذا فى الطريق قط رغم اختلاط الجنسين عكس ما كنت ألاحظه فى جميع بلاد أوربا إذ ليس للشبان

هناك من عمل يقتلون به فراغهم سوى المغازلة للفتيات على قارعة الطريق أما اليابانيون ففى ظنهم أن الرجال أكبر مقاما من النساء لذلك لا يصح التريض معهن على قدم المساواه وهم لا يرون رأى الأوروبيين فى أن الجنس اللطيف حياة المجالس وروحها لذلك كثيرا ما كنت أرى جماعات النساء يقصدن الى الرياضة فى غير صحبة الرجال أما الرجال فيغلب فى رحلاتهم أن يستحضروا الجيشات السميرات وكثيرا ما ترى حلقة من الرجال يجلسون القرفصاء إلى جانب غدير أو شجرة مزهرة يشربون الساكى وفى وسطهم السميرة ترقص لهم وتغنى وترى بعض المارة ينضم اليهم ويندر أن يخاصرها فى الرقص رجل لأنهم يستنكرون رقص النساء مع الرجال على النظام الأوروبى وفى الحفلات والولائم لا بد من وجود الجيشات وأجورهن غالية بين جنيه وثلاثة جنيهات فى اليوم وكلما أقيم معرض أو انعقد مجلس فى احدى المدن الكبرى كثر الطلب عليهن جدا ومن بينهن الممتازات باسمائهن مثل (كوهاروسان ، رين جوسان) وكلما علا صيتهن دل ذلك على زيادة فى إكرام الضيف ويقدم الأشراف لأمثال هؤلاء هدايا قيمة من ذلك ماسة قيمتها ٨٥٠ جنيه قدمها نبيل للجيشا (ساكا كوسان) فامتدحت الجرائد كلها تلك السميرة وأطرت المدرسة التى أنجبت مثل هذه الجيشا التى أصبحت من الشخصيات الممتازة فى طوكيو، وفى الولائم الرسمية يجلس الجيشات أمام الجمع ركعا ويملأن أكواب الساكى كلما فرغت وبين آونة وأخرى يلعبن دورا موسيقيا وبعد نهاية الطعام يقمن بألعاب بسيطة مع الرجال أما فى الحفلات



أحدى السميرات وهى ترقص على الطريقة اليابانية

الخاصة العائلية فيرفع التكليف ويمتزج الجميع امتزاجاً تاماً . ويجب على الضيف أن يملأ كأسه بيده بين حين وآخر ويقدمه للجيشا وتظل شاخصة أمامه حتى يفعل ذلك وكثيرا مايغفل الضيفان ذلك فيظل الفتيات مكانهن فى مضايقة شديدة ويرمى الضيف عندئذ بقلة الذوق ، وعلى الضيف أن يأتى على زجاجة الساكى بأكملها كى تملأ ثانية وإلا عد ذلك شؤما على المكان . وليس لأحد أن يطيل النظر للسميرة التى تجانب زملاءه إذ يجب أن يلاطف

السميرة الخاصة به
ويغلب أن تكون
أشهر الجميع لأن
أدبهم يقضي بأن يخص
الضيف بأكبر المزايا
على أنه لا يشترط أن
تكون أشهر السميرات
أجملهن وجهاً بل
أذكاهن وأقدرهن على
التسلية ولا يكاد يخلو
مطعم أو مقهى من
الجيشات وأكثر ما
يعنون به من التزين

مثل من الجيشات سميرات اليابان

الملابس (الكيمونو) وتنظيم الشعر وطلاء الوجه بالمحسنات البيضاء أما الحلى من أقراط وعقود وسوار وخواتيم فلا تجد من ذوقهن قبولا . ورشاقة الفتيات بالغة رغم ما يعوزهن من جمال مذ لا تزيد نسبة الجميلات على خمس فتيات اليابان جميعا فى سن النضارة وهى ما بين الثالثة عشرة ، التاسعة عشرة وبعدها يبدو الهرم عليهن عاجلا (كالمصريات والايطاليات وسائر فتيات البلاد التى يقصر فيها أمد

الشفق أذ لوحظ أن جمال السيدات يظل طويلا كلما طال زمن الشفق)

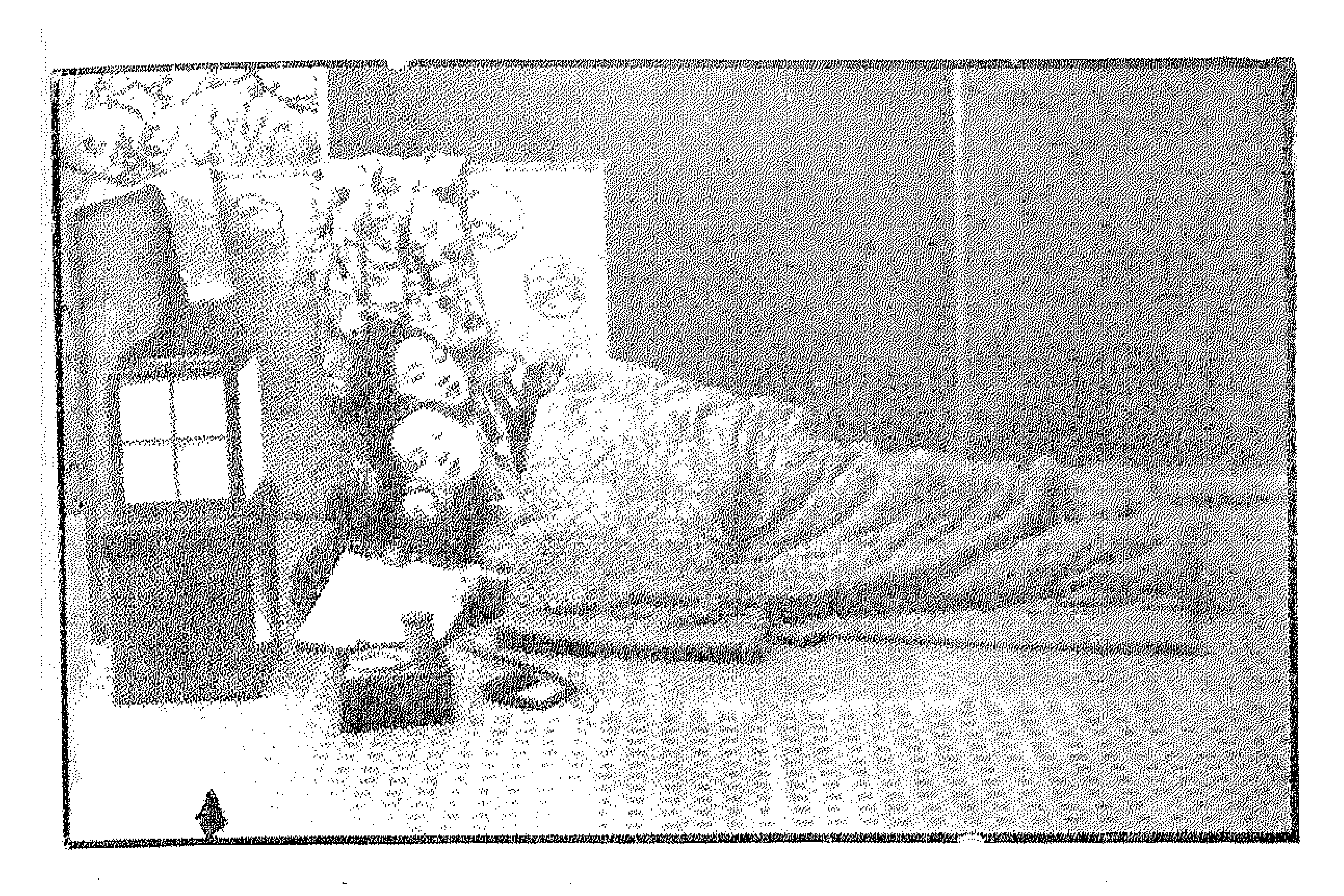
وأمر النساء فى اليابان يثير الدهشة والنقد من عدة وجوه فأنهم يبيحون للفتيات مادمن غير متزوجات كامل الحرية فى التريض والمصادقة وقد ناقشت بعضهم فكان منطقه أن العزوبة أمر غير طبيعى فأن لم يكن للفتاة زوج فخليل وهم لايعتدون بالبكارة والعرض اعتدادنا به فى الفتيات على أنها اذا تزوجت أصبحت مثال الوفاء لزوجها ، والعجب أنها لا يصح لها أن تظهر الغيرة على زوجها من غيرها وكثيراً ما تخاطب زوجها عند أوبته من رحلته قائلة: أرجو أن تكون قد استمتعت بليلتك الفائتة ، فيقص عليها نبأ ما كان يحوطه من فتيات وحيشات وصويحبات سرين عنه كثيراً

وأعجب من ذلك وانكى أنهم يحترمون العاهرة احترامهم للزوجة فالأب هو الذى يتخير لها الزوج كما أنه هو الذى يدفع بنته إلى الدعارة أن أعوزه المال لأن فى عوزه هـذا هدما للعائلة ويجب تلافيه وألا انهار ركن قومى يؤثر على كيان الدولة والوطن وهم يطلقون على العاهرة اسم (أوجوروسان) أى العاهرة العظيمة ، حدث مرة أن اقترض نجار خمسين جنيها من دار جيشات مقابل ارتهان بنته الجميلة فى سن الحادية عشرة لمدة خمس سنين بعدها يدفع الدين ويتسلم الفتاة فأصبحت تلك الفتاة من كبريات الجيشات فا كبرها الجميع . واذا احتاج الرجل المال وكانت بنته كبيرة فوق السابعة عشرة دفع بها الى بيت الدعارة فان هربت ساعده البوليس على ارجاعها الى بيت الدعارة حتى يتم سداد دينه لأنها ملزمة بذلك قانونا مذ قبلت الدين عن والدها !

تصرف نراه همجيا وحشياً لكنهم يبررونه بأن واجب الابناء طاعة الآباء والعمل على انقاذهم من الشدائد لأن فى ذلك معنى الاخلاص للأسرة وللدولة التى يضحى فى سبيلها كل شيء ، ويتهافت الشبان على الزواج من أمثال أولئكن اكباراً لهن وتفاخرا بهن ! منطق لاتسيغه عقولنا البتة .

أضف إلى ذلك أن من أخص وسائل اكرام الضيف أن يقدم المضيف السميرات لضيفه وهل هذا فى زعمهم ألا واجب طبيعى ! وقد كانت العادة فيما مضى أن يبالغ المضيف فى إكرام ضيفه فيقدم له زوجته ولا خطر هناك من اختلاط النسل فكلهم أبناء الامبراطور ابن السماء ولم يقلعوا عن تلك العادة القبيحة إلا تفادياً لمرارة النقد الأجنبي وأنهم لايطيقون أن ينقد بلادهم أحد قط

تناولت العشاء ورغبت فى النوم وسرعان ما تقدم الفتيات إلى وسط الغرفة يفرشن لى حشية (مرتبة) قصيرة تتناسب مع قاماتهم القصيره والى ناحية الرأس وسادة من خشب عليها غشاء رقيق من قماش يحشوه القش وشدت (ناموسية) خضراء فى حجم الغرفة كلها الى الأركان ووضع إلى جانب الفراش الشاى الذى يحسن شربه قبل النوم ليطهر الفم ويساعد الهضم ثم قدمن المبخرة وأشعلت بها فتائل خضراء حلزونية تظل متقدة طوال الليل طرداً للباعوض على أنى لم أطق رائحته المنفرة فمددت جسمى وكانت قدمى تتدليان خلف (الفراش) الى نصف الساقين ورأسى لاتكاد تستقر على وسادة الخشب القاسية التى لايلذ لهم النوم إلا عليها فترى الرقبة



النوم فى اليابان على الحشيات (الشلت) والوسائد الخشبية يجاورها مصباح الورق والمبخرة

مشحوذة عليها والرأس يتدلى من طرفها الخارجى غالباً ويظهر أن الباعث عليها شدة محافظة السيدات على تنسيق شعر الرأس مخافة أن تعبث به الوسائد الأخرى ويقولون أن نساء اليابان امتزن بجمال الرقاب الممشوقة غير المجعدة وتلك نتيجة النوم على هذه الوسائد ويغلب أن يوضع بجوار الفراش مصباح من ورق ملون ، على انى لم أنم إلا غرراً وكنت أدهش لهم مذ ينامون نوما عميقا رغم قعقعة أخشاب الغرفة ومصابيحها وطنين الباعوض والفراش ويكاد يخيل للمرء أن الدار ستنهار أمام شدة الرياح فهى ترتجف أبداً وكأنها الخيام المؤقتة ألى ذلك انى كنت أسمع كل همس يقع فى الحجرات الأخرى .

وفى صبيحة اليوم التالى قصدت القصر الامبراطوري القديم وكأنه القلاع العاتية بصخوره التي أذكرتني بجلاميد الكرنك فى ضخامتها على أن مقاصيره كلها تتوج بالخشب فى الخرط اليابانى فى شيء من الضخامة فى غير علو ومن حوله خندق كأنه النهر العظيم تخترقه قناطر عدة ، ومن أشهر مايزاز فى اوزاكا ملهى الدمى (تياترو العرايس) وهو الوحيد من نوعه فى العالم ويسمى (بونراكو) وقد كان القسس فى الزمن القديم يستخدمون الدمى واسطة بينهم وبين الآلهة ويبلغون الناس رسائل الآلهة على لسانها كى تشعرهم بأنها ليست آدمية مثلهم ، ثم انتقلت فيما بعد إلى الملاهى ، هناك ترى جمعاً من الدمى الكبيرة فى ثلث الحجم الآدمى ، تظهر على المسرح يحركها أناس بمهارة تشعر بأنها أقزام بنى آدم فتمثل الدمى رواية كاملة وتنظم حركاتها على أنغام الموسيقى والعازفون يتكلمون ويغنون بدل الدمى التى تؤدى الحركات فحسب، والعجيب أن عيون الدمى وشفاهها وأصابعها تتحرك فى دقة مدهشة وكل دمية يحركها ثلاثة رجال من خلفها يلبسون أردية سوداء وتكسى وجوههم بنقاب خفيف ، وهو من أحب الملاهى الشعبية لديهم .

وقد قمت بجولة فى الحى الصناعى من المدينة فراعنى مارأيت من دوى المصانع وعظيم امتدادها فهي التى لعبت الدور الهام فى تطور البلاد الصناعى ذاك الذى أعده خير مثل نحتذيه ان أخلصنا فى نهضتنا الاقتصادية الحاضرة :

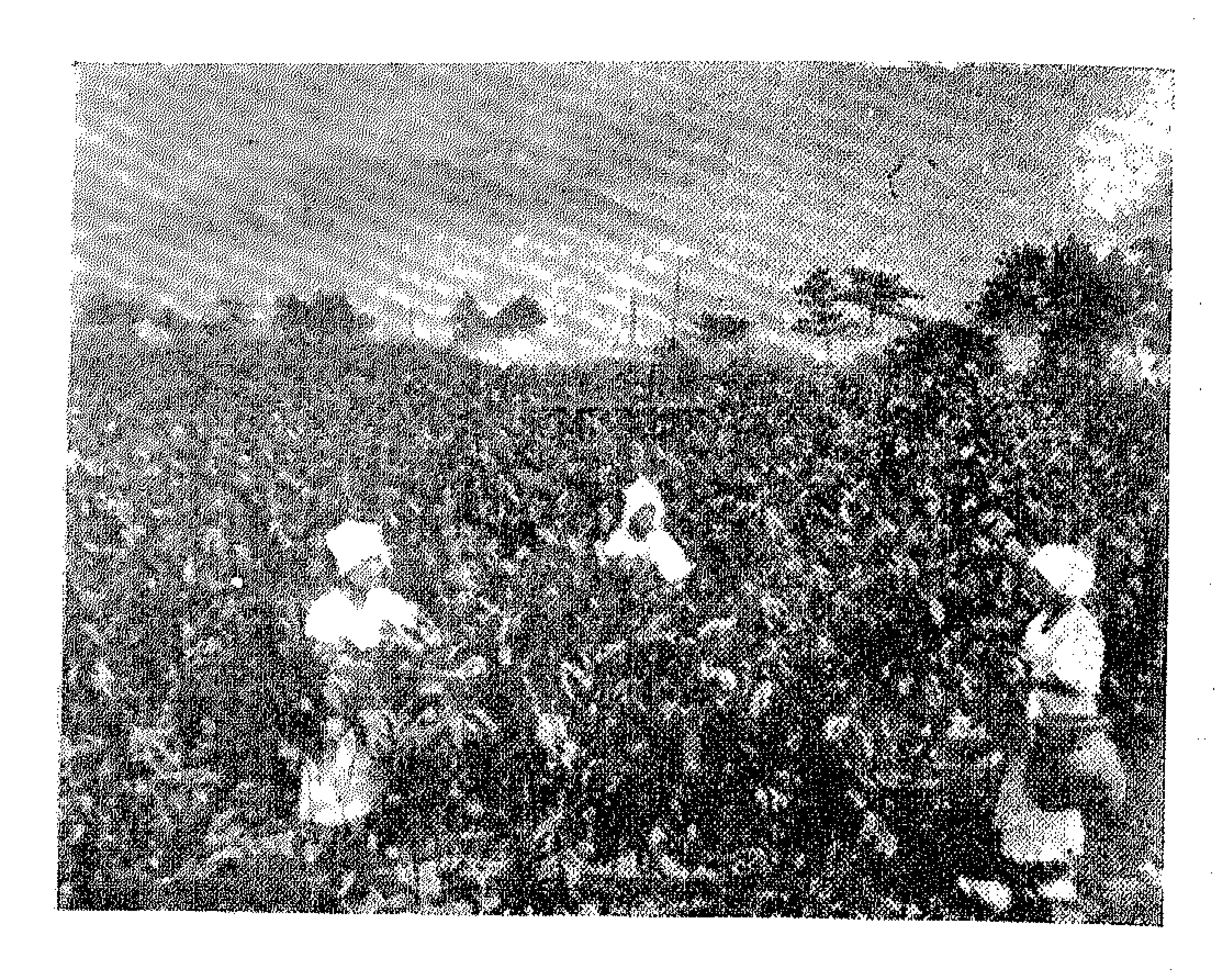
النهوض الصناعى : خالفت اليابان فى نهوضها الصناعى سائر بلاد الدنيا من قبل ففى انجلترا مثلا كانت التجارة والصناعة خاضعةلقوانين حكومية الى القرن الثامن عشر حين نهضت الصناعة على أساس المجهود الفردى والمنافسة الحرة ، وتلك تغلبت على ملاك الأراضى ونزعت منهم نفوذهم الحكومى وأضبح تدخل الحكومة فى الصناعة أمراً غير مرغوب فيه وعلى ذلك لم تقم الصناعة فى انجلترا على التعاون العام ولا على الاشراف الحكومى بل على مجهود الفرد ومزاحمته لغيره ، أما فى اليابان فقد قامت الصناعة على كواهل الدولة ذلك لعدم وجود طبقة من أغنياء التجار الذين أمدوا الصناعة الانجليزية بالمال الى ذلك احتقار طبقة التجار فى اليابان عندئذ وقلة خبرتهم بسبب عدم احتكاكهم بالأجانب كثيراً . فبينما نجد النهوض الصناعى فى الغرب هو الذى أثر فى النظم السياسية إذا بالأمر على النقيض من ذلك فى اليابان حيث كان الانقلاب الصناعى نتيجة مباشرة لتغيير نظام الحكم فالدولة هى التى فتحت المصانع ولا تزال تديرها وهى التى أوفدت الطلبة ليتعلموا الصناعة والتجارة فى الخارج واستقدمت الخبراء من الأجانب وأنشأت المدارس الحكومية وفتحت الغرف التجارية ولا تزال تمنحها الاعانات المالية كذلك أقامت المتاحف الصناعية فى كل البلدان ، وهى التى تزود التجار بالمعلومات عن الأسواق الخارجية وحتى المصانع التى انتقلت إلى أيدى الأفراد لا تخلو من الرقابة الحكومية ، والحكومة تمون المصانع كلها بالقروض والاعانات المالية وتراها تشرف على الهيآت التعاونية التى

تفوق الألف والتي تتعاون على تنظيم الانتاج والتصدير وظروف البيع ولهذه حق قانوني في فحص صادرات البلاد محافظة على سمعتها الصناعية في الخارج ومما ساعد الصناعة في اليابان أنها نجت من مقاومة فئة الممولين الأقدمين الذين تعرضوا في سائر الدول للخسائر الفادحة فناوأوا الصناعة زمناً ، أما في اليابان فلم توجد تلك الفئة ذلك لضعف مالية الأفراد هناك ، الى ذلك أن النهوض الصناعي في اليابان جاء في عصر ظهر فيه فضل الانتاج الكبير الذي لايقوى عليه الفرد بل الجماعات والمتعاونات وشعر الكثير بضرورة معاونة الحكومات وتدخلها في تحديد المزاحمة ولايزال للنظام القديم أنصار يقاومون تدخل الحكومات حتى في انجلترا نفسها ، أما في اليابان فالاشراف الحكومي منطبق على نظمها الاجتماعية التي تقضي على الأفراد بالطاعة للأسرة والولاء للدولة فهم جميعاً يؤيدون التعاون بفطرتهم ولا يثقون بالمجهود الفردي — رغم ما لهذا من أثر سيء في القعود بقوة الابتكار —

فاذا كانت انجلترا قد ضربت المثل الأعلى للصناعة ابان القرن التاسع عشر فأن اليابان هي المثل الأعلى في هذه الأيام

ولتطور الصناعة في اليابان ثلاثة عصور الأول من بدء عصر ميجي (١٨٦٨) الى انتصار اليابان على الصين في حرب ١٨٩٤ وهذا العصر امتاز بنشاط الدولة العظيم في بناء ماتتطلبه دعامات الصناعة لذلك مد أول خط حديدي سنة ١٨٧٠ وفي ١٨٩٤ بلغت السكة الحديدية ٢١١٧ ميلا ، وفي سنة ١٨٧٢ تأسس أول مصرف (بنك) على النظم الحديثة وأعقب ذلك

نشر التعليم على أحدث النظم وبدأت السفن التجارية تبنى تحت اشراف الحكومة ومعاونتها وأقيم كثير من المصانع سنة ١٨٧٠ للحرير والقطن والصوف والورق والزجاج والآلات ثم أعقب ذلك بناء مراسى السفن ومناجم الفحم والنحاس ، على أن هذا العصر لم يغير شيئا قط من ميول الشعب الزراعية ، وتبدو الحالة الاقتصادية جلية فى تجارة البلاد الخارجية اذ ذاك مذ كانت جل وارداتهم من المصنوعات خصوصاً المعدنية والمنسوجات — وهذا شبيه بنا الآن — وجل الصادرات كانت من الخامات وبخاصة الحرير ذاك الذى كان انتاجه ضعيفاً عهد الأقطاع لما ان كان الحرير قاصراً على ملابس الطبقة الحربية والارستقراطية وحرم على غيرهم لذلك كانت زراعة القطن أكثر انتشاراً ، وكان ينسجه الكل فى بيوتهم ، لكن عقب انقضاء عهد الاقطاع وردت المنسوجات القطنية من الخارج رخيصة ثم أسست مصانع القطن فى البلاد فزاد الطلب على الخام من القطن الأمريكى والهندى والصينى ، ذاك الذى كانت تزرعه تلك البلاد بنفقات أقل من زراعته فى اليابان وسرعان مازاد الطلب الأجنبى على الحرير اليابانى فأحال الفلاح اليابانى أرضه القطنية إلى أرض للتوت لتغذية دود القز وساعدت رقى انتاج الحرير ملاءمة الأرض له ومهارة اليابانيين فى القيام بشئونه المتعبة ، واليوم نرى الحرير الخام أكبر صادرات البلاد كما أن القطن الخام من أكبر الواردات ، ويلى الحرير فى الصادرات الشاى والنحاس ومنتجات المصانع الصغيرة



يخص الفلاح قسما من أرضه بزراعة التوت فى شجيرات قصيرة
يقطف الفتيات ورقها لاطعام دود القز

وعلى أثر حرب الصين زادت خبرة البلاد الصناعية واستطاعت محو القيود الأجنبية على الواردات ، وتلك القيود كانت ترغم اليابان ألا تزيد الضرائب على الواردات على ٥٪ (وتلك الخطوة شبيهة بما اتخذناه فى مصر فى العام الفائت) وقد ساعد هذا النهوض الصناعى هبوط سعر الفضة التى كانت أساس التعامل هناك الى سنة ١٨٩٧ مما رخص أثمان المنتجات اليابانية فزاد الطلب عليها وتشجعت صناعاتها (هبوط الجنيه فى مصر اليوم شبيه بذلك)

وعقب حرب الروس سنة ١٩٠٥ ضمت اليابان لها كوريا وجزءاً من منشوريا هذا الى فرموزا ولوشو التى أخذتها من الصين من قبل وتلك

البلاد تطلبت القيام بمشروعات اقتصادية كبرى كالسلك الحديد والمصارف والمتاجر مما شجع الصناعة اليابانية التى أمدت تلك المنشئات الى ذلك تنشيط استغلال الكافور وقصب السكر فى فرموزا والبنجر فى كوريا ومنشوريا ، ذلك يصح اعتباره الطور الثانى للصناعة وفيه بدأت تسلم الحكومة المصانع التى ثبتت أقدامها للشركات تعمل تحت أشرافها وظلت الصناعة الرئيسية الى آخر القرن الماضى : السفن والنسيج أما المعادن فظلت متأخرة لذلك وجهت الحكومة همها اليها هذا القرن لكنها لا تزال متأخرة لنقص حاجاتها فى البلاد فالحديد نادر ويستورد من الخارج وبخاصة من الصين والفحم ردئ النوع بعيد عن مناطق التعدين

فتطور اليابان الصناعى لم يظهر فعلا إلا فى الفترة بين حرب الصين والحرب الكبرى أى فى عشرين عاماً ولم تبدأ النظم الغربية فى البريد والسكك الحديدية والسفن والمصارف والقضاء والادارة إلا سنة ١٨٩٤ وانتشر التعليم الفنى وظهرت الآلات خصوصاً فى صنع القطن فقد زاد عدد مغازله من ٤١٥ ألفاً سنة ١٨٩٣ الى ٢٫٤١٤٫٠٠٠ سنة ١٩١٣ ثم ظهر رأس المال الأجنبى فى استغلال المنحدرات المائية فى الكهرباء فبينما لم تكن اليابان شيئاً مذكوراً فى العالم الاقتصادى الى سنة ١٨٩٤ اذا بها تصبح عملاق الشرق الاقتصادى منذ سنة ١٩١٩

أما العصر الثالث : لهذا النهوض فمنذ الحرب الكبرى ففى خلالها تضخمت صناعاتها بفضل غياب المزاحمة خصوصا صناعات الأصواف

والكيماويات والحرائر والخزف كذلك قد أفاد الطلب على الآلات الحربية والذخائر مصانع الحديد وتقوى أسطولها التجارى منذ شغلت الحرب سفائن الدول الأخرى فضوعفت السفن اليابانية خلال الحرب وزاحمت الأقطان اليابانية المنسوجات الانجليزية التى تراخت أبان الحرب وصنعت اليابان الأقطان الراقية التى كانت احتكاراً للنكشير وبين سنتى ١٩١٣ ، ١٩٢٤ ضوعفت المغازل تماما وقد زاد الانتاج الكبير الطلب على الفحم والكهرباء فزاد انتاج هذين كثيرا .

على أن الكساد العالمى الذى بدأ سنة ١٩٢٠ كان صدمة خطيرة على المصانع التى لم تدعم وبخاصة الحديد والسفن والصوف التى لاتزال تشكو مر الشكوى وكان لزلزال سنة ١٩٢٣ أثر سيء على نهوض الصناعة مذ أتلف كثيراً من الأرواح والأموال فاستلزم ديوناً أجنبية باهظة

ففى خلال الثلاثين عاماً الخالية حصل انقلاب تام يبدو فى أن غالب الواردات اليوم أضحت من الخامات خصوصا القطن والمواد الغذائية أما الصادرات التى كانت من قبل من الخامات فقد أصبحت من المصنوعات — إذا استثنينا الحرير الخام — كذلك التغير الذى طرأ على أسواق اليابان ففى المقدمة اليوم شرق آسيا وأمريكا الشمالية فأمريكا سوق الحرير الخام والخزف والشاى ومورد القطن الخام والآلات والمعادن وتصدر اليابان الى شرق آسيا القطن والمصنوعات الصغيرة مقابل القطن الخام من الهند والأرز والخشب والحديد الخام من سائر بلاد شرق أسيا

وخلاصة القول فنى ٦٠ عاما انتقلت اليابان من بلاد تعيش فى القرون الوسطى الى قوة اقتصادية خطيرة وكان تطورها منظما للغاية فى كل نواحيه ففى السنين الخمسة والعشرين الاولى أقيمت الدعامات المادية للتقدم الاقتصادى تحت سيطرة الحكومة وفى السنوات العشرين التالية ظهر النمو الصناعى وعاونه النصر فى الحروب وسعة المستعمرات وهنا بدأت تستقل الصناعة عن الدولة إلا فى نوع من الحماية والعون المالى وظهر تغلب الآلات على العمل اليدوى وأخيرا جاءت الحرب الكبرى التى أتمت هذا التقدم الذى أدهش العالم

كيان اليابان الاقتصادى اليوم : ولا تعد اليابان مصنع آسيا بأكملها كما كانت انجلترا مصنع أوربا فى القرن التاسع عشر ذلك لأن الزراعة لاتزال أساس النشاط اليابانى إذ يشتغل بها نصف رجالها رغم عدم ملاءمة الأرض كثيرا للزراعة وشتان بين المروج الخضراء التى يهملها الانجليز فى بلادهم وبين تلك الأرض الجبلية التى يستغلها اليابانى الى أقصى شبر منها وتكتظ بجماهيره الكثيفة وقراه المتعددة فهو يزرعها بجهد وعناية فائقة وبخاصة الارز والشعير ويشغلان ٩١٪ من الارض المنزرعة وفى بعض الجهات العالية يستنبت ثلاث غلات أو أربع كل ذلك بطرق يدوية عتيقة ليس للآلات فيها دخل ما ، فهو فى ذاك شبيه بالفلاح المصرى

من مجموع أراضى اليابان : ٥٠ ٪ تكسوها الغابات ، ١٥ ٪ للزراعة ١٠ ٪ للمراعى



تشغل الزراعة فى اليابان نصف السكان ويعمل النساء فى الحقول
الى جانب الرجال

وحتى فى معيشته لايزال كما كان أجداده فى الملبس والغذاء والاخصاص الخشبية والملاهى وحتى رأس السنة لاتزال فى الأرياف بالحساب القمرى (تام الشبه بفلاح مصر) والمزارع هناك صغيرة مذ يمتلك ٥½ مليون عائلة نحو ١٥½ ايكر وثلاثة أرباع أولئك لاتزيد ملكيتهم على ٢½ ايكر فنحو ٣٠٪ من الزراع من بين صغار الملاك، والمستأجرون يقومون بالعمل مشاطرة مع الملاك الذين يقدمون السماد والبذور مقابل نصف المحصول، فالفلاح اذن لا الصانع هو ممثل السواد الأعظم هناك ويقوم بأعمال أخرى الى جانب زراعته وأخص تلك الأعمال تربية دود القز ذاك الذى يلقبونه (بالمهذب



المكان الخاص بتربية دود القز فى بيوت الفلاحين جميعا

النبيل الصغير) ففى أغسطس يكاد يشتغل أفراد العائلة جميعاً بقطف ورق التوت ووضعه على صوانى خشبية واطعام الدود الذى تقوى شهيته للطعام الى أقصى حد ويسمع المرء صوت الدود وهو يقرضها فى أزيز مختلط ويقال إن أية جلبة أو ازعاج من الناس حوله تضايق الدود فيفسد هذا من محصول الحرير وجودته، والحرير يقوم بنصف دخل الفلاح تماما يضاف إلى ذلك بعض الصناعات العائلية البسيطة كالأنوال اليدوية للقطن الذى يمدهم بجميع الملابس الريفية وصناعة صناديق الخيزران والورق تطلى باللاكيه كل ذلك يصنع فى البيوت ويسلم للمتعهدين من التجار . فأين المغزل اليدوى المصرى للقطن فيسد الفلاح حاجته منها بعمله فى وقت فراغه الطويل ؟

ويشتغل من الناس ١½ مليونا بصيد السمك عماد غذائهم الحيوانى، تلك هى

المهن التى لاتزال تبقى على القديم وتغالب المؤثرات الأجنبية وأنت ترى طوال الطريق تلك الصناعات اليدوية تمارس فى نوافذ المساكن بنشاط عجيب ولم يؤثر عليها مايجاورها من مصانع زودت بأحدث الآلات وقد تعجب لبقاء تلك الصناعات رغم مزاحمة الانتاج الحديث لها لكنك اذا علمت ان غالبها متعلق بالغذاء والملبس والمسكن وهذه لها نظامها الخاص المختلف عن سائر بلاد العالم زال العجب . فسلع الأجنبي لاتجد لديهم قبولا وحتى قماش (الكيمونو) يلائم النسج اليدوى لأنه صغير العرض إلى ذلك أن اليابانى لاتروقه الا الأدوات الدقيقة الفريدة فى لونها وونظامها ، ولم تنجح الآلات الضخمة إلا فى الأشياء الغريبة عن البلاد التى تصنع للتصدير لا للاستهلاك الداخلي ، ولعل فى انتشار الكهرباء هناك ورخصها خير معين على بقاء تلك الصناعات الصغيرة الى جانب الانتاج الكبير ذلك لسهولة استخدامها حتى فى البيوت لانجاز العمل بنفقات زهيدة ومن العجيب ان الانتاج الصغير هو السائد فى اليابان ومع ذلك فقد قامت مصانع على نظام الانتاج الكبير تفوق فى نظامها نظائرها فى أوروبا (كمصانع الخزف ، آلات الموسيقى ، النسيج) أما من جهة توطن الصناعة فيبدو جلياً فى أوزاكا وكوبى بفضل ما كان لهما من حرية نتجت عن بعدهما عن أثر السلطة العسكرية عهد الأقطاع مما شجع روح الابتكار فيهما ، ونلاحظ ان الصناعة مركزة فى جنوب جزيرة هندو لسهولة الاتصال بالبحار لكنها بعيدة عن مناجم الفحم (فأغلب الفحم فى كيوشيو وهوكايدو وهما زراعيتان) لذلك اعتمدت الصناعة هناك على الكهرباء ، وهذا له الفضل فى أن مصانع

اليابان أضحت أحدث مصانع الدنيا نظاماً : فهل لمصر أن تبادر باستغلال المنحدرات فى اسوان والقطارة فتنتشل البلاد من شر الاعتماد على الزراعة وحدها ؟

ويلاحظ أن ستين فى المائة من عمال المصانع الكبيرة من السيدات وهذا يفسر رخص المنتجات اليابانية من جهة وعدم نجاح الصناعات التى تتطلب مهارة الرجال كصناعة الآلات ، أما النسيج الذى لايحتاج إلى مهارة العامل بقدر احتياجه إلى حسن الادارة و إلى جودة الآلات فقد نجح تماما، ويعزى افتقار اليابان فى مهرة العمال الى حداثة عهدها فى الصناعة وقلة خبرتها بها

ولقد دعا الى استخدام النساء أن المصانع منذ البداءة أقيمت فى القرى، لرخص أثمان الأراضى بها فلم تجد من العمال كفايتها وتلك صعوبة تعترض

صناعة النسيج فى مصر شبيهة بموقفها فى اليابان من عدة وجوه :

(١) لأنها تستورد الآلات كلها من الخارج

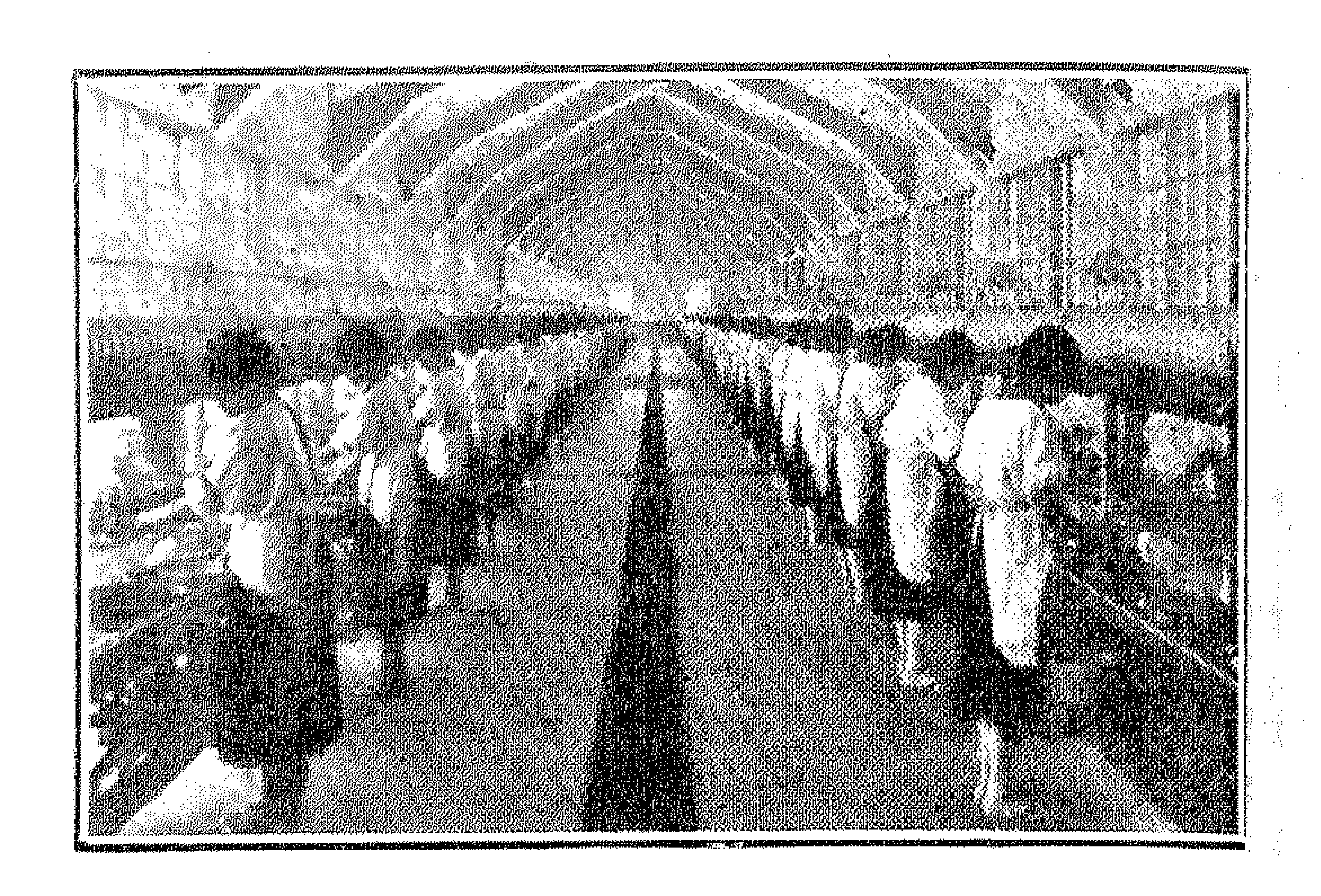
(٢) بدأت ولم يكن للعمال هناك بهاخبرة قط فاستعانوا بالخبراء الاجانب

(٣) كان الوقود من الفحم فى اليابان نادرا وكانت أجور العمال ولا تزال رخيصة جدا

(٤) لم يكن لليابان شركات ملاحة تخدم تلك الصناعة فبدأت نواة الاسطول التجارى مع بدء صناعة النسيج

(٥) كانت الحكومة تقدم لها الاعانات المالية والتسهيلات بسخاء !

(٦) فرضت رسوما كبيرة على الواردات لتحمى صناعة النسيج صارفة النظر عن المجاملات التى تفوت عليها مصلحتها



فى أحد مصانع الحرير فى أوزاكا ومصانع اليابان أحدث نظاماً من نظائرها فى الغرب

الصناعة حتى فى مدنها الكبيرة لذلك لجأ أصحابها إلى العائلات الريفية يغرونها على إرسال فتياتها يتعلمن فى المصانع ويشتغلن مقابل أجر معين يستقطع منه جانب نظير المسكن والغذاء الذى يقدمه لهن صاحب المصنع

وغالب مصانع الانتاج الكبير فى يد هيئات إقتصادية كبرى تتصل بالحكومة حتى عدها البعض نصف حكومية وإلى تلك الشركات كانت الحكومة تسلم كل مشروع اقتصادى أقامته بعد نجاحه ، وبفضل ذلك تشرف الحكومة على الصناعة تماما ولتلك الشركات أثر كبير فى سياسة البلاد ، ولعل من أجمل مزايا هذا النظام زوال المزاحمة الذي سببه الاشراف المركزى الشامل والتضامن الانتاجى المتين : فهل لحكومتنا أن تتولى

النهوض الصناعى مترسمة خطى اليابان التى تلائم حالتنا ؟

فذاك النجاح العجيب للصناعة اليابانية يرجع الفضل فيه الى الضرائب الباهظة التى فرضوها على الواردات وإلى بعد المزاحمة الأوروبية والى النظام الاجتماعى الذى يؤيد بفطرته التعاون ويقاوم الفردية والى بدء الصناعات الكبرى بوساطة الحكومة التى لاتقوى مالية الأفراد الضئيلة على مزاحمتها وذاك التعاون لاشك عامل عظيم على تخفيف وطأة الازمات وتقلب الأسعار لأن الجماعة هناك تنقذ العاطل منها على عكس أوروبا فلمجرد طرد العمال من المصانع فى أوربا ينقصون من مشترواتهم وهذا يزيد الأزمة سوءاً كذلك فان طبقة المأجورين هم الذين ينكبون على المشتروات عند انخفاض بسيط فى الأسعار فيزيد هذا فى الارتباك المالى لذلك أنشئت هيآت التأمين ضد البطالة فى أوروبا أما فى اليابان فلا داعى لها لأن العاطل يلجأ إلى عائلته وقد يستأنف الزراعة وهى لاتزال أهم الأعمال فى البلاد ويساعده على ذلك استخدام الدراجات مطية يذهب بها العامل يوميا الى قريته فيعيش وسط أهله دون أن ينفق على مسكنه وما كله شيئاً يذكر وهذا هو السبب فى نقص العمال العاطلين في اليابان عنه فى جميع الدول (لم يبلغ مائة ألف)

وقد ساعد على عدم تقلب الأسعار (أبان الحرب العظمى صعوداً و بعدها هبوطاً) فى اليابان منتجاتها الخاصة التى لاتؤثر فيها المزاحمة الأجنبية الى ذلك العادة التى قضى بها العرف عندهم وهى أن كل عامل يستغنى عنه

يمهر بين ثلاثة أشهر وستة على سبيل المكافأة وهذا قلل خطر البطالة لابل وساعد أصحاب العمل ألا يلجأوا الى الطرد إلا عند الضرورة القصوى على أن هذا النظام الذى يساعد على تجنب الازمات يعاكس الكفاية لأن الأزمات هى التى تستأصل غير الأكفاء من حلبة الانتاج

أما اضراب العمال هناك فنادر لأن الرأى العام وهو قوي جداً هناك يقاومه كل المقاومة كذلك توقفه روح التضحية التى تنتشر بين العمال أنفسهم فقد حادثت بعضهم عن سبب رضاهم بالأجر القليل والساعات الطويلة فكان جوابهم أنهم راضون بذلك خشية أن يؤثر اعتصابهم على مركز المنتجات اليابانية فى الأسواق الخارجية، على أن التمرد بدأ اليوم يظهر بينهم وقد تشكل اتحاد العمال لتحديد ساعات العمل وبعض الأجور ورعاية صوالح العمال لكن لاتزال ساعات العمل تزيد عنها فى جميع البلاد الأخرى — بين ٥٧ ، ٦٠ ساعة فى الأسبوع — ولا تزال هذه الهيئات تناضل كى تعترف الحكومة بحقوقها ولعل ضعفها ناشىء عن قلة العمال فى المصانع الكبرى فهم ٢½ مليونا فقط والباقى موزع فى المصانع الصغيرة الى ذلك أن غالبهم من النساء اللاتى ينظر الجمهور اليهن نظرة هى دون نظرهم الى الرجال .

خطر السكان : ولقد أثبت الاحصاء الأخير ان عدد السكان ضوعف تماما فى خمسين عاماً مذ بلغ مجموع سكان الامبراطورية ٩٠ مليونا وأن الزيادة تبلغ مليوناً فى كل عام فى الجزائر الرئيسية وحدها ففى القرن

التاسع عشر تضخم عدد السكان بالقدر الذى تسمح به البلاد وزاد هذا التضخم عدم الهجرة وقلة الحروب على أن مستوى المعيشة ظل فى حدود التقشف الشديد حسب أوامر الأسرة لذلك ظلت البلاد تمون نفسها رغم ازدياد السكان على أن سكان المدن والطبقات الفقيرة بدأت تتغير حالهم اليوم وتزيد نفقاتهم ، ومن العجيب أن أرض اليابان لايصلح للزرع فيها سوى السدس وهذا هو الذى يمون نصف السكان تماماً ، ولقد ازدادت حركة نزوح أهل الريف الى المدن جريا وراء الصناعة وزيادة الأجور تلك التى رفعت كلف المعيشه فى اليابان كلها ويظهر ان طول عزلة اليابان عن العالم ونظامها العائلى المحكم افهم اليابانى ضرورة اتكاله فى الغذاء على انتاج أرضه فظل كذلك إلى اليوم لذلك لجأ إلى طريقة الزراعة الاستغلالية القصوى حتى ضاعف انتاج الأرض من الأرز وهو عماد الغذاء لكن رغم ذلك أخذت تتحسن معيشة الفرد ويزيد استهلاكه فأضحت مشكلة التموين اليوم حرجة ولذلك بلغ الوارد من الأرز الأجنبى عشر المستهلك فى اليابان وأضحت أثمان الأرز — وهو عماد غذاء الفقير — عرضة للتقلب الشديد

لهذا كله أضحت زيادة السكان هناك خطيرة يزيدها خطراً ان نظامهم الاجتماعى يحرم تحديد النسل فهو يساعد الزواج المبكر كما أن الأبوين لايشعران بمسئولية الأولاد لأن رعايتهم فرض على الأسرة بأكملها إلى ذلك أن الدين الشنتوى يحض على النسل وينفر من الزواج العقيم كذلك المرأة اليابانية تعد نفسها خادمة أولادها ولم ترق إلى مستوى المرأة الغربية

التى قل نسلها بسبب ثقافتها وشعورها بمسئولية تربية الأولاد واشتغالها مع الرجل جنباً لجنب، والنساء هناك لا يعرفن الطرق الحديثة التى يتبعها الغربيات فى منع النسل ذلك الذى أضحت قلته خطراً فى انجلترا وأمريكا وفوق الجميع فأن الحكومة اليابانية لا تسمح بنشر أية دعاية تحض على تعطيل النسل وذلك دفاعاً عن الناحية العسكرية فكأن كثرة النسل فى اليابان يكفلها الدين والعادة والحكومة والنظام الاجتماعى . ونصيب اليابان من الهجرة قليل يناهز نصف مليون فى الخارج فقط — لأن دول أمريكا قيدت الهجرة اليها وكذلك استراليا أما أسيا حيث المجال متسع للهجرة فان فيها من وفرة السكان ورخص الأجور ما يسد الباب على مزاحمة اليابانى

لذلك كان لزاماً أن تبتلع المصانع فى اليابان كل زيادة فى السكان فيجب زيادة تنشيط الصناعة والاعتماد فى الغذاء والخامات على الواردات .

ومشكلة السكان عندنا شبيهة بها فى اليابان وخير السبل لابتلاع الزيادة فى السكان أنهاض الصناعة

ومن المشاكل التى تقلق اليابان شعورها بالاعتماد على غلتين رئيسيتين وهما الحرير الخام (٤٥٪) والقطن المنسوج (٢٠ ٪ من الصادرات) فهما ثلثا مجموع الصادرات وقد زادها شعوراً بالخطر أن خير أسواقها لتصريف المنسوجات الصين وقد بدأت تشجع الصناعة الوطنية وتقاطع اليابانية خاصة وكذلك الهند ، أما سوق الحرير فأمريكا وهى تعرف بسرعة التحول فى

الأذواق والأزياء عن سائر الممالك على أن المتفائلين يرون فى قرب اليابان من بلاد الخامات والأسواق والاستهلاك فى الشرق الأقصى وفى زيادة الثروة فى استراليا وأمريكا ، وفى نمو القوة الكهربائية فى اليابان ما يقلل من تشاؤم (ملتوس) فى خطر تكاثر السكان وان كان ذلك لايتم إلا على حساب شخصيتها الفذة وعاداتها الجذابة التى سيقضى عليها اندفاعها وراء التقدم الصناعى والعمل على توحيد استهلاكها مع الاستهلاك العالمى كله

ويتساءل الكثير عما اذا كانت المدنية الغربية ستكتسح تقاليد اليابان ونظمها ونحن نلاحظ أن روح الاقطاع لاتزال تسود النظم السياسية وأن النظام الاجتماعى والاقتصادى سيظل شرقياً بتحوير بسيط فدعامات المدنية لاتزال هناك شرقية بحتة لأن اليابان لا تثق بفلسفة الغرب وأخلاقه واجتماعياته ودينهوسياسته ولا يزال الناس يحافظون علىمساكنهمومسلابسهم

فى سنة ١٩٢٨ قدرت شرانق الحرير ٥٥ مليون جنيه ، الحرير الخام ٨٥ مليونا ٧٠ فى المائة منه يصدر ، ٥٠ مليون جنيه منسوجات حريرية ــ غزل القطن أقل نشاطا من نسجه ومع ذلك يستنفد بنحو ٥٠ مليون جنيه من القطنالخام سنويا وهو أرخص منالانجليزى لآنمصانعه أحدث نظاما ولأنه فى يدأربع شركات كبيرة غنية تشترى الخام كلما لاءمها الثمن وساعدها انخفاض أجور العمال وأجور السفن اليابانية التى تعاونها الحكومة بالمال ولقلة الوسطاء ولطول ساعات العمل فالمعامل تشتغل ١٧ ساعة فى اليوم على دفعتين .

ومعابدهم وألعابهم ومن أحبها لديهم المصارعة التى ورثوها عن آبائهم والتى يتمرن عليها الجميع حتى السيدات وتعقد لها الحفلات الرسمية ، أما طرق المواصلات ونظم المدارس والمصانع والمصارف وماإليها فأضحت غربية بحتة لذلك نلمس هناك التصادم بين المدنيتين فى أشياء كثيرة .

وهذا التناقض الذى يجمع به اليابانى حسن الذوق وتقدير الجمال الى جانب القدرة الانتاجية المادية هو الذى يحار فيه الغربيون ، فكأن اليابان تريد أن تحترم حاضرها وماضيها معاً وترغب فى أن يحترمها الغرب كدولة عظمى دون أن تتنازل عن شخصيتها الماضية

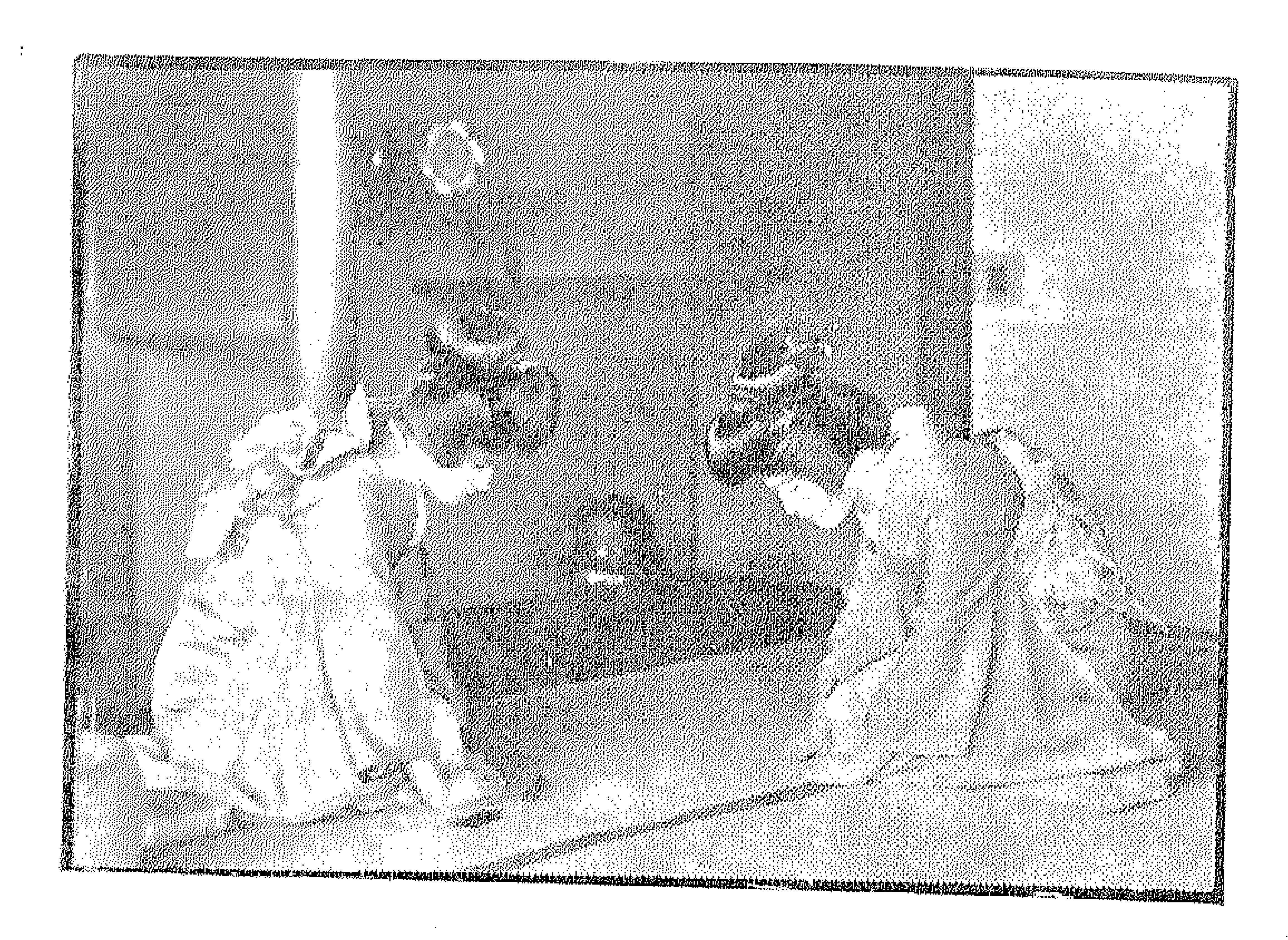
ولقد كانت اليابان حكيمة فى نقل عناصر تقدمها فهى لم تعتمد على دولة معينة بل استمدت المعونة من عدة دول كل فيما امتازت به ، فالجيش نقلته عن فرنسا إلى سنة ١٨٧١ ثم عن ألمانيا لما ظهر لها فضل الجيش الألمانى على الفرنسى والأسطول عن بريطانيا والنظام المالىعن أمريكا أولا ثم عن فرنسا وألمانيا آخراً والسكك الحديدية عن انجلترا والنظم السياسية عن ألمانيا ولعل ألمانيا هى أولى الدول التى نقلت اليابان عنها لأنها أقرب الدول شبهاً باليابان وبخاصة فى النظام الاجتماعى والسياسى نخص من ذلك القدرة على التنظيم والتعاون فلقد كان للحكومة فى المملكتين سلطان كبير وكلاهما له تقاليد عسكرية خاصة ، ونساء الفريقين بينهن شبه قريب ،ولقد نقلت الفنون عن فرنسا ، ويظهر أن الجنس السكسونى يجتاح اليابان اليوم فى التعليم والتجارة واللغة الانجليزية المنتشرة فى أسواق الشرق وفى شرائط السينما التى يرد

غالبها من أمريكا وفى كثرة المبشرين من الأمريكان على أن الدعاية للدين المسيحى ليست ناجحة لأن اليابانى يرى فى الغربى شخصاً غير متدين لا يتورع أن يرتكب الخطايا جهاراً فهو فى نظره مستهتر بدينه وهم يرون فى دينهم خيراً فهم لاشك أكثر من المسيحيين عطفا على الغير وتضحية للصالح العام وتسامحا فى الخلق وتقديرا للجمال الطبيعى الألهى أما الأوربى فصادق نظرياً مارق عمليا. ويرى البعض أن اليابان هى الدولة الوحيدة التى تجمع بين الطهارة والجمال فهناك ترى حب الجمال الى مستوى ذوقى ممتاز وهناك يقوم الولاء للعشيرة الى جانب تقدير المسئولية الاجتماعية فهى الدولة الاسيوية الوحيدة التى صدت عدوان الغرب عنها وأعدت نفسها بوسائل الدفاع الحديثة بدون أن تضحى تقاليدها الاجتماعية أو السياسية وهى الوحيدة التى أجادت فهم الحضارتين الشرقية والغربية وألفت بين الشرق والغرب، فياحبذا لو نسجت مصر على منوالها فهى أقرب الينا من نواحى عدة فلنوفد اليها طائفة من طلبتنا وتجارنا لدرس الوسائل الاقتصادية والخلقية التى كانت خير عون لهم على ذلك التقدم العجيب. ويظهر أن تيار المدنية والرقى والسلطان متجه اليوم نحو المحيط الهادى وأن سيكون نهباً مقسما بين اليابان وأمريكا ان هما تعاونتا ووثقتا عرى الصداقة بينهما

الخلق القومى والنظام الاجتماعى: كنت أعجب كثيراً كلما ناقشت أجنبياً لاقيته فى اليابان أو فى طريقى اليها مذ كان يكيل التهم لليابانيين ويرميهم بالنزعة الحربية والغدر وحب المادة والتجرد عن الضمير

وبعضهم كان يرى فى نزعتها الحربية أكبر الخطر على العالم والغريب أن بعضهم كان يعد اخلاص اليابانى الشديد وتفانيه فى عمله بنشاط فائق خطراً على العالم ، على انه تبين لى ان تلك التهم عارية عن الصحة فالأجانب يسيئون فهم نظام اليابان الاجتماعى ذلك الذى نفهمه نحن المصريين على حقيقة لقربه من نظامنا فمثلا إذا ماأردت أن توجه نقداً لأحدهم يجب طبقاً لآدابهم ألا تصارحهم به فى شكل جارح لأنهم يعدون ذلك حطا من شأنهم ، فالواجب أن يوجه النقد تلميحاً وفى تعبير رقيق ، أما صراحة الغربيين فتعد هناك جفاء وغلظة واذا ماأردت أن ترفض لأحدهم طلبة أو تبلغه خبراً سيئاً وجب أن تصوغ ذلك فى عبارات رقيقة ملفوفة التعابير حتى فى الأعمال التجارية ومن هنا كثر سوء التفاهم بينهم وبين الأجانب فكلاهما يتهم أخاه بالنقص الخلقى الى ذلك يضاف ان أغلب الأجانب الذين كتبوا عن اليابان لم يخبروا إلا سكان السواحل وهؤلاء قد أفسدهم اقترابهم بسفلة الأجانب فهم لا يمثلون عامة اليابانيين يؤيد هذا ان اليابانيين كانوا يعدون طبقة التجار منحطة فهم لديهم دون طبقة العمال والزراع لفساد خلقهم بسبب أحتكاكهم بأولئك النزلاء من الأجانب الذين كانوا ساقطى الأخلاق ومن اسباب سخط الأجانب عليهم سرعة تقليدهم لمنتجات الغير ولشاراتهم التجارية ولادخال الغش أحياناً على بعض السلع على ان ذلك يكثر فى بدء التطور الصناعى لكل أمة وقد كانت أوروبا كلها كذلك عقب الانقلاب الصناعى هذا وقد بدأت الحكومة اليابانية منذ الحرب الكبرى تراقب

السلع الصادرة لدفع تلك التهم فشكلت لجاناً لفحص الصادرات ، ولا يصح اتهام عامة اليابانيين بالخيانة والغش فكثيراً ما كنت أرى حانوتاً فردياً تركه صاحبه مفتوحاً تعرض به السلع وعليها بطاقات الثمن فيجيء المشترى وينتقى مايشاء ويضع الثمن فى صندوق مغلق بدون محاسب ولا رقيب ، ومن أخلاق اليابانيين أنهم يفضلون سرعة التراضي والاتفاق بين المتخاصمين ويثورون ضد من يتمسك بمطلبه للنهاية حتى ولو كان عادلا ، وذلك أثر من آثار استنكارهم للمجابهة القارصة والمصارحة الجافة عكس الأوروبى الذى يصر على حقه كاملا للنهاية وبكل جرأة ، فاليابانى شب قادراً على اخفاء مشاعره وميوله تحت وجه باسم هادىء لأن الظهور بالوجه المقطب كائناً ما كان الباعث عنوان فساد التربية لديهم وهذا هو الذى جعل قدرتهم على ضبط النفس فى حالة الغضب وعند ماتلحقهم اهانة مضرب الأمثال ، ومن هنا جاء احتقارهم للأجانب الذين يعرفون بسرعة التهيج والغضب وبخاصة بعد ماأثر عليهم جو آسيا المجهد الذى جعلهم عصبيين لحد كبير ، أما أدب اليابانيين فلم يختلف فيه أحد فلا يمكن أن يلفظ أحدهم بالشتائم ولا يلجأ فى حديثه الى الحلف والقسم بل يعلم منذ نشأته لغة التأدب الشديد فلا يقول مثلا (انت) بل (المحترم) وبدل أن يقول لك (أدخل البيت) يقول (تنازل وشرف منزلنا الذي هو دون مقامك) واذا قال (اجلس) آثر عليها (تنازل لتستريح وتستمتع) ، على أن الأجانب يدعون بأن أدبهم هذا ظاهرى ليس غير وكأنه أدب القردة ويستدلون على ذلك بسلوكهم



أدب اليابانيين ضحى مضرب الا مثال وتلك الانحناءات تحية واجبة ومتبادلة

الذى يظهر فى المقاهى وقطر سكة الحديد وفى معاملتهم للسيدات وفى تدخلهم بالاستعلام عن كل شيء لدرجة هى الفضول بعينه، لكنهم لو أنصفوا لعلموا ان تلك عاداتهم التى لم يفهمها الغربى فكيف لنا ان نعيب على اليابانى مثلا أن يرتشف الشراب من الكأس بصوت ينفر الغربى من سماعه أو انه لا يقف للسيدة بل للطفل والرجل المسن — وهو أقرب الى المعقول — وقد كنت ألاحظ فى الترام أن غالب الواقفين من النساء ولا يصح أن يقف الرجل للمرأة بل بالعكس رأيت رجلا دخل العربة فسلم على صاحب له كان يجلس بجوارى وإلى يساره سيدة يغلب على ظنى أنها زوجته فوقفت هى وتنحت له عن مكانها فجلس بعد أن شكرها وظلت هى واقفة .

ويصعب جداً على الغريب أن يعرف اليابانى حق المعرفة لأنه حذر

جداً فى معاملة الأجانب فهم يستقبلونه بأدب ورقة وعطف لكنهم لن يتقبلوك قط كصديق ولعل ذلك أثر من آثار عزلتهم فى جزائرهم النائية عن العالم كله وتلك صفة تلاحظ فى أهل الجزائر عموماً و إلى حد واضح، إلى ذلك أثر عصر الاقطاع فيهم ذاك الذى كانت تأبى فروسية أهله أن يظهروا ماتكنه أفئدتهم من مشاعر ، فاليابانى يكلم الأجنبى وهو يذكر أنه يمثل اليابان فيزيد حذره وساعد على ذلك اعتزازه الشديد بقوميته لا بل وقبيلته وأسرته التى يجب عليه احترامها اجتماعياً ودينياً — ولقد خلف هذا أثره فى ضعف الاستقلال الذاتى وقوة الابتكار — ويزيد فى ذلك مايحوط الطفل منذ نعومته من الرعاية التى تجعله مدللا حساساً لأقل المصارحات (بعض مانعانيه نحن فى مصر) — وكذلك افتقار اليابانى فى تفهم الفكاهة والمزاح فهو يأخذ ذلك مأخذ الجد فى كل المناسبات لذلك شب رقيق الاحساس لدرجة تجعل النقد البرىء فى نظره إهانة ، فهم لايحبون أن يقبلوا النصح من الأجنبى مخافة أن يعد ذلك اعترافاً بالعجز من جانبهم واليابان تعوزها تلك الروح الرياضية التى امتاز بها الانجليز والأمريكان على غيرهم وهؤلاء أقدر الشعوب على الجمع بين الخصومة الحادة فى القول إلى جانب الصداقة في القلب ، أما اليابان فتعد الهزيمة حتى فى الألعاب الرياضية انكساراً مخزياً شائناً فكثيراً ماحدث فى المباريات الدولية للكرة أن انفجر لاعبوهم يبكون بحرارة لأنهم دحروا فى اللعب، ويحاول نظار المدارس هناك ألا يشركوا أولادهم فى اللعب حتى يكفلوا فوزهم فيه (وهذا ما كنا نلمسه فى مصر إلى أمد قريب)

ولعل أجل خلالهم التضحية للصالح العام تلك التي يعزى إليها سحر تقدمهم خلال ستين عاماً فاليابانى أسبق الناس للتضحية بنفسه فى سبيل رفع شأن أمته وفى تاريخ اليابان مثل عليا لذلك، نذكر منها حادث الفارس الذى قتل زوجته و بنيه قبل الذهاب إلى ميدان القتال مخافة أن يتعلق بهم فى غيبته فتفتر قوة الدفاع فيه ، ثم حادث الجوالة السبعة والأربعين الذين انتقموا لسيدهم ثم انتحروا لكيلا يعيشوا بعده وفاء له ، ثم حادث الجنرال (نوجى) الذى مات وزوجته شر موتة ليسجل احتجاجه على إغفال بعض بنى قومه تمسكهم بالقديم وعلى جريهم وراء التجديد الأوربى ، ثم حادث اليابانى الذى انتحر ببقر بطنه أمام السفارة الامريكية هناك ليرد الاهانة التى لحقت باليابان على أثر قانون تقييد الهجرة الذى أصدرته أمريكا سنة ١٩٢٤ وآخر ما حدث ما قرأناه فى حربهم مع الصين الآن من أن بعض جنودهم لف نفسه بالمواد المفرقعة ليجرى بها إلى الاسلاك الشائكة فتنفجر وتنسفه هو والاسلاك كى ينفسح الطريق لتقدم الجيش .

أما حبهم للجمال فتمثل يبدو جليا فى مدائنهم ودساكرهم ففى حفلاتهم وأعيادهم يدهش المرء لقدرتهم على خلق الجمال بأبسط الوسائل فمصابيحهم المنثورة وأوراقهم الملونة وأشجارهم المبعثرة مصدر جمال كبير كذلك أوانيهم الخشبية وأثاثهم وأرديتهم وما هى عليه من نقوش جذابة كذلك زخرفة منازلهم رغم بساطة بنائها مذ ترى الارض تكسى بالحصر من القش يزينها فى جوانبها أطار أسود وفى المحراب تعلق صورة متقنة الفن غاليه الثمن

وترى اليابانى يعنى بجمال المسكن ويهمل جانب الراحه فيه — على عكس الاوروبى — وكنت أعجب لهم كيف يطيقون المكث فى بيوتهم شتاء على وهنها وصفير الريح فى جوانبها وقعقعة أخشابها طول الليل ، وحتى بيوت الطبقات الوسطى فانها تكلفهم كثيراً بسبب العناية بتجميلها وهو لايبالى أ كانت مريحة أم لا لأنه شب متقشفاً ودرب على تعشق الجمال وتقديس الطبيعة التى يفهمونها حق الفهم ، ويقرأون فى الشجر والزهور والتلال معانى لانفقهها نحن وذلك بسبب طبيعة أرضهم فهى حديثة العهد الجيولوجى ليس بها من جبال ولا سهول تمتد إلى قصارى مسارح النظر كلا ولا جبال مهشمة الذرى بطيئة المنحدر فى البلاد الأخرى يقارب المرء الجبال والبحار تدريجاً ، لكن جلال الجبال وروعة المناظر تباغت الأنسان أينما سار فى اليابان فمن كل سهل أو وهدة هناك تبدو النجاد رائعة من كل جانب مما جعلهم يتعرفون من الذرى والغدران والجنادل والصخور الشيء الكثير وهم يعدونها ملاجيء للآلهة ، لذلك يحج الجماهير إليها فى الصيف فى أردية بيضاء وفى مساء ٣١ يولية يروقك منظر آلاف الحجاج فى (الكيمونو) البيضاء يغتسلون فى البحيرات التى تحيط (يفوجى ياما) المقدس من أسفله ثم يبدأون الصعود اذا انتصف الليل وبيد كل منهم مصباح مضيء فتبدو جموع المصابيح وكأنها عقود النجوم تتلألأ صعدا على جوانب الجبل ، وفى الذروة يفترش كل حصيره حتى الصباح لاستقبال الشمس المشرقة وفى البلاد كثير من أندية الحج يكتتب فيها الكثير تشجيعاً لزيارة تلك

الأماكن المقدسة، وحفلات استعراض الزهور ومراقبة القمر من أمتع مانراه في تلك البلاد .

ولقد ذكرت رحلتى فى أوروبا العام الفائت تلك البلاد التى هجرت تقاليدها وعقائدها ولم يصبح للعادة بين أهلها من أثر فهم أحرار يأتون مايروقهم فى غير قيد ، هناك كنت أرى الفرد مطلق الحرية يوكل أمره إلى شعوره بالمسئولية الأدبية حتى أن حكومته لاتلزمه بالتجنيد أن أرهقتها الضرورة لذلك وتظل رهينة اختياره وتطوعه ، أما فى اليابان فعلى النقيض من ذلك كنت أراها تجل تقاليدها وتتمسك بقوميتها التى تتلاشى أمامها حرية الفرد ذاك الذى يعد نفسه خادماً للجماعة خاضعاً لنداء الدولة فى كل آن فالعائلة أساس المجتمع وليس الفرد وللعائلة حقوق على أفرادها واجبة الأداء وعلى الفرد أن يضحى صالحه الذاتى فى سبيل الحرص على صالح الاسرة فهى التى تتصرف فى زواجه وتعليمه ومستقبله ومن لم يخضع حرم حق الانتساب إلى الاسرة فينبذه جميع الناس ، ويكاد لايوجد بينهم الولد العاق مطلقاً ، على أن زعماء الأسرة ليسوا مستبدين برأيهم بل الرأى شورى بينهم فتراهم يعقدون مجتمعاتهم لبحث مايعرض لهم فى هدوء ، والعائلة هناك تخفف كثيراً من أعباء الدولة لأنها تقوم بالفصل فى شئون عائلية هى من نصيب الدولة فى بلاد الغرب ولعل أظهر ما يبدو الفرق بين العائلة اليابانية والغربية فى الزوجية وميول الانسان الجنسية فالغربى يرى أن الحب أساس الرابطة الزوجية وعليه يتوقف صالح المجتمع كله، لكن اليابانى يرى أن هذا الحب



عروس فى زى الزفاف

لا ينطبق على المثل الأعلى
فله خطره وأثره المتلف المدمر
وهو يرى أن العلاقة الزوجية
لا يصح أن تبنى على رأى
الفرد بل المجتمع فهى إذن
ليست عملا فرديا ، فاليابانى
لا يرى فى امتزاج الفتيات
بالشبان ذاك المعنى الذى يراه
الأوربى وهو يحتقر ذلك
فلا يرقص الذكور مع الأناث
ولا يختلطون بهن طويلا
و إذا اعتزم الزواج اختار له
ذووه بعد أن يقصوا عليه نبأ
الفتاة فان قبل اتفقا على المواجهة (Miai) فى حضرة فريق من أقربائهما
فان أقرها انجزت مراسيم الزواج و إن لم توافقه فلعائلته حق الفصل فى الرفض
أو إرغامه على القبول على أنه كثيراً ما يعشق الصبي فتاة لكن ظروف العائلتين
تأبى الزواج فيلجأ الاثنان إلى الانتحار (Shinju) والغريب فى أمر الزواج
هناك أنه بعد أن يتم فى المعبد أو البيت يترك بدون تقييد رسمى لمدة سنة
فان ظهر عدم الوفاق خلالها صح الفراق أن رضى أهل الزوجين وإلا
لجأوا إلى القانون — والطلاق يبيحه القانون — فان رزقا بمولود خلال

تلك السنة تتبناه احـدى العائلتين أو عائلة أخرى لم تعقب والتبنى شائع فى اليابان لضرورة وجود ممثل للعائلة ان أعوزتها الذرية، وأعجب مايرى نظام التبنى هناك بين الرجل وأ كفأ موظفيه الذين يعاونونه فى العمل فهو يسارع إلى تبنيه كى يكفل نجاح العمل باطراد ، ولقد كان للعائلة حق فصل الزوجين رغم مابينهما من اخلاص وذلك اذا تعارض هذا الحب مع صوالح الأسرة ولقد بطل ذلك اليوم لـكنك ترى أثره فى احتقار القوم للزوج الذى يتفانى فى حب زوجته أو يرافقها فى ملهى عمومى حيث يصبح موضع تقريعهم وسخريتهم جميعاً

وقد يخيل للغريب ان المرأة محتقرة هناك والحقيقة انها فى دائرة اختصاصها أعنى تدبير المنزل وتربية النشء ذات سلطة مطلقة واحترام كبير ، أما فيما يختص بالمعاونة العلمية والفكرية فليس لها نصيب لأن وظيفتها زوجة فحسب عليها أن تطيع زوجها وتحترمه فأذا سارا فى طريق لايصح لها أن تتقدمه وليس لها أن تشاطره واخوانه مجلسه بل تقدم اليهم مايطلبون ثم تنسحب

وعلى الرغم مما خلفه خضوع الأفراد لأوامر العائلة من ضعف الاستقلال وقوة الابتكار فأن هذا النظام العائلى يحتم أن يأخذ الـكل بناصر من أصابه ضير من أفرادها حتى ولو تطلب ذلك جميع أموال العائلة لأن عجزها عن انقاذ أحد أفرادها خزى كبير ، لذلك لم تـكن اليابان بحاجة إلى ملاجئ أو شركات تأمين ضد البطالة ، ولقد صرح المستر (سوزوكى) رئيس اتحاد عمال اليابان بأن نقابة العمال هناك قوية رغم افتقارها للرصيد المالى الذى

تنفق منه النقابات فى ظروف الاضراب ذلك لأن الأعضاء يستمدون المال من عائلاتهم اذا ماأضربوا ، وخير مايبدو هذا التعاون عند حلول نكبات عامة كما حدث فى فاجعة زلزال سنة ١٩٢٣ حين تهافت جميع العائلات على تقديم المساعدة لذراريهم الذين كانوا يقطنون طوكيو فسهلوا بذلك وسائل الانقاذ والتعمير ، فالعائلة سند قوى للياباني يكفل له بعض رخائه وهذا ماجعل اليابانى أقدر الناس على تنظيم التعاون على أساسه القويم وهو الشعور منذ الصغر بأنه جزء من المسئولية الاجتماعية ، ويظهر ذلك النظام جلياً فى المدن والقرى وبين الهيئات الصغيرة وفى الأعمال التجارية والوظائف العامة فالموظف يشعر بأن العمل على انجاح المشروع الذى يخدمه من أقدس واجباته الاجتماعية وفى نجاحه فوزله وربح كبير من الناحيتين المادية والأدبية وقد كنت ألمس ذلك بنفسى بين موظفى القنصلية المصرية فى كوبى مذ كان تفانيهم فى العمل وانكبابهم على انجازه فائقاً كل حد وطالما كانوا يشغلون وقت فراغهم فيه رغم عدم تكليفهم بذلك ورغم مرتباتهم الضئيلة

فاليابانى خاضع لرؤسائه الذين تجب الطاعة لهم ولأنداده لأنه فرد منهم ولمن هم دونه مقاماً مخافة الرأي العام فكثيراً مايتنازل عن حقه مراعاة لذلك لأنه يؤثر أن يحسن جيرانه الرأى فيه على أية فائدة مادية ، حدث مرة أن دعا أحد وجهاء قرية صديقاً أجنبياً ليقيم عنده أياماً — وهم يكرمون الضيف ويقدرون الوجاهة والفخفخة قدراً كبيراً (يشبهوننا فى ذلك) — كان كلما خرج فى نزهة خلوية معه يتحاشى أن يستأجر من العربات أو

السيارات مايدل الناس على اسرافه فى غير مبرر وكان يركب الترام إلى قرية أخرى لايعرفه أهلها وهناك يستأجر مايشاء من السيارات اكراماً لصاحبه وذلك مخافة سخط أهل بلدته عليه كذلك حدث ان اثير غضب القوم على غنى أقام حفلات باهظة بعيد ميلاده فأمعنت الجرائد فى نقده وعدوا عمله هذا جرماً اجتماعياً ، ذلك مثل مما يوقف استبداد الغنى بالفقير فى اليابان رغم أن البلاد لاتزال تعوزها النظم الديمقراطية

و ينقد البعض خضوع الفرد وما له من أثر فى نقص الشجاعة الأدبية وقوة الابتكار حتى أن سخط الرأى العام كثيراً ما يوقف المصلحين أن يقوموا بالمنشآت القيمة التى لم تلمس سذاجة الجماهير مزاياها ومن هنا افتقرت اليابان بالعظماء فى الدين والفلسفة والآداب والعلوم ، ولقد زاد هذا الرباط الاجتماعى هناك الدين الشنتوى الذى يتلخص فى عبادة الطبيعة وتقديس الاجداد فعبادة الطبيعة زادت استمساكهم بأرضهم وتقديس العائلة زاد الرباط القومى فهم يقدمون قرابينهم لمعابد الآلهة لتشترك أرواح الأجداد فى استرضاء الآلهة ففى عيد اسمه (أو بون) فى أغسطس يعتقدون أن أرواح الأجداد تزور المعابد لذلك يجتمع حولها أفراد العائلة ويوقدون المصابيح والنيران ليتعجلوا مجيئهم ويشترك فى العيد أفراد الديانات الأخرى لأن الأمر مرتبط بالاجداد وكذلك يذهب سماسرة السندات كل سنة الى معبد هناك يزعمون أن الآلهة تدلهم فيه على أسعار الأوراق الجديدة وفى إحدى المدارس الكبرى للبنات يضلى الفتيات لآلهة (الأبر) التى حطموها

طوال عامهن ، وقبل أن يبنى البيت الجديد يطهر القسيس الأرض و يباركها كذلك تعلق الحوادث السياسية الكبرى أمام معبد (آلهة الشمس) جدة الأسرة المالكة وفى كل سنة يذهب رجال المطافئ الى معبد (إيسى) الشهير ليتوسلوا للآلهة ألا يصيبوا البلاد بالحريق كذلك تراهم يحجون زرافات إلى ذرى الجبال لآلهة المياه والصخور وما إليها

ولا تزال عادة تقديس الأبطال شائعة لديهم فمثلا اذا ضحى رجل نفسه كى يساعد ذويه فى كارثة نزلت بهم يعده أهل القرية إلها حتى فى مدة حياته اذا نجا من الموت فالجنرال (توجو) بطل الحرب الروسية اليابانية يعبدونه فى أيسى وكثير من الناس يحجون لزيارة روح الجنرال (توجى) وزوجته الذين انتحرا سنة ١٩١٢ احتجاجا على تقليد الغربيين بكثرة فى اليابان وحتى (تا كامورى) زعيم ثورة سنة ١٨٧٦ التى قامت ضد الحكومة لأنها أدخلت النظم الحديثة الغربية يجله القوم إجلالا كبيراً .

وللنظام الاجتماعى هناك أثر فى ميلهم للألفة والاجتماع ورغم أنهم حذرون فى مخاطبتهم للاجانب وعند ما يرد موضوع اليابان فى الحديث فانك ترى الواحد مخالطاً لجميع أفراد عائلته يقفون جميعاً على أسراره كلها لذلك كثيراً ما يتضايق الأجانب عند ما يفاجئهم بعض اليابانيين بالاستعلام عن أشياء شخصية أو عائلية لا تعنيهم قط وهم يعدون ذلك من قلة الذوق مع أن اليابانى يعده اهتماما منه بشأن من يخاطب

ولا يزال للطبقات عندهم أثر رغم التطور الذى أحدث إلا نك تعجب

إذ ترى عطف الممتازين على الطبقات الوضعية بالغا حده ، وكانت طبقاتهم أربعاً : رجال الحرب ويشملون الدايميو أو اللوردات والساموراى أوالفرسان ثم طبقة الزراع تليهم طبقة الصناع فطبقة التجار ولا تزال ترى فى البطاقات التى يملأ خاناتها نزيل النزل فقرة لكتابة الأسرة وطبقتها الى اليوم ، وكانت هناك طبقة دون هؤلاء جميعا أشبه بطبقة المنبوذين فى الهند تسمى (أيتا) ولا يزالون يحتقرون هناك الى اليوم ويظن أنهم فى الأصل سلائل الأينو وهم سكان اليابان الأصليون ولاتزال منهم بقية تمارس المهن الوضيعة من بينها الاشتغال بالجلود والذبح والسلخ والاعدام ولا يسمح لهم بالزواج إلا من طبقتهم وكان لهم حاكم عنهم يتصرف فى شئونهم ، وسر دنسهم هذا الدين البودى الذى يحرم القتل لذلك عد من ينفذ الذبح أو الاعدام نجسا وهم يكثرون فى مقاطعات خاصة فى الشمال اليوم وقد تصل مشاحناتهم مع جيرانهم من الطبقات الأخرى حداً خطيراً ولا يزال المزارع عندهم فى المرتبة الثانية كما كان قديما وقد كان المزارع يدفع ضريبة الأرض أرزاً واذا وقع عليه حيف من الحاكم كان الزراع يوفدون جموعاً منهم لملاقاة حكام العواصم (الشواجن) على أن الوصول الى أولئك كان متعذرا فكان بعض الزراع يتجاسر ويضحى بنفسه فى سبيل رفع الحيف ، حدث مرة أن ألقى أحدهم بظلامة فى عربة (الشجون) مخترقاً الحشد فى الطريق فأصدر الحاكم أمره بعقاب المتسبب فى الظلم من الحكام أولا ثم أمر بصلب الرجل المتظلم



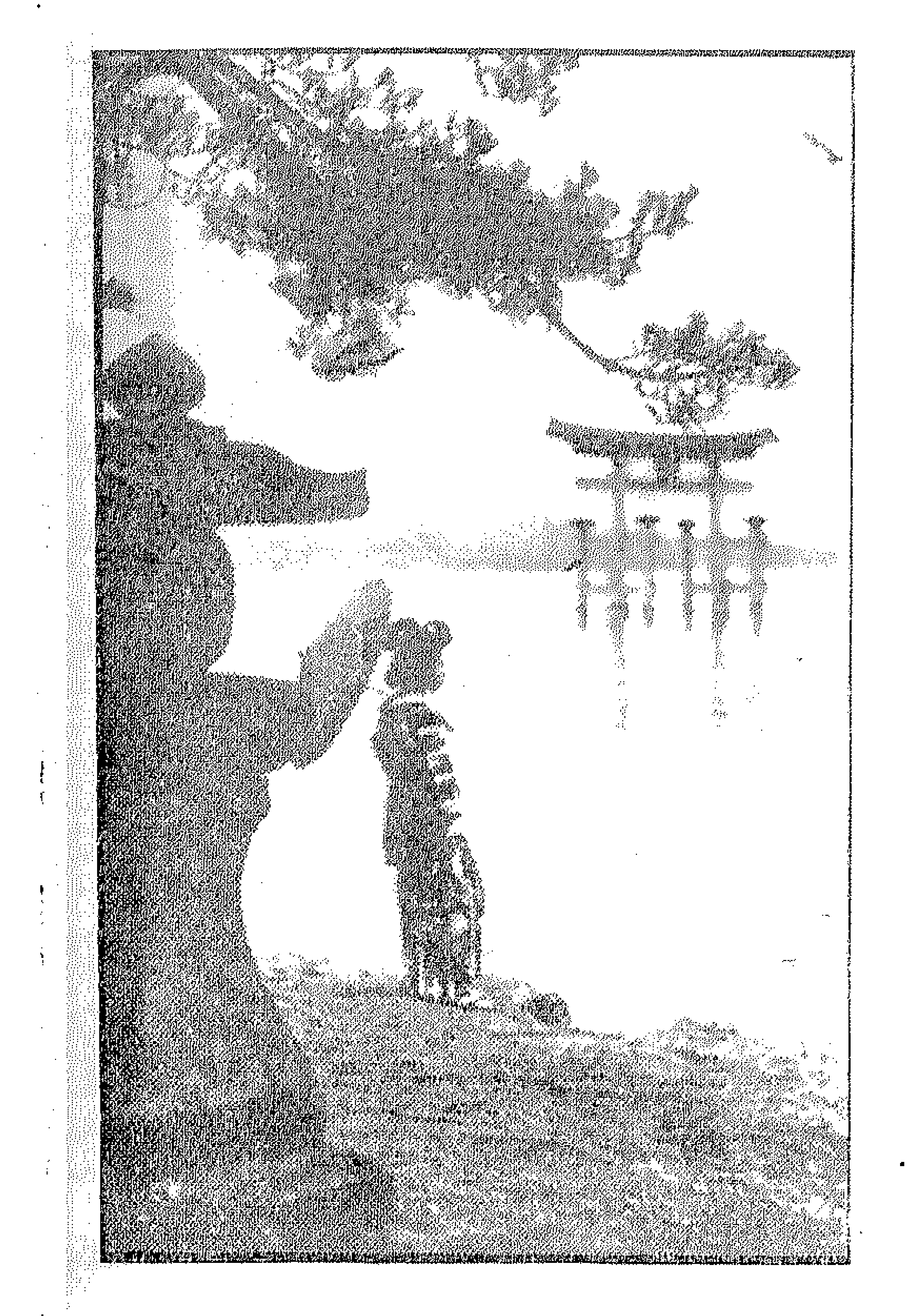
هو وزوجته وأولاده عقابا له على تجاسره هذا وردعا لغيره ، وكان فى قانونهم أن صاحب الذنب الكبير لا تنجو منه عائلته ! ، أما من اشتركوا معه فى التدبير فينفون من البلاد

هذا مثل من نظامهم الاجتماعى الذى ظل فى سواده سداً منيعاً فى وجه عوامل التغير رغم التطور المادى على أن الشباب اليوم مسرع فى طريق التحول وبخاصة منذ الحرب الكبرى ولقد شاطرت المرأة الرجل فى الأعمال الخارجة عن دائرة المنزل ولعل أخطر شىء يتهدد هذا النظام الاجتماعى المتين كثرة العمال فاشتغالهم فى المصانع يساعد على انحلال الروابط العائلية كما أن سهولة وسائل الانتقال ستزيل تعصب الفرد لبيئته وتخفف من عصبيته لقريته التى ظل محافظاً على تقاليدها

سيدة من الأينو سكان اليابان الأوائل وهم كلفون بتخضيب شفاههم

الى كوبى ثانية : غادرت أوزاكا مقر الثروة الصناعية الناهضة الفتية وعدت إلى كوبى وهناك زرت بعض متاجرها الكبرى الذى يعلو شامخاً فى السماء وفوق سطحه جلسنا قليلا بين فوارات المياه والحدائق المنسقة وهو شبيه أخيه فى طوكيو وقمت بجولة بعد الظهر فى ضاحية (أريما) التى ركبنا لها المترو زهاء الساعة وسط الربى والمسايل والغابات تتخللها الينابيع الحديدية التى يؤمها القوم للاستشفاء ولذلك قامت بها الأنزال على اختلاف طبقاتها ويجري تحتها جدول كثير الايات والجنادل ولا أنسى به مرآى شلالين متجانبين أحدهما أظهر كبرا وهنا كان تزاحم القوم شديدا لأنهما فى زعمهم يمثلان الذكر والأنثى ! وهنا قابلت أحد جماعة السوريين الذين يقيمون فى بلاد اليابان منذ زمان بعيد ويحتكرون الوساطة التجارية بين مصر واليابان وكم كان أسفى شديدا لما أن علمت بأن جل التجارة اليابانية التى ترسل الى مصر فى أيدى طائفة من هؤلاء الدخلاء تدر عليهم الارباح الطائلة وكان أجدر بالمصريين أن يبعثوا بمندوبيهم للشراء والاستفادة بتلك الاعمال التجارية التي تنمو على مر السنين نموا مضطردا

الى شيمونوزيكى : قمت من كوبى العاشرة والنصف صباحاً فوصلتها منتصف العاشرة مساء والطريق كله جميل تتعدد أنفاقه ويكاد يجانب شاطئ البحر فى نصفه الأخير ، وكان مشهد الجزائر المنثورة طوال الطريق رائعاً بديعاً ، وكانت تبدو القرى فى الوهاد أقل نظافة ورقياً من بلاد الشمال وأهلها أكثر سمرة وأقل رقة ، وكان غالب النبت من الأرز



أشهر البوابات المقدسة فى اليابان تتوسط مياه المد فى معبد مياجيما

والتوت القصير والخيزران والغابات ، وقد مال الجو هذين اليومين إلى الحرارة بعد أن كان جميلا متقطع السحب والمطر وقد علمت ان موسم الحرارة المتوهجة قد أبطأ قليلا عن ميعاده مذ يتوقعه القوم فى منتصف يوليه وقد كان ذلك التأخير من حظى ، وان لم يكن من صالح الزراعة لديهم ، وبعد ثلثى الطريق مررنا بمياجيما احدى آيات الطبيعة الثلاث الساحرة على البحر الداخلى بدت بوابتها الحمراء المقدسة وسط لجة الماء وهى أجمل بوابات اليابان طراً رأيناها وقت المد وكأنها معبد سابح والمعبد نفسه فوق ذروة الجبل به قبة من نحاس دونها موقد تعلوه نار لم يخمد أوارها منذ ألف سنة ! وعلى مقربة منها الغربان

لقدسة تصنق لها فتجىء لتأكل ماتقدمه لها وهى آمنة وقد بلغ من قدسية المكان ان الحكومة كانت تحرم بقاء المرضى وذوات الحمل به خشية أن ايموت المريض أو تلد الحامل فيصيب المكان دنس أو رجس

دخلنا شمونو زيكى ليلاومنها ركبنا البحر فى سابحة يابانية شبيهة أخواتها فى بحار دنمركة وظلت تمخر بنا عباب بحر اليابان طوال الليل وكان هادئاً جميلا لكنه فى الصباح فاجأنا بضباب كثيف أعقبه مطر وابل واضطراب غير مألوف أعاق سير السفينة فتأخرت ساعة عن دخول مياه فوزان ثغر كوريا الذى بدا ثغراً كثير الحركة ممدود الأرصفة غاصاً بالسكان يحكى ثغر بور سعيد عندنا

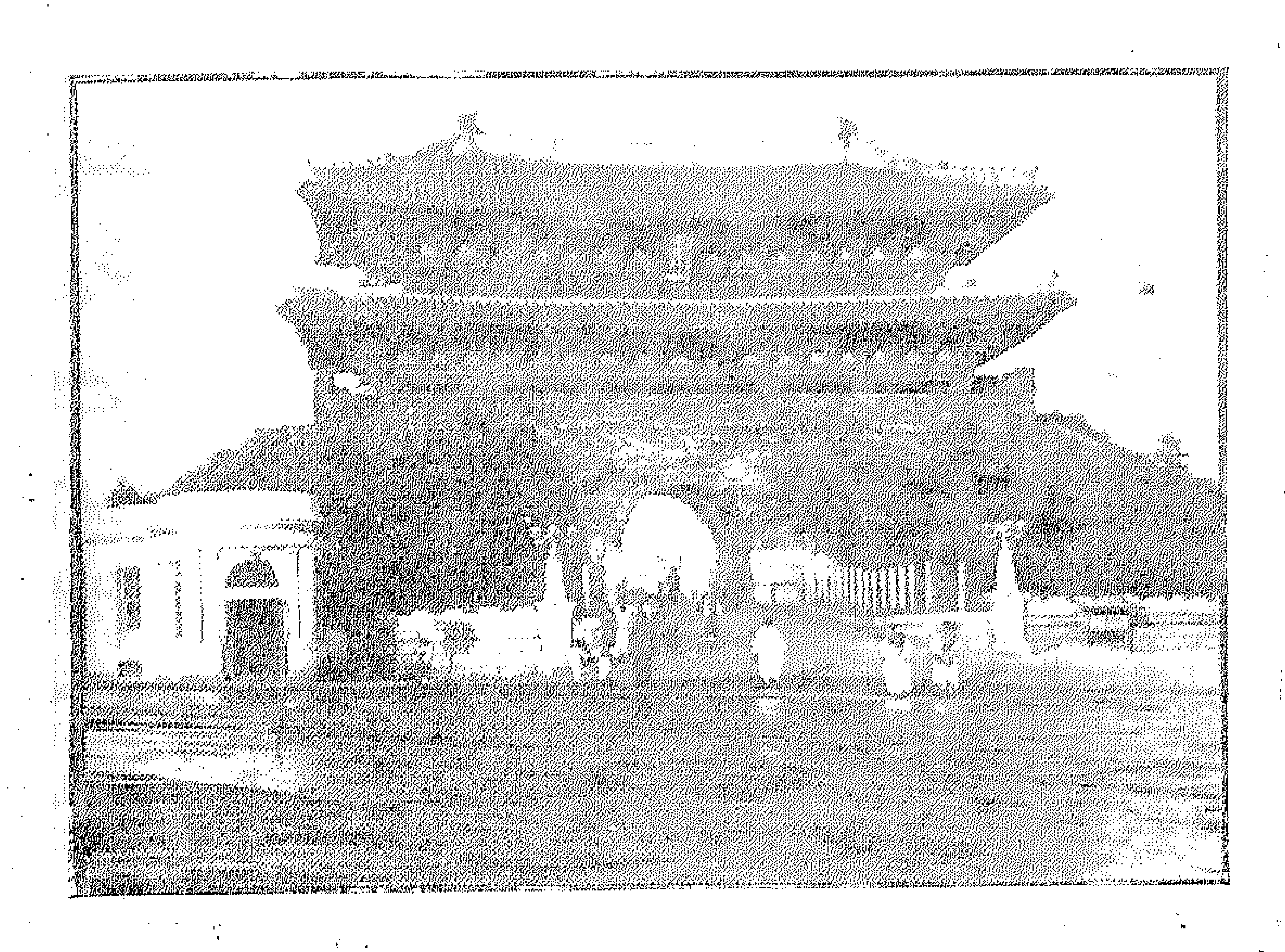
كوريا (وتسمى شوزن) ومعناها أرض الصباح الهادىء : قام بنا القطار صوب سيول عاصمة كوريا تلك التى وصلناها بعد عشر ساعات كاملات وكان الطريق كله جبلياً معقداً تفوق ذراه تلك التى فى اليابان لكنها أميل إلى الجدب إذ تكاد تكون عارية عن الشجر ، وكنا نرى مسانح ممتدة مهملة ويعزو اليابانيون ذلك إلى حكام البلاد الأوائل ، وتربة البلاد فقيرة على وجه العموم ويتخلل تلك الربى وديان تتلوى فى انحناءات عجيبة وتفيض بالماء وفى كوريا ستة أنهار عظيمة طامية تفوق تلك التى فى اليابان نفسها طولا وعرضاً وغالبها يجف موسم الجفاف عند مايقرب الشتاء وفى بطون تلك الوهاد تقوم القرى فى أخصاص تتجمع فى تزاحم كثيف ويبنى هيكلها من الخشب تكسوه طبقة من الطين والسقوف كأنها الأهرام أو النواقيس

من قش الأرز وهى فقيرة قذرة والطرق بها رديئة لاتخلو من الأوحال ، والبلاد عديمة السهول فهى فى جملتها وهاد على جوانب الوديان تزرع من الأرز والفول والتوت ، والفقراء هناك يأكلون الذرة أما الأرز فللأغنياء وأهل كوريا أطول قامة ووجوهاً من اليابانيين وهؤلاء أخلاط لأن سكان اليابان الأصليين كانوا من الأقزام ثم جاء الاينو وطاردوهم ولا تزال منهم بقية فى جزائر كوريل تناهز الألف وفى سخالين كذلك وفى هوكايدو تناهز خمسمائة وغالب الظن انهم قوقازيون يعزز ذلك لونهم الأبيض وشعرهم الغزير وهم زحفوا من الشمال أما من الجنوب فوفد على اليابان شعوب الملايو الذين يظهر أثرهم فى نظام المساكن التى لاتزال تحافظ على هندسة الملايو وكذلك فى ميلهم للاستحمام بالماء البارد وفى مهارتهم فى السباحة وإلى هؤلاء يعزى ضعف أسنان اليابانيين لأنهم كانوا ولا يزالون يأكلون فاكهة خضراء ضارة اسمها (بيزم) وكانوا يخضبون الأسنان باللون الأسود تلك العادة التى كان يتبعها اليابانيون إلى وقت قريب — أما الأينو فمن عاداتهم إلى اليوم تخضيب الفم لا الأسنان — ومن الغرب جاء المغول عن طريق كوريا (ومن هؤلاء تعلم اليابانيون الاغتسال بالماء الحار) ومن كل أولئك نشأ اليابانى الحالى ، ويعزز الصلة بأهل الملايو عادة اختلاط الرجال بالنساء تلك التى تحرم فى بلاد الصين كذلك أثرها فى اللغة فاليابانية والكورية خليط من الملايو وغيرها ، أما لغة الصين فلم تتأثر بها قط ، وقد عثر الباحثون على كثير من مقابر شبه سويسرية فى كوريا دون اليابان مما

يعزز علاقة الكوريين بأوروبا . ولقد ظلت كوريا بين نارى الصين واليابان وتعرضت لغزواتهما المتتابعة

ظل القطار ينهب الأرض بين تلك الجبال المعقدة التى كان يشقها بانفاق لاحصر لها ، وكان جو يومنا جميلا خفف من حره وابل المطر ، ذلك الذى يتأخر موسمه قليلا عنه فى اليابان ، وغالب الجبال هناك حديثة العهد تمتد امتدادا طوليا مما يؤيد خضوع البلاد للضغط الشديد الذى تسببه اغوار البحار التى لا تزال تزيدها قوة الخفض عمقا من حولها إلى اليوم . وأخيرا دخلنا :

سيول : وهى كلمة كورية معناها العاصمة ويسميها اليابانيون (كيجو) ومعناها العاصمة أيضا والمدينة لا بأس بتنسيقها بها كثير من المبانى الفاخرة والشوارع القيمة ، وان كان خير ما راقنى سوقها الضيقة كثيرة الأضواء دائبة الجلبة كأنها أسواق البلاد اليابانية على أنى بدأت ألاحظ أن (الكيمونو) أخذت فى القلة إلى جانب تغير السحن والازياء والأحياء الوطنية ضيقة قذرة تتصاعد منها الروائح المنتنة والصبية يلعبون بالاوحال وتعرض كثير من المأكولات فى شكل تعافه الاعين من بينها شمام أصفر كانه القثاء وخوخ كبيرالحجم تعوزه الحلاوة وأهم بقايا سورالمدينة القديمة بوابة (نانديمون) أقيمت سنة ١٣٩٣ وكانت ترى بقايا السوروهى تهبط الوهاد وتعلوالنجاد وكأنها سور الصين ، ومما استرعى نظرى فى ناحية من أمهات طرقها ناقوس عظيم ظل معلقا فى مكانه هذا تحت غطاء من



بوابة (نانداعون) القديمة فى سيول

خشب فى الهندسة الصينية زهاء ٥٤٠ سنة وكان يدق فى باكورة الصباح فتفتح أبواب المدينة وعند المساء فتوصد وبعد الساعة التاسعة مساء ليسرع الرجال إلى اخلاء الطرق للنساء كى يترييضن والويل لمن تخلف منهم ولعل أجمل ماهنالك :

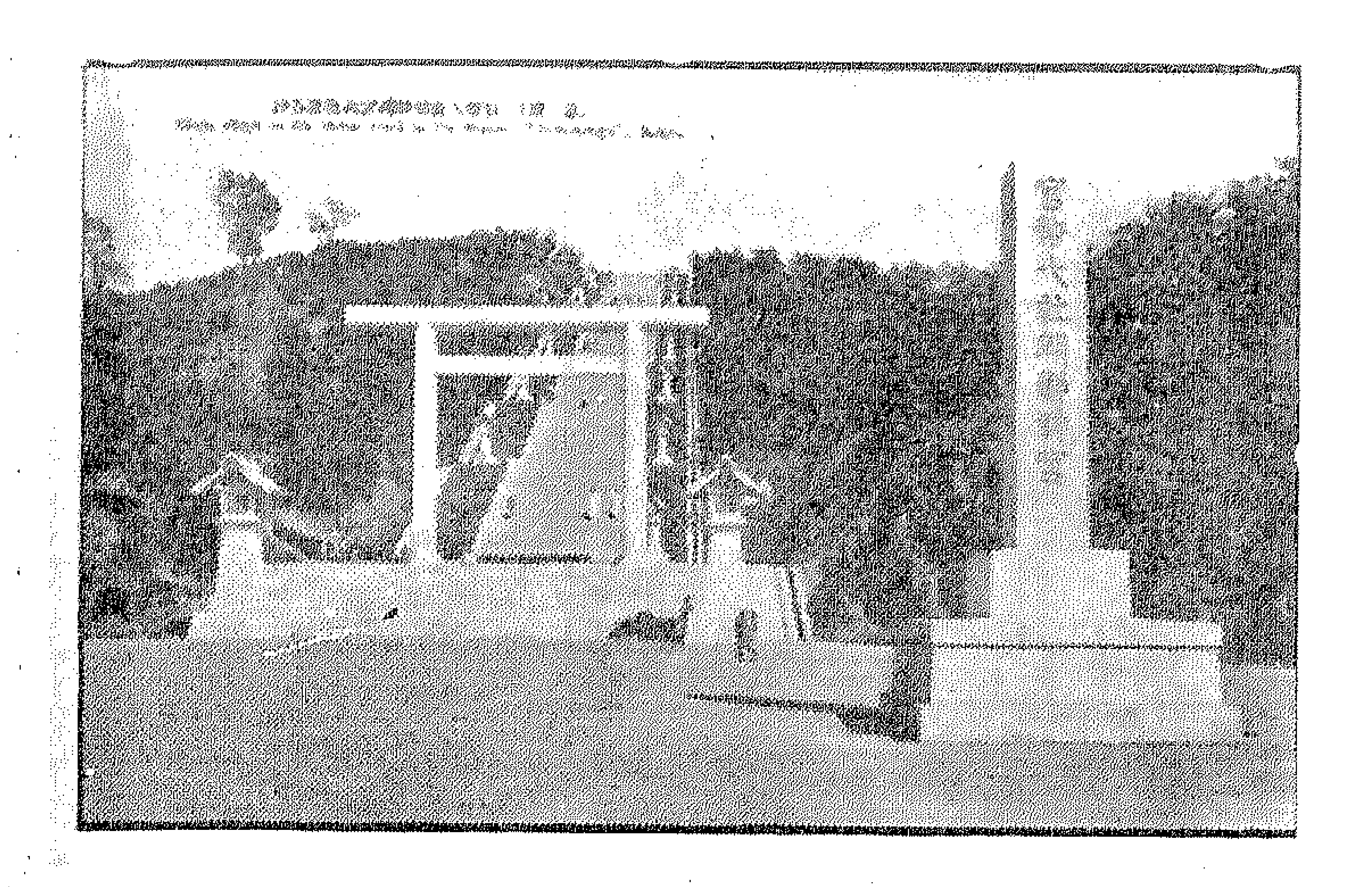
القصر الشمالى : شيد خلال القرن الخامس عشر ثم احترق خلال الحرب اليابانية سنة ١٥٦٣ لكن أعيد سنة ١٨٥٠ بأمر الأمير (تايبون كون) الذى أثقل كاهل الناس بالعمل ودفع الضرائب لانجازه ويحيط به سور من حجر وخشب فى الخرط الصينى الجميل وفى وسطه تنتشر المقاصير الأنيقة وأجملها ثلاث : مقصورة العرش ومقصورة الاجتماعات

ومقصورة الحفلات وهذه تتوسط بحيرة تصلها بالبر قناطر جذابة ولذلك سميت أحيانا بمنزل الصيف وفى حديقة القصر سفك دم آخر ملكة لكوريا سنة ١٨٩٥ وأحرقت جثتها ، وبجوارها المتحف التاريخى ويحوى مجموعة صغيرة من آثار كورية القديمة من حلى وأوانى وأسلحة وتماثيل وأهم معابد المدينة :



على شرفة مقصورة الحفلات فى قصر سيول (كوريا)

معبد شوزن : فوق ربوة مشرفة اعتليناها بسلم شاهق تحفه المصابيح الحجرية والمعبد أقيم على النظام الشنتوى ويبدو منظر المدينة من دونه رائعاً لأن (سيول) كلها فى وهدة تحيطها الربى و يطوق زهاء نصفها نهر هان الصغير يطل عليه متنزه (نانزان) الجميل ، ومن المبانى التى يفاخر بها اليابانيون دار الحاكم أقيمت من رخام كوريا المجزع بديع النقش وكذلك دار البريد ودار البلدية



معبد شوزن أخر معابد سيول

وأول من اتخذ المدينة حاضرة له مؤسس أسرة (يى) فأحاطها بسور اشتغل فيه ١٩٠ ألف عامل لمدة شهرين فى الربيع ومثل هذا العدد من النساء فى الخريف حتى بلغ امتداده خمسة عشر كيلومترا وعرضه ستة أمتار وارتفاعه كذلك وما فتئت المدينة تتضخم حتى ناهز سا كنوها اليوم ثلث المليون وهم أخلاط من الكوريين واليابانيين والصينيين وأظرف ما يسترعى نظر السائح أردية الرجال والنساء فالأحذية من قماش أبيض يلتوى طرفها المدبب الى السماء وجواربهم بيض يعلوها (بنطلون) وصدار للرجال وقد يرتدون فوق ذلك كله عباءة من قماش جامد منتفخ بما أشبع من (النشا) ورداء النساء كذلك ويزيد حزام ضيق فى وسط الجسم وقبعات الرجال مضحكة منفرة فهى أشبه بقمع أسود مقصوص من أعلاه وله حافة قصيرة



أزياء الرجال فى كوريا وأعجب ما فيها قبعاتهم

كأفريز القبعة وتحته قلنسوة تلبس محكمة فى الرأس فتبدو القبعة نفسها ولا تكاد تستقر فوق الناصية لولا شريط يربطها بما تحت اللحية والرجال المسنون يطلقون لحاهم وشواربهم فى شعرها الخفيف الذى يطول فيتدلى الى جوانب الفم وترسل اللحية مدببة الطرف مما يزيد أشكالهم سخرية وقد كانت هذه أردية اليابان من قبل أن يظهر الكمونو بشكلها الجذاب.

الى منشوريا : منشوريا قطر شاسع تقارب مساحته مساحة القطر المصرى بصحاريه أو نحو ثمانية وعشرين مرة قدر مجموع أراضينا المنزرعة ،


حسناء كورية فى ردائها القومى

وتربتها من أخصب أراضى الدنيا وهى أكثر بلاد الشرق الأقصى ملاءمة للزراعة أذ لا تقل الأراضى الصالحة للزراعة عن نصف مساحتها أي نحو سبعين مليون فدان وأخص ماينمو هناك اليوم نوع من الفول اسمه (صويا) عظيم المادة المغذية (٤٠ ٪ بروتين) ولزيته قيمة كبيرة وقدفاق الصادر منه أخيراً مليون طن فى العام ومن الغلات الهامة الحبوب الأخرى والطباق والكتان والحرير ، ومراعيها لاتقل عن ١٥ مليوناً من الرءوس وغاباتها تكسو ٢٥ مليون فدان هذا إلى دفائنها المعدنية الهائلةفالفحم يمتدفى طبقات سميكة و بعضها يعلو الى سطح الأرض و يعمل المعدنون فيه فى الهواء الطلق. البقد كان لسكة حديد منشوريا أثر عظيم فى بدء التقدم الاقتصادى فى تلك وللاد الغنية التى أضحت مطمح أنظار كبار المولين من اليابان وأمريكا وهانحن نرى ما جرته المطامع من حروب لاتزال مستعرة إلى اليوم ،

ومجموع سكان البلاد ٣٥ مليونا تسعون فى المائة منهم من الصينيين ، والنقود الصينية هى المتداولة فى أنحاء البلاد عدا المنطقة اليابانية على طول الخط الحديدى و فى مكدن العاصمة حيث تستعمل النقود اليابانية والكورية

ولا نعلم عن ماضى منشوريا البعيد شيئاً سوى بعض الغارات التى كان يشنها القبائل تباعا هناك وفى سنة ١٢٦٠ ضم جنكيز خان البلاد للصين وزاد نفوذ المغول وأسسوا دولة المانشو وفى سنة ١٦١٦ قام أحد أبنائها (نولوهاشى) وفتح مكدن وحارب الصين ثم جاء خلفه ففتح كوريا وسمى أسرته (تسنج) أى أسرة الأصفياء . أعقب ذلك اضطراب فى الصين لم يسعها أزاءه إلا أن تطلب معاونة المانشو الذين فتحوا بكين وآل الملك اليهم سنة ١٦٤٤ وظل فى أيديهم ٢٩٦ سنة على أن الدم الصينى ساد أهل منشوريا بحيث لايكاد يفرق المرء اليوم بينهم و بين الصينيين فى السحن والعادات والأخلاق . و فى القرن التاسع عشر امتد النفوذ الروسى إلى المحيط الهادي وأقيمت سكة حديد سيبريا الى ڤلاديڤستك وعلى أثر حرب الصين مع اليابان تدخلت الروسيا ومُنحت امتيازاً بمد سكة حديد شمال منشوريا وقطعة من كوانتونج و بعد ذلك بعشر سنين هزمتها اليابان فتنازلت لها عما تملك فأضحى ماللبابان اليوم هناك ١٣٠٠ ميلا مربعاً يضاف إلى ذلك منطقة السكة الحديدية إلى پورت أرثر ودايرن الى أجل ٩٩ سنة وللشركات اليابانية هناك من السكك الحديدية ٦٨٦ ميلا الى ذلك كثير من الفنادق والمصانع والمنشآت الاقتصادية وهى بحجة المحافظة على كل أولئك تبرر

موقفها ضد الصين فى النزاع الذي نقرأ عنه اليوم

قمت إلى مكدن عاصمة منشوريا فوصلتها فى ثلاثين ساعة وخلفت ورائى سيول بأزيائها المختلفة من يابانية جذابة وكورية مضحكة وصينية منفرة فأخذ القطار يخترق أنفاقا لا حصر لها وسط جبال معقدة تشقها الوديان تكسوها الخضرة وكان يظهر على أهل البلاد الجهل المطلق والفقر المبيد فى قذارتهم وكثرة السابلة والمتسولين وكنا كلما قاربنا منشوريا انفسحت السهول وظهر نبات الذرة والفول وندر الشجر ولم تكد تغيب الجبال عن الأنظار إلا قرب مكدن حين أضحت المناظر شبيهة بمناظر مصرنا الغالية والسكان هنا أندر منهم فى كوريا وفى كوريا منهم فى اليابان يؤيد ذلك قلة القرى والمساكن التى كنا نجوزها ، وبمجرد أن اجتزنا الحدود عند (شنجيشو) أخرنا ساعاتنا واحدة كى نتمشى مع زمن الصين ، وهنا أقبل رقباء الجمارك وفتشوا الحقائب فى رفق ثم عبرنا نهر (يالو) وهو الحد بين القطرين و بدت بيوت منشوريا بالحجارة والطين أما الخشب فنادر لندرة الشجر هناك أما المروج لمرعى الخيول والماشية فمترامية وكان بعض القوم يحرثون الأرض بمحاريث تجرها الأبقار على الطريقة المألوفة فى مصر وأخيرا عبرنا نهر كونجا من أكبر أنهار منشوريا ثم دخلنا :

مكدن : ويسميها اليابانيون (فنجتين) يفوق سكانها مائتى ألف وهى ثلاثة أقسام البلدة الحديثة أو اليابانية وعددها ٩٠٠٠ وقد أقامتها اليابان على مقربة من محطة سكة الحديد التى أرغمت الصين على تركها لها بعد



البوابة الرئيسية فى مكدن عاصمة منشوريا

الحرب الروسية هى وما جاورها من الأرض وتليها شرقا المستعمرة الأجنبية وتعدادها ستون ألفاً وبها مساكن الأجانب وغالب القناصل والى شرقها المدينة الصينية القديمة يحوطها سور عظيم له بواباته العاتية التى لم تفتح أبوابها للأجانب إلا سنة ١٩٠٦ وهى مسقط رأس أسرة المانشو التى سادت الصين لمدة ٢٩٦ سنة حتى قامت اليوم على انقاضها الجمهورية الصينية وها قد أعلنت اليابان الجمهورية فى منشوريا تحت حمايتها وترأسها امبراطور الصين السالف فان تم ذلك نهائيا انفتح المجال أمامها لاستغلال تلك البلاد المترامية ويتوسط المدينة قصر عظيم الامتداد فى هندسة صينية وفى داخله متحف حوى بعض مخلفات تلك العصور ، وطرق المدينة متربة قذرة ودورها واطئة متهدمة وهنا أذكر أنى هممت بأخذ صورة للسور واذا بالجندى يقتادنى قهرا إلى دار البوليس وبعد تحقيق طويل وحركة صاخبة فى التلفون تركت لهم عنوانى وأفرج عنى بعد أن أخذوا عهداً ألا أعود للتصوير قط وكان يخالنى البوليس انجليزيا ، فلما علم أنى مصرى تسامح معى كثيراً وذلك يظهر مبلغ نقمتهم على الأجانب ، أما المدينة اليابانية ففاخرة فى مبانيها وطرقها ،



سيدات منشوريا وأعجب ما فى ملابسهم رداء الرأس

وقد أقاموا فى أكبر ميادينها نصباً تذكارياً لاحتلال اليابان للمكان وتكاد تكون فى هندستها ومتاجرها وأضوائها يابانية صرفة حتى أسماء المتاجر واعلاناتها تكتب باليابانية وهنا بدت النزعة الاستعمارية الجائرة التى تنتحيها اليابان أما شبان الصين لحانقون أشد الحنق عليهم وعلى سائر الأوروبيين والأجانب ولهم فى ذلك الحق لأن بقاءهم لاشك يخدش عزتهم القومية وأظهر الأجانب فى المدينة من الروس الذين يسهل مجيئهم عن سكة حديد سيبيريا ، ومما راقنى خارج السور برج صينى (باجودا) يرجع عهده إلى ألف سنة فى اثنى عشر طابقا وهو مائل ونصف متهدم وترى على جوانبه

بعض التماثيل الفنية لبودا وهى بارزة ومن الاماكن الجديرة بالزيارة مدافن أسرة المانشو على ربوة تكسوها الأحراش وأجلها مقبرة الامبراطورتاتسونج ثانى حكامها يحوطها سور عظيم وفوقها نصب نقشت عليه فضائل الموتى وتقوم على شبه سفينة من حجر تحتها المدفن وحولها عدة مقاصير وتماثيل لحيوانات مختلفة تشعر بالرهبة خصوصا اذا دخلنا الباب الاول ثم ارتقينا منه الى الثانى ثم علونا الى الثالث فى مسافات مترامية

والاحياء الوطنية قذرة تكسو طرقها طبقات من تراب تغوص فيه العجلات ويثور فيطمر كل شىء والناس فى قذارة والاطفال عراة يعبثون بالأتربة والاوحال والعاطلون فى كل مكان وسيماء الفاقة تبدو على وجوههم جميعاً والمتسولون لايحصون عداً

الصين

بلاد العجائب والاسرار الغامضة



نبذة تاريخية :

لم يدون لنا التاريخ شيئا عن الصين قبل سنة ٧٧٠ ق م لكنا نعلم من طريق الرواية والتقاليد أن أبناء هان حلوا الهوانج هو وقام عليهم زعماء أشداء علموهم فلاحة الأرض ومبادئ الحضارة وفى سنة ٢٦٩٧ ق م أدخل امبراطورهم الكتابة واخترع الطباعة وعلمهم بعض أنغام الموسيقى ، ومد نفوذه الى البحار الشرقية شرقا و إلى اليانج تسى جنوباً وتبعه حاكمان (تاءوتى و ستون تى) أقاموا الأسواق وقاوموا الفيضان ووسعوا نطاق الامبراطورية حتى أن كنفوشيوس قدسهما فيما بعد وعدهما مثال الفضيلة والحكمة وعد هذا

العصر الزاهر (عصر الصين الذهبي)

اعقب ذلك عصر أرهاب ومظالم تحت أسرة هسيا لمدة ٤٣٩ سنة تبعتها أسرة شانج التى أعادت النظام بعض الشيء وحكمت ٦٤٤ سنه ثم جاءت أسرة شو التى حكمت ٨٦٧ سنة فقام وووانج وقسم البلاد على أقربائه وقواده ومنحهم ألقاب شرف عديدة وهنا ازدهرت الفنون والآداب وأصبحت البلاد زراعية وامحت آثار البدو كلية وهذا يعد عصر الأدب الصينى الذى اتخذه كنفوشيوس نموذجاً لمثله العليا

كثرت غارات البرابرة فاستقلت الاقطاعات عن الحكومة الامبراطورية وسادت الفوضى وعم الفساد فقام كنفوشيوس يبشر بفضائله سنة ٥٥١ ق م وكذلك لاوتسى ومنشيوس

وفى ٢٥٥ ق م قامت أسرة شو فألغى الامبراطور النظام الاقطاعى وقسم البلاد الى ٣٦ مديرية يديرها حكام يعينهم هو وهنا أقيم السور الأعظم ليرد البرابرة وقد أحرقت كتب الأدب وقتل مئات من أتباع كنفوشيوس لمعارضتهم لتلك السياسة فأهاج ذلك غضب الشعب وخلعوا تلك الأسرة وأقاموا (ليوبانج) مؤسس أسرة هان فازدهر الأدب وامتد سلطان البلاد خصوصا تحت الامبراطور ووتى وقد فتحت المواصلات مع الهند لأول مرة فدخلت البوذية سنة ٦٧ ميلادية واستعيدت تعاليم كنفوشيوس ونقشت على الصخور و بدأ استخدام المداد والورق وأقيمت المكتبات ونبغ كثير من العلماء وفى أخريات تلك الأسرة ثار عليها ثلاثة

قواد حكموا البلاد وطوحوا بها إلى الفوضى وسمى عهدهم (عصر الممالك الثلاث) حتى جاءت أسرة تشن بين ٢٦٥ — ٤٢٠ وفى عهدها هدد الهون والروم البلاد وأوفد رسول من القسطنطينية الى عاصمة الصين وقيل ان تسمية البلاد (الصين) ترجع الى اسم تلك الاسرة وهى أول من اتصلوا بالعرب والفرس والهند وقال بعضهم أن الاسم محرف عن (تسان) أى الحرير أو أرض الحرير ، وأعقب تلك عدة أسرات صغيرة ظلت ٢٠٠ سنة وآخرتها (أسرة سوى) وهى التى حفرت القنوات العدة لتصل بين الأنهار المختلفة وفى هذا الزمن نقل رهبان أوربا صناعة الحرير لأول مرة الى جنوب أوربا ثم جاءت أسرة تانج ٦٢٠—٩٠٧ وثانى ملوكها نشر العدالة والعلوم وأصلح قانون العقوبات ورد جنوده البواسل هجمات البرابرة والاتراك وفى مدتهم امتدت الصين من بحر قزوين الى المحيط الهادى ووفد السفراء من الروم والفرس واليابان وكوريا فانتعشت التجارة بينهم وقد شجعت الطباعة بالحروف نشر الأدب و بلغت الحضارة شأوها

، وتبع ذلك خمس أسرات ضعاف جاءت بعدها أسرة سونج (٩٦٠ — الى ١١٢٧) فكافح أول حكامها (تاى سو) عشرين عاما ليوحد البلاد وسمى عهده (عهد أوغسطس الصين) ولكن سرعان ما هاجمهم طوائف من التتار (تشى ثان) و بعدهم (نوتشين) ثم خضع الجميع لجنكيز خان الذى اجتاح المديريات الشمالية برجاله البواسل من المغول فمهد السبيل لحفيده كو بلا خان الذى أسس أسرة يوان سنة ١٢٦٠ وظل هؤلاء الاجانب

حكام الصين لمدة ١٠٧ سنة فوظفوا كثيراً من الأجانب من بينهم ماركو بولو الذى أعطى أور و با أول فكرة عن الصين وأخضعوا الصين كلها و كوريا وجزءاً من الهند الصينية وحاولوا فتح اليابان لولا عاصفة أودت بأساطيلهم على أن الصينيين تخلصوا من هؤلاء الأجانب وأقاموا أسرة :

منج (ming) ١٣٣٠ — ١٣٦٧ التى أعات النظام وعاضدت الفن والأدب ونشرت مذاهب كنفوشيوس حتى جاءت أسرة (تشنج ching) من منشوريا تؤيد الأسرة السالفة لكنها سلبتها الحكم (١٦١٦ — ١٩١٢) واتبعوا نظم الحكم القديم حتى قامت الجمهورية سنة ١٩١٢ بقيادة الدكتور (سان يات سين) الذى أهاج الشعب ضد المانشو فقامت الثورة ولجأ المانشو إلى بكين وتركوا أمر الحكم للجمعية الوطنية فانتخب الدكتور رئيس الجمهورية وأشرك الامبراطور وقائده يوان شى كاى فى الحكم لكن بعد استعفاء الدكتور تآمر الامبراطور على استعادة مركزه لكنه فشل بفضل مقاومة الشعب من جهة والأجانب من جهة أخرى خصوصاً تدخل اليابان وتقديمها مطالبها الاحدى والعشرين سنة ١٩١٥ وبعد موت يوان (١٩١٦) قامت الجمهورية فى بكين لكن الدكتور سان أقام حكومة معارضة لها فى كانتون ، وانضمت الصين للحلفاء فى الحرب الكبرى (١٩١٧) ونظير ذلك قاوم الحلفاء نفوذ اليابان فى الصين ، لكن حكومة الصين ظلت ضعيفة أمام القواد الحربيين الذين لا يزالون يقتتلون إلى اليوم على أن الحكومة الوطنية أوشكت أن تتم انتصاراتها ويزيد الشعور بالقومية يوماً فيوماً والنفور

من الأجانب بالغ أشده وهم يطالبون بأجلاء الأجانب كلهم عن بلادهم جميعها ومن الحوادث التاريخية الهامة التي حدثت في الصين حديثاً :

حرب الأفيون : (١٨٤٠ — ١٨٤٢) حين قاومت الصين دخول الأفيون إلى بلادها فأتلفوا ٢٠ ألف صندوق في كنتون فتحرجت الحالة بينها و بين التجار و وقعت لذلك الحرب بين الصين وانجلترا ، فهزمت الصين وأجبرت أن تدفع ستة ملايين من الريالات ثمناً للأفيون و ١٥ مليوناً على سبيل الغرامة مع ترك جزيرة هنج كنج لانجلترا ، وفي معاهدة نانكنج هذه أرغمت الصين على فتح ثغورها للتجار الأجانب (خصوصاً كانتون وشنغاي وفوشو)

حرب اليابان : (١٨٩٤ — ١٨٩٥) قامت بسبب المنافسة على امتلاك كوريا وكان النصر حليف اليابان لكن الحلفاء وقفوا في سبيل مطامعها

عصيان الملاكمين (bozer) : (١٩٠٠) قام الصينيون بطرد الأجانب الذين هددوا الوحدة الصينية مذ امتلاك الألمان كياوشاو والروس پورت ارثر ودايرين و بريطانيا واي هاي واي و ٥٠٠ ميل في كولون تجاه هنج كنج وفرنسا كوانج شاو وان تجاه جزيرة هينان ، فهاجموا الأجانب وحاصروهم لكنهم هزموا

وفي حرب اليابان مع الروسيا (١٩٠٤ — ١٩٠٥) احتلت اليابان سكة حديد منشوريا وضمت كوريا نهائياً

الى بكين (ومعناها العاصمة الشمالية) حللت الدرجة الثانية من القطار السريع فبدت قذرة منفرة غالب ركابها من الأجناد والرعاع ومقاعدها من خشب قاسي ممض وكان القطار يطيل الوقوف على جميع المحاط وكنا نرى صفوف الجند شاهري السلاح طوال الطريق والى جوار سائق القطار وعند مدخل كل عربة مما أشعرني بأن البلاد تتحفز لحرب حامية الوطيس وهي تلك الحرب الطاحنة التي تدور رحاها اليوم في تلك البقعة من منشوريا أما مناظر الطريق فظلت سهولا طوال الطريق تكسوها منابت الذرة والفول وكلما أوغلنا في البلاد زاد البؤس والشقاء وكنا نرى صفوفا من المتسولين يصيحون استجداء في جلبة مزعجة كلما وقف القطار ، وكان يلفت النظر استدارة أدمغة القوم تلك التي بدت متحدرة الجباه مشطورة الخلف بدرجة تثير الدهشة هذا الى تباعد بصيلات الشعر الذي ينمو في استقامة كأنه شوك القنفد ولذلك اضطر كل من يرسل شعره الى استخدام الأدهنة الملينة حتى يبدو أملس براقا ، وتلك مميزات الجنس الأصفر المغولي

وكم كانت تضايقني كثرة البصق والتجشي والتمخض في كل مكان وبين كافة الطبقات في شكل تشمئز منه النفوس كذلك الخشونة التي كانت تبدو في طباع الناس وشتان بين آداب اليابانيين السامية وجفاء هؤلاء .

بكين : أو بيبين (Peipin) كما تسمى اليوم ومعناها السهل الشمالي :

بعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا بكين عاصمة بلاد الصين بعد أن اخترقنا

سورين من أسوارها الشامخة التى أقيمت من الآجر الأسمر الـكبير و بدت بعض بواباتها الضخمة التى تتلاشى أمامها بوابة (زويلة والفتوح) عندنا . هنا أقلتنى (ركشا) بحقائبى إلى النزل لأنى لم أكد أعثر على سيارة لندرتها فى تلك البلاد بسبب مزاحمة الانسان فى الجر والحمل لها ، تفقدت خريطة بكين فاذا بها مدينتان : المدينة التتارية والمدينة الصينية يفصل بينهما سور ضخم ومساحتهما معاً ٢٥ ميلا مر بعاً يطوقهما سور من بناء أصم، سور المدينة التتارية يمتد ١٣ ميلا وعلوه ٣٧ قدماً وسمكه بين ٦٤ و ٥٢ أما الصينى فأصغر قليلا و بين كل ١٨٠ قدماً شبه قلعة وتخترق الأسوار ١٦ بوابة يواجه كل بوابة بناء نصف دائرى تقوم عليه الأبراج السامقة بنوافذها المسلحة وقد علمت أن كل مدنهم تقام على هذا الأساس وهذا قسم خاص بالتتار من المسودين وهم المغيرون من سلائل المانشو الذين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالصينيين وهم الرعايا الذين كان عليهم أن يأتمروا بأمر التتار و يلقبون (بعبيد التتار) وعلى الصينيين أن يمونوا أهل المدينة التتارية بالغـذاء والضرائب رغم أنهم قد يبلغون العشرين ألفاً وقد عرف أولئك التتار أخيراً بالخمول والـكسل فهم يحتقرون العمل و يرونه خاصا بمن هم دونهم مقاماً من الصينيين لذلك كنا نرى بقاياهم يقتلون وقتهم جلوساً أمام دورهم يدخنون غلايينهم و بيد كل قفص يضم مهواته (غيته) المحبو بة من الطير حتى النساء اللاتى يسرفن فى التدخين حتى فى سن العاشرة وقد قيل أن متوسط ما تستهلـكه السيدة من الطباق عشرون سيجاراً كبيراً فى اليوم ذاك الطباق الحار القوى

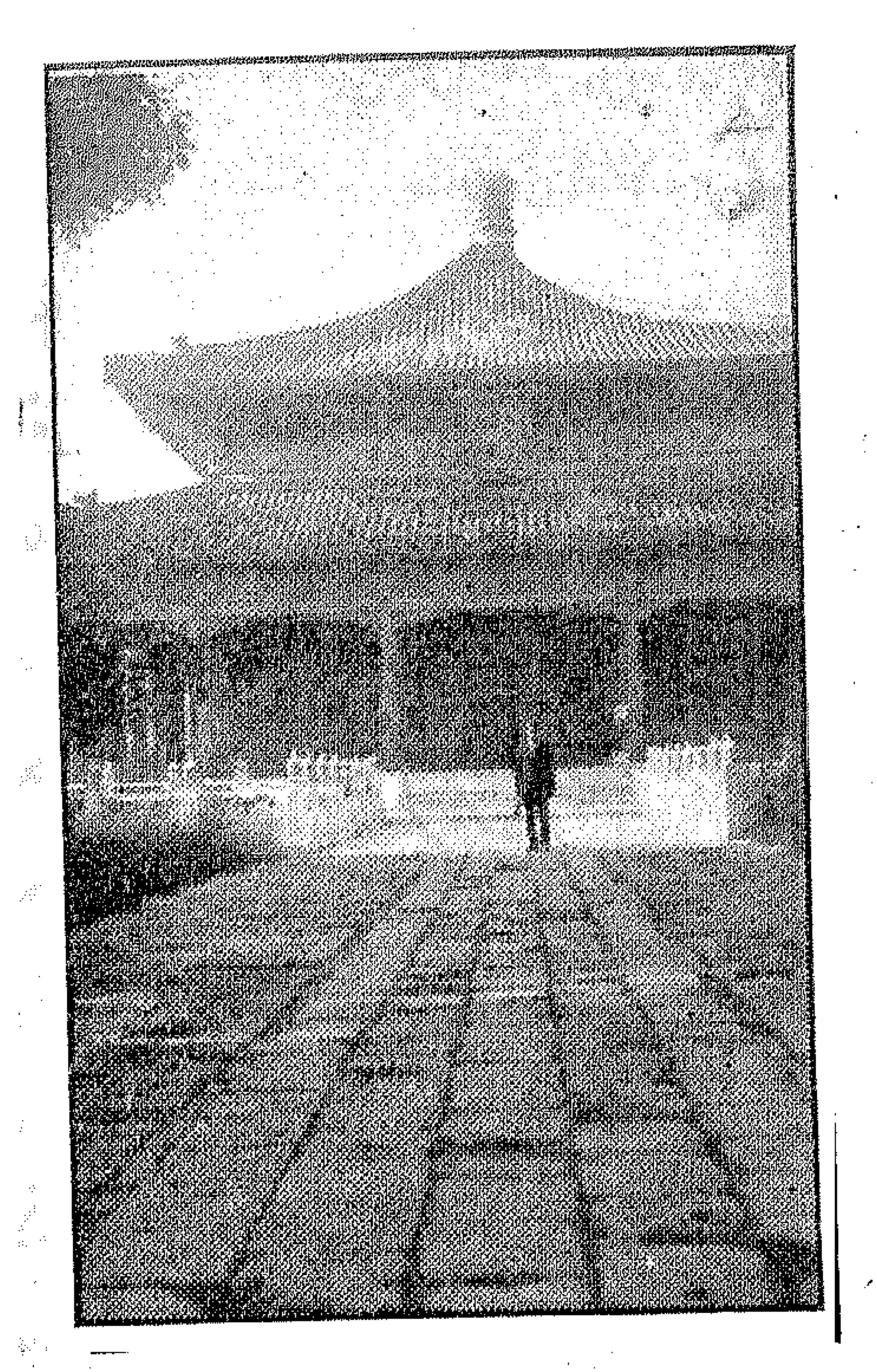
الذى يخلف أثره السيء فى صحتهن وفى فساد رائحة أفواههن جميعاً

ظل أهل الصين خاضعين لهؤلاء الدخلاء من سلائل المانشو من التتار خضوعاً مخزياً يدل على انعدام روح المقاومة بينهم تلك التى نشطت قليلا أوائل القرن الحالى و بدت فى شكل ثورة سنة ١٩١١ حين هاجمهم الصينيون وأبادوهم وذبحوا أبناءهم وتخلصوا من نيرهم مذ كانوا يعيشون عالة عليهم .

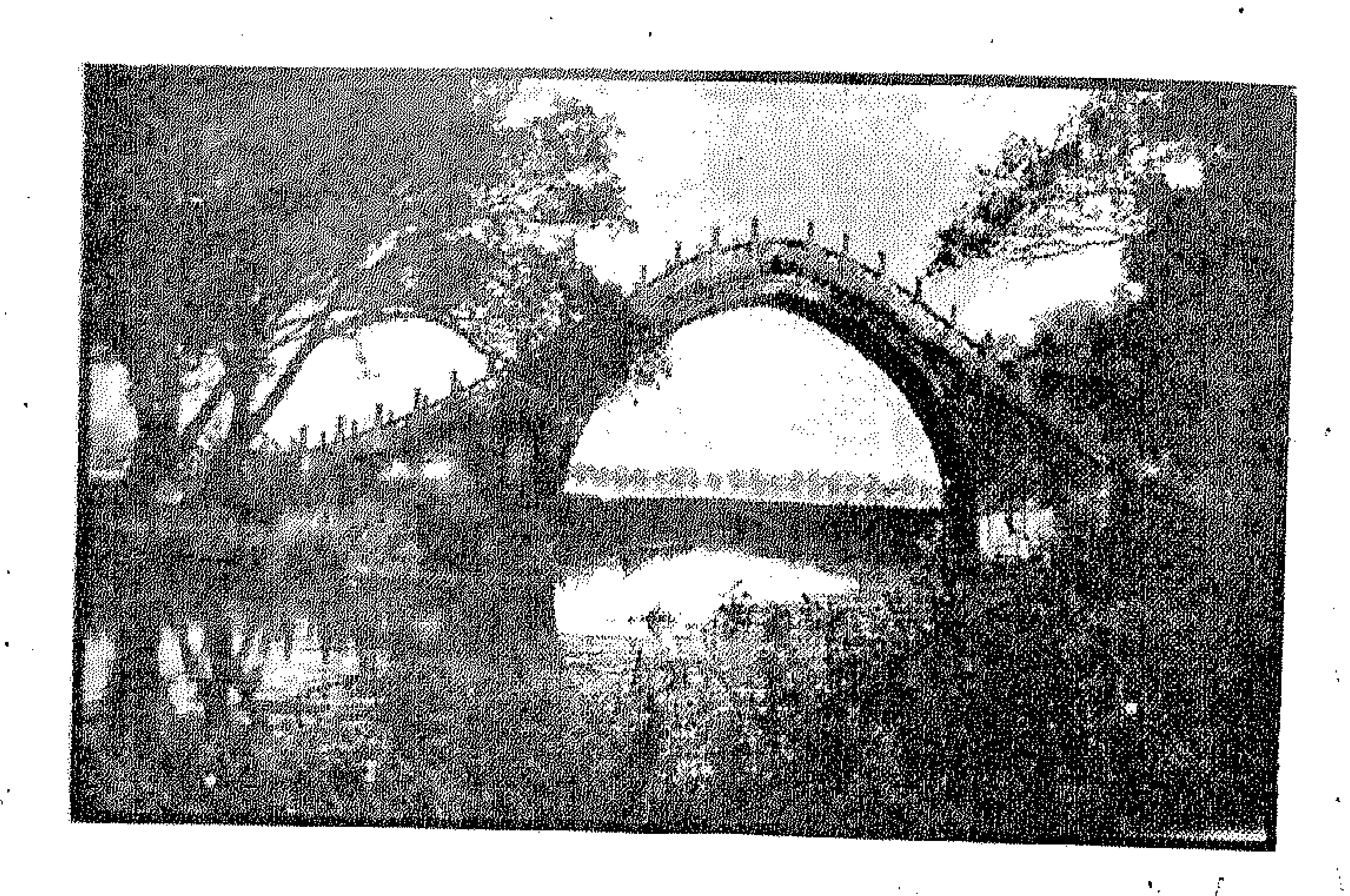
والمدينة التتارية تقام فى شكل (حدوة الفرس) تقديراً لخيلهم وتفاؤلا بها مذ كانت مطيتهم التى أغاروا بها على البلاد لما أن وفدوا من صحارى القرغيز ومنغوليا و يتوسط المدينة عادة بيت القائد تؤدى الشوارع الرئيسية إليه وتنتشر حوله المعسكرات

وفى بكين تتوسط المدينة التتارية مدينة أخرى يسمونها المدينة الأمبراطورية لها سورها الخاص وكانت مقر الاسرة والحاشية وكبار رجال الدولة ومن داخل هذه أيضاً : المدينة المحرمة مركز الدنيا فى زعمهم يتوسطها عرش التنين ذائع الصيت ذاك الذى جلس عليه ملوك المغول والصين والمانشو على التعاقب وحولها سور من الخزف الاصفر البراق

بدأت جولاتى بالمدينة المحرمة وذرعها ٩٠٠ متراً فى ٧٠٠ ببواباتها الأربع التى تخترق السور البراق فتؤدى إلى مجموعة لا حصر لها من مقاصير فى الهندسة الصينية الجذابة تكسى سقوفها المنحدرة المقوسة بالخزف الأصفر ويتخلل حديقتها الفسيحة المتسعة قنوات عليها قناطر محدبة من رخام أبيض ساطع بناها الأمبراطور (Yunglo) فى القرن الخامس عشر واتخذت مقراً



للأمبراطور وأسرته وكانت محرمة على الجمهور إلى سنة ١٩٠٠ حين دخلها الأوربيون عنوة وأرغموا الصين على فتحها للجميع وأفخر الحجرات حجرة العرش وحجرة الولائم وحجرة المعرض تتقدمها جميعاً الردهات من الرخام نعلوها بسلم فاخر وفى قلب الغرفة الوسطى عرش (التنين) المشهور فى خرط من الخشب المرصع والمقاصير الخلفية كلها كانت مسكن الأسرة أمام مقصورة العرش فى المدينة المحرمة (بكين) والحاشية وهى اليوم معارض بها من النفائس الفنية القديمة ماقدر بثلاثين مليون ريال من بينها أشغال الخرط الممتازة وتماثيل من أحجار كريمة وساعات مرصعة وخرط مطعم من العاج والخشب وحروف الطباعة القديمة وآلات موسيقية من بينها (بيان) كأنه (القانون) من أوتار سبعة يرجع عهده إلى ١٥٧٣ ثم مجموعة من أسلحة ودروع وسروج ، والمفروشات قيمة لدرجة تشهد للصين بالماضى المجيد وتخلد اسمها فى عالم الفن ، وبخاصة أعمال الخزف رصعت بالمعادن



قناطر الصين المحدبة

وازدانت بالجواهر فى زخرف واتقان لايكاد يصدقه العقل ، وهناك قسم للتصوير والنقش على الورق والحرير والخشب بعضه بالالوان والبعض بالتطعيم إلى كثير من المخطوطات الصينية القديمة ، ومما أدهشنى معروضات الشبه (البرنز) التى ترجع إلى سنة ١٧٦٦ ق م ورغم ذلك فهى تكاد تحكى اتقان عصرنا هذا .

وفى جانب من المكان حمام لخليلة الأمبراطور (Chiang Lung) وكانت مسلمة اسمها (Hsiang Fei) وهو شبيه بالحمام التركى مقبى السقوف تحوطه مقاصير متداخلة وكلها من الخزف البراق ، وبالايجاز فالمدينة ساحرة جذابة الهندسة جديرة بسكنى الجبابرة الأولين ، وفى ركن من أركان المدينه المحرمة قسم كان يسكنه (كو بلاخان) نفسه ويسمى (المدينة المستديرة)

وخير ما هنالك تمثال لبودا من حجر اليشب ناصع البياض براق فى حفر بديع وتقاطيع جذابة ويعد من المخلفات الفنيه النادرة حتى قيل أنه وحده يبرر زيارة لبكين من أقصى الأرض .

معبد كنفوشيوس : عظيم الرحاب وعديد المقاصير التى أقيمت للتعبد وطلب العلم والحكمة يتوسطها الهيكل وبه لوحة نقش عليها اسم كنفوشيوس أخص معبودات الصين وتحوطها فى جوانبها ألواح أخرى عليها أسماء البراطرة الذين تعبدوا طوع تعاليمه وقد ألفت نظرى فى المدخل تسعة طبول ضخمة من صخر عليها نقوش صينية منذ أسرة شو (١١٢٢ق.م) وفى فنائه الشاسع بهو الحكمة(Hall of Classics) بأعمدته الممتدة وهناك ترى بقايا كتب كنفوشيوس نقشت على ألواح الحجر

وكنفوشيوس فيلسوف عاش فى الصين بين ٥٥٠ و ٤٧٨ ق م كثرت فى عهده الجرائم وانحطت أخلاق الناس فقام يبشر بالفضيلة على أنه لم يدع أنه مكلف بتبشير رسالة آلهية فجمع تقاليد أجداده وصاغها فى قالب أدبى فلسفى وكان يعنى بصفة خاصه بالروابط الاجتماعية ويحتم تقديسها و كان يقول بأن المجتمع نظام آلهى يقوم على خمس : علاقة الحاكم بالرعية والزوج بزوجته والوالد بابنه والاخ الاكبر بأخيه الاصغر والصديق بصديقه وكان يفرض فى تعاليمه وجوب الطاعة فى غير مناقشة وبخاصة فى العلاقات الأربع الأولى كما يحتم على الحاكم العدل والرحمة والاخلاص ولم يشر فى تعاليمه الى آله خاص وكان ينصح تابعيه أن يترفعوا عن التفكير فى عالم الارواح

وألا يتوقعوا شيئاً فى الدار الآخرة ولقد كان لتعاليمه كثير من الفضل على الصين من ناحية الاخلاق لكنه قتل فيهم الطموح والنظر إلى المستقبل وهو أس النهوض فخلف فيهم مدنية راكدة ظلت أجيالا ولم تخط إلى الامام قط ، ولازال أساس التعليم هناك يقوم على وصاياه وكتبه الادبية الفلسفية وكان ولا يزال يستظهره الجميع حتى الاطفال المبتدئون على أن عهد الجمهورية الحديث بدأ يدخل شيئاً من التغيير على هذا النظام العتيق

قصدت أحد المعابد البودية واسمه معبد (اللاّما) وهو أحد المذاهب البودية الذى يستمد الوحى من المعبد الرئيسى فى هضبة التبت وكانت قد حلت البلاد منذ أسرة (يوان) وكان القسس يلبسون الأردية الحمراء لكن حولها براطرة (المنج) الى الأردية الصفراء ، ومن هنا سميت أحياناً بالديانة الصفراء ، أما كلمة لاما فمعناها (سامٍ) فى لغة التبت ، وأول ما ظهرت الديانة البودية فى القرن الأول الميلادى محاولة أن تتم النقص الذى أهمله كنفوشيوس وبخاصة جانب القيام بالشعائر وجانب الرجاء فى ثواب الآخرة ، ولقد اعتنقها كثير من عامة الشعب وترى معابدها فى طول البلاد وعرضها لكنها مهملة والقسس فيها جهلة يحتقرهم الأغلبية وبخاصة الطبقات الممتازة ، وما هى فى نظرهم إلا الشعوذة بعينها ، دخلت المعبد ويخالونه مقر روح بودا فبدت مداخله رائعة ممتدة وتتوسط فناءه تماثيل لحيوانات بشعة غريبة وفى الوسط تمثال لبودا نحت فى جذع شجرة واحدة وعلوه ستون قدماً ، ورأينا كثيراً من المباخر من الحجر والبرنز ، وعجلة التعبد النحاسية التى تدور بانتظام وتعطى

أصواتاً فى فترات متساوية يمكن للمتعبدين أن يقرأوا أورادهم وراءها ، وصادف أن كنا هناك الساعة السادسة مساء وهى ساعة الصلاة فرأينا جموعا غفيرة من الأطفال والشبان والكهول يخرجون من سراديبهم وعليهم العباءات الصفراء وفوق رءوسهم قبعات كأنها عرف الديك أو منقار الببغاء ثم أقبل رئيسهم وهم جلوس تحت أقدام بودا وأخذ يطوف بهم وبالتمثال ويصيح صيحات مزعجة وهم يرددونها وراءه فى مشهد رهيب ، وأذكر هنا وأنا خارج أن أقبل قسيس يعرض على قطعة من حرير منقوشة ادعى انها أثرية قديمة وكان يخفيها بين طيات ثيابه مدعياً انه سرقها ويرجونى الاسراع فى البت فى شرائها خشية أن يراه أحد وهو زعيم دينى ! فقلت يالله الى متى يعيش الانسان فى تلك الظلمات ! طائفة من الدجالين يحتمون تحت ستار الدين فيعيشون عالة على بسطاء العقول وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ، وأخص مايسترعى نظر علماء الاجتماع فى غالب عقائد الصين أنها تحتم الطاعة العمياء لرجال الأدب وللمتقدمين فى السن وبخاصة الآباء حتى عدت أرواحهم مقدسة بعد مماتهم فكان من سيئات ذلك أن هم كل فرد بالزواج المبكر كى يلد أكبر عدد ممكن من الأبناء الذين يحيون ذكراه ويوفرون لروحه السعادة بما يقدمونه من قرابين ومن لم يستطع القيام بذلك لفقره وجب على المحسنين أن يعينوه بمالهم حتى يستطيع أداء واجبه ومن لم يعقب اضطر أن يتبنى من ذرية الغير ، لذلك كثرت ذراريهم الى درجة جعلت تنازع العيش بينهم ممضا ذاك التنازع الذى أدى الى سياسة الابتزاز

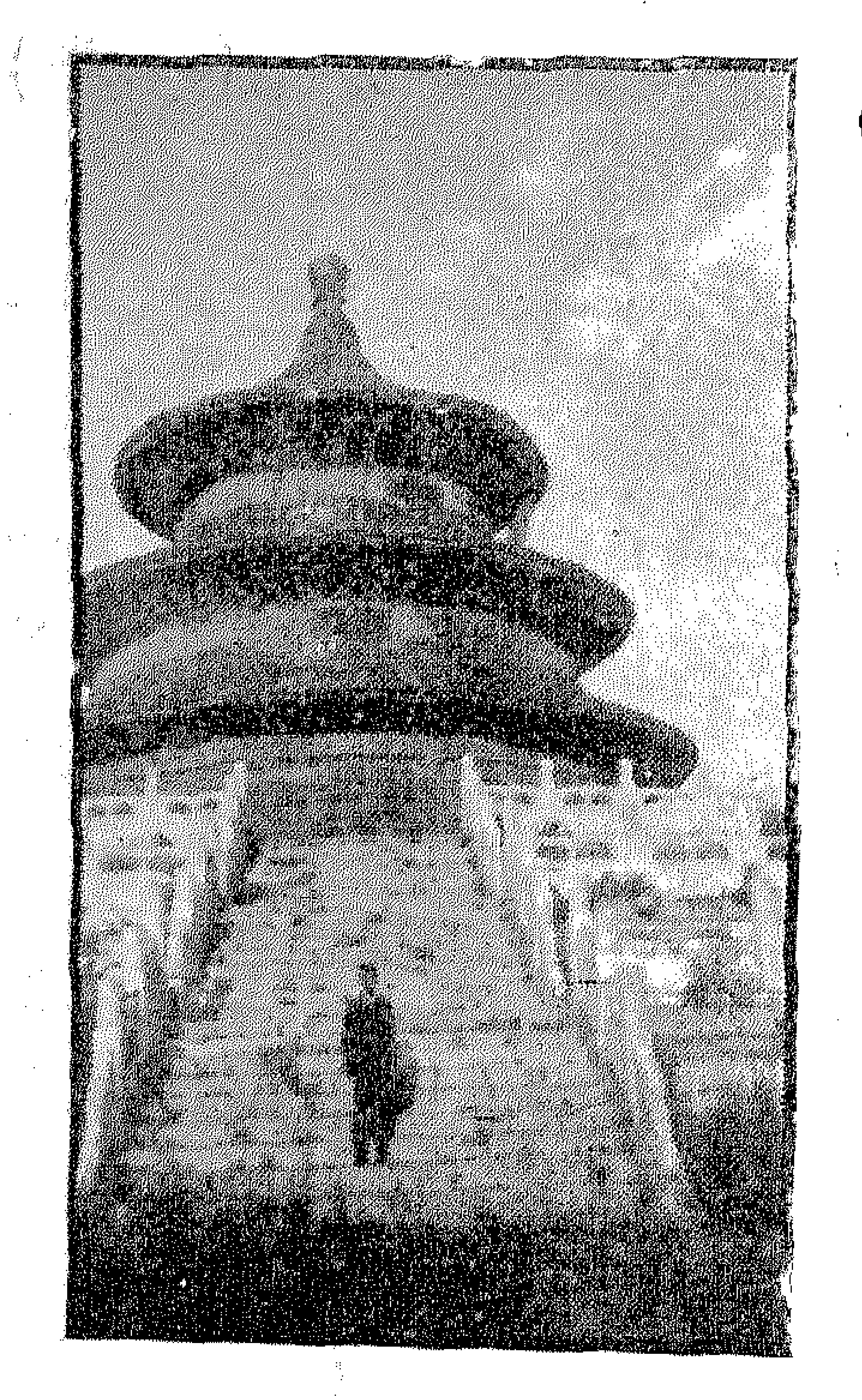


النعش المرصع يسير فى حفل كبير

الممقوتة التى عرف بها أهل الصين جميعا فكل فرد يحاول ابتزاز المال ممن هو دونه وكان مجال الرشوة لديهم فى كل الأعمال فرضا لازما حتى ضاعت فى سبيلها قوميتهم وفترت حماستهم الوطنية ، هذا الى اعتقادهم فى العفاريت التى أثرت حتى فى أبنيتهم فلا يصح أن يعلو البيت جاره ولا أن تقام القناطر إلا ملتوية محدبة ، وأن تلتوى السقوف فى أطرافها إلى السماء كل ذلك دفعا للجن ولعل لذلك الخوف أثره فى اهمال التعدين خشية أزعاج الجن فى بطن الأرض ، ويرمى الأجانب أهل الصين بأنهم أسرى موتاهم فالولد يجب عليه أن يعرض التابوت الذى سيدفن فيه والده بعد موته فى أفخر ردهة من البيت ولا يفتأ يزيد فيه نقشاً وترصيعاً وكثيراً ما يستدين الولد كى يفى بهذا الواجب المقدس فاذا مات الأب اشترى له ماء الغسل من

الخارج وارتدى المشيعون القماش الابيض واستشير العرافون فى تخير ميعاد يلائم الدفن ولذلك فكثيراً ما تبقى الجثة فى البيت طويلا وان حل بالعائلة سوء عزوه الى سوء اختيار مكان الدفن وميعاده وعندئذ يحمل التابوت عشرات من الناس يتقدمهم حشد يحمل كل لوحة نقشت عليها ألقاب المتوفى ومزاياه ويجب أن يكون مظهر الجنازة فاخراً مهما كلفهم ذلك وألا كان عاراً لايمحى ومن أعجب ما لاحظته بين المشيعين طائفة تحمل طبولا تقرع بشدة وآخرون يحملون تماثيل بشعة لنساء ورجال تقرب من النعش لدفع الجن عنه أما النعش ففى لون أحمر براق تزينه أهداب القصب وترصيع الذهب الثقيل مما أذكرنى بعادة أجدادنا الفراعنة

على أن الصين أبعد الدول عن التدين والصينى معروف بعدم العصبية الدينية وهو ضعيف الأيمان والثقة بالآلهة لذلك يغيرها كل يوم لأنه يراها غير عادلة تنزل العقاب جزافا ولاتستجيب دعاءه وبلغ من احتقاره إياها أنه إذا تخلف المطر أوقف البخور لها وقد يضربها بالسياط أو يلقيها فى النهر وكلما حلت نكبة ببلدة ما اتهم آلهتها بالعجز فغيرت وان انتصروا فى الحرب مجدوا آله الحرب وأقدس آلهتهم آله الأدب، وقد يخدع الصينى الآلهة فيقدم لها الورق المفضض والمذهب بدل النقود وكثيرا ما كنت أراه منظوماً فى حبال تعلق داخل المعابد ، حدث مرة أنهم حملوا الآلهة وطافوا الطرق فى وقت انتشر فيه الوباء فلما لم يفد ذلك أغرقوها وافترضوا أن بدء عامهم كان شؤما فيجب تغييره فأقاموا حفلة بدء السنة من جديد ويسود أذهانهم



التفاؤل والتشاؤم حتى أنهم يحتاطون فى الحديث خشية أن تبدو كلمة منفرة تتخذ نذيراً للشؤم على أن لديهم الذى يقدس فلسفة الأجداد فضلا عليهم مذ ساعد على حفظ كيان الصين رغم ما أحاطها طوال العصور من عوامل الهدم والانحلال

معبد السماء :

وهو أفخر ما رأيته فى بلاد الصين جميعاً عظيم الرحاب شاهق البنيان دقيق الهندسة تحوطه أسوار ثلاثة من

على سلم معبد السماء أفخر آثار بكين

خزف أزرق طول أكبرها ثلاثة أميال ونصف بنى سنة ١٤٢٠ على قسمين معبد السماء ، ويقوم على مساطب مدرجة دائرية الشكل ومن الرخام الوضاء يحوط كل درجة سياج بأسنان باسقة وفى وسط أعلاها يقوم المعبد من الخشب فى شكل برج صينى (باجودا) بديع الخرط والنقش تكسوه قبة من خزف أزرق تقوم على أعمدة شامخة كأنها أعمدة الكرنك لكنها من خشب مطعم

(باللاكيه) فى اتقان عجيب جئ بها من أشجار (أوريجون) الأمريكية كى تحتمل عبء البناء السامق فوقها ، وفى وسطها موضع العرش تحوطه شواخص حجرية لذكرى تسعة من البراطرة والقسم الثانى يسمى مذبح السماء وهو كذلك فى ثلاث مساطب مستديرة من رخام أبيض قطر أسفلها ٢١٠ قدما والمسطبة العليا مكشوفة للسماء وكانت تمثل قبة السماء وهنا كان يركع الامبراطور ويعترف بأخطاء شعبه ويرجو آلهة السماء لهم الغفران وفى وسطها كانت تقدم الذبائح

وهذا المعبد رائع الجمال فاخر البنيان لدرجة تجعل أثره فى ذاكرتى خالدا وهو وحده خير مبرر لزيارتى للصين وتحوطه غابة كثيفة من أشجار الأرز يبلغ عمر بعضها ألف سنة

معبد الزراعة : على مقربة من معبد السماء أقيم تذكاراً للملك الخيالى (شن ننج) الذى حكم الصين منذ ٣٠٠٠ سنة ويخالونه أول مخترع للمحراث وحوله حقول شاسعة كان يجئ الامبراطور بنفسه ويبدأ الحرث فى أوائل الربيع من كل عام وكلما أكمل محراثه ثلاثة خطوط تبعه ولاة الأقاليم وألقوا فيها البذور على أن يد الزمان قد نالت منه كثيرا فلم تبق منه اليوم إلا أطلالا بالية

وبين معبد السماء ومعبد الزراعة ردهة مترامية كانت ولاتزال تستخدم لتنفيذ حكم الاعدام فى بكين، ويعرف الصينيون بالقسوة الشديدة فى تنفيذ أحكامهم فالاعدام عادة يكون بقطع الرأس بالسيف وكان الاص الى أمد

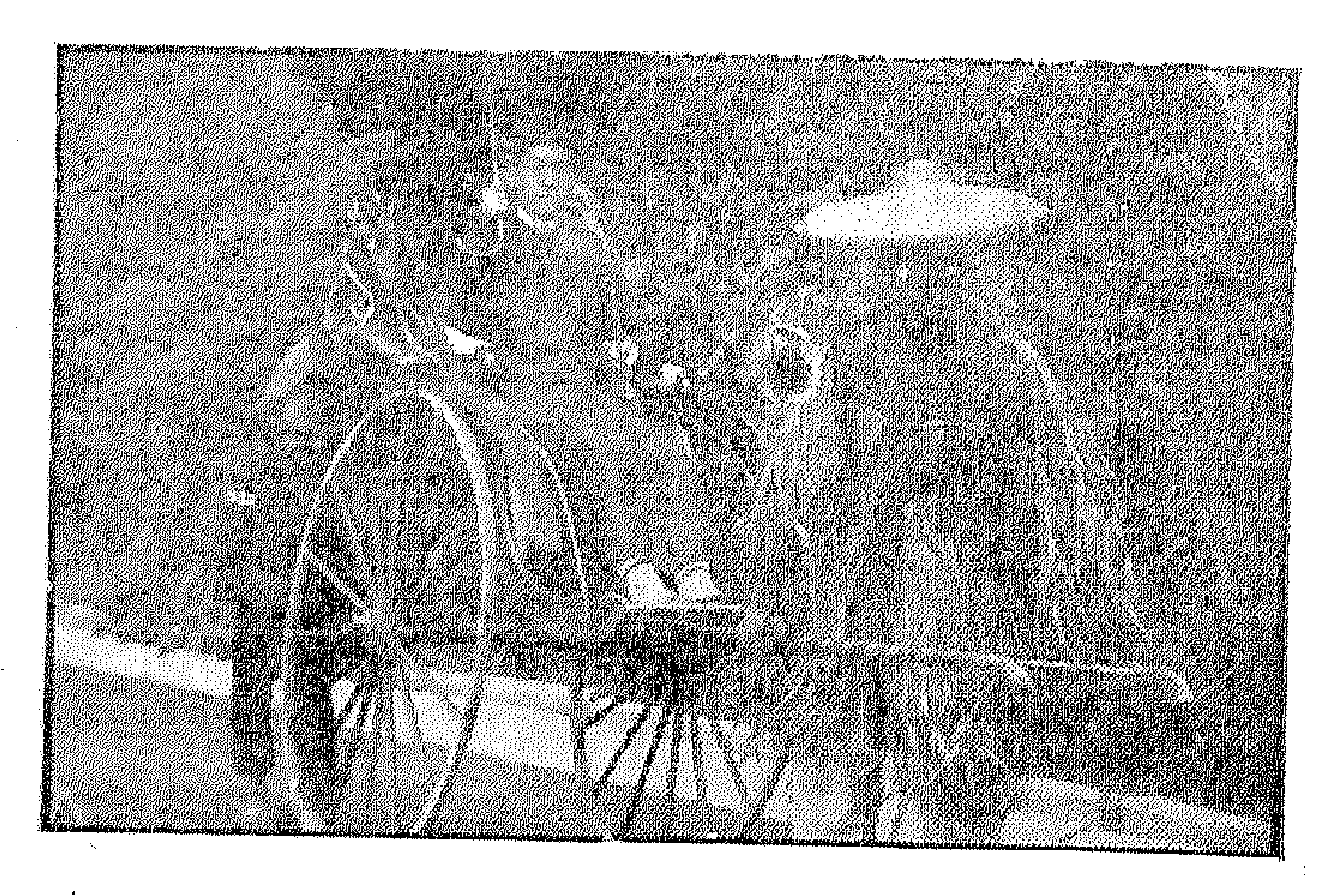


محكمة صينية ويقف الجلادون الى جانب المتهم تهديداً وإرهابا

قريب يدفن حياً أو يحكم عليه أن يموت بالمخنق الخشبي وهو آلة بها موضع للرقبة يوضع فى رقبة المجرم ومن تحته ألواح سميكة من خشب أو حجر يرفع منها واحد كل يوم فيعلق الجسد من الرقبة ويشحذها فتستطيل بقدر سمك اللوح الذى رفع وهكذا حتى يموت ، وكثيراً ما كانت تؤخذ العائلة كلها بجريرة فرد منها الى سنة ١٩١١ وكان يحكم على بعض المجرمين بثلاثة آلاف جلدة ومن العجيب أن كل تلك القسوة لم تنتج أثرا فى تخفيف الجرائم ومن أقسى العقوبات بعد الاعدام النفى ذلك الذى يخشاه الجميع خوف الموت خارج بلادهم

ومما كان يروقنى كثيرا مشهد الأحياء الوطنية من المدينة الصينية فى أزقة مختنقة وطرق متربة غير مرصوفة يجوبها خلق كثير صفر الوجوه

شاجبو الألوان منتفخو العيون مشطورو الرؤوس وتطل على تلك الطرق حوانيتهم وعليها إعلاناتها فى شرائح من خشب أو ورق أو قماش تتدلى مستطيلة حتى تكاد تسد الطريق ولهم أضواؤهم الخاطفة فى الليل ويزينون واجهات الحوانيت بشبه أقواس كبيرة مذهبة فى الخرط الصينى الجذاب والخط الذى يبدو وكأنه بقع ضخمة ذوات أهداب براقة وأنت ترى أقواس الطريق تقوم مشرفة من خشب صقيل فى جميع طرقهم حتى الرئيسية . أما وسائل النقل فغالبها عربات ذوات عجلة واحدة فى الوسط وقد تكون ذوات عجلتين يجرها فى جهد كبير نفر من الناس متكاتفين والعرق يتصبب من جسومهم العارية بشكل يؤلم الفؤاد ويسمونهم (كولى) ومعناها القوة التعسة ولكيلا يعطلوا المرور وسط الطريق — خصوصا الركشا التى يجرها الانسان أيضا — جعلت لهم منطقة على أظار الطريق غزيرة الأتربة يسيرون فيها وعجلاتهم تغوص بعيدا ، هذا الى الحمالين الذين تراهم يعلقون حملين على طرفى عصى من الخيزران العريض فوق أكتافهم وكنت أعجب لعواهلهم كيف تطيق تلك الأثقال التى تحز فى جلودهم حتى تدمى مناظر لايخلو منها مكان فى الصين كلها ، وكأن مزاحمة الانسان لوسائل النقل الآلية التى كنا نراها فى الممالك الأخرى قد كادت أن تخفيها ، ومظاهر الفاقة الشديدة بادية فى كل شىء فلا يخلو طريق قط من جماهير المتسولين وعجبت لما أن علمت ان التسول هناك مهنة يمارسونها تحت نظام مرتبط كأنه النقابات وعلى رأس كل جماعة رجل شرس قوى الشكيمة يؤول اليه كل



أحد علية الصين يركب (الركشا)

مايجمعه أولئك البائسون والناس هناك يتصدقون على المتسولين مرغمين خشية أن يلحق بهم رئيسهم ضرراً فى المال أو البنين أو يسلط عليهم رجاله لمضايقتهم بالتجمهر أمام بيوتهم فكثيراً مايدبرون الخطط لسرقة متاع الغير أو لاشعال النار فيه وطالما فقأ الآباء عيون أبنائهم فتأخذ المارة الرأفة بهم ويتصدقون عليهم

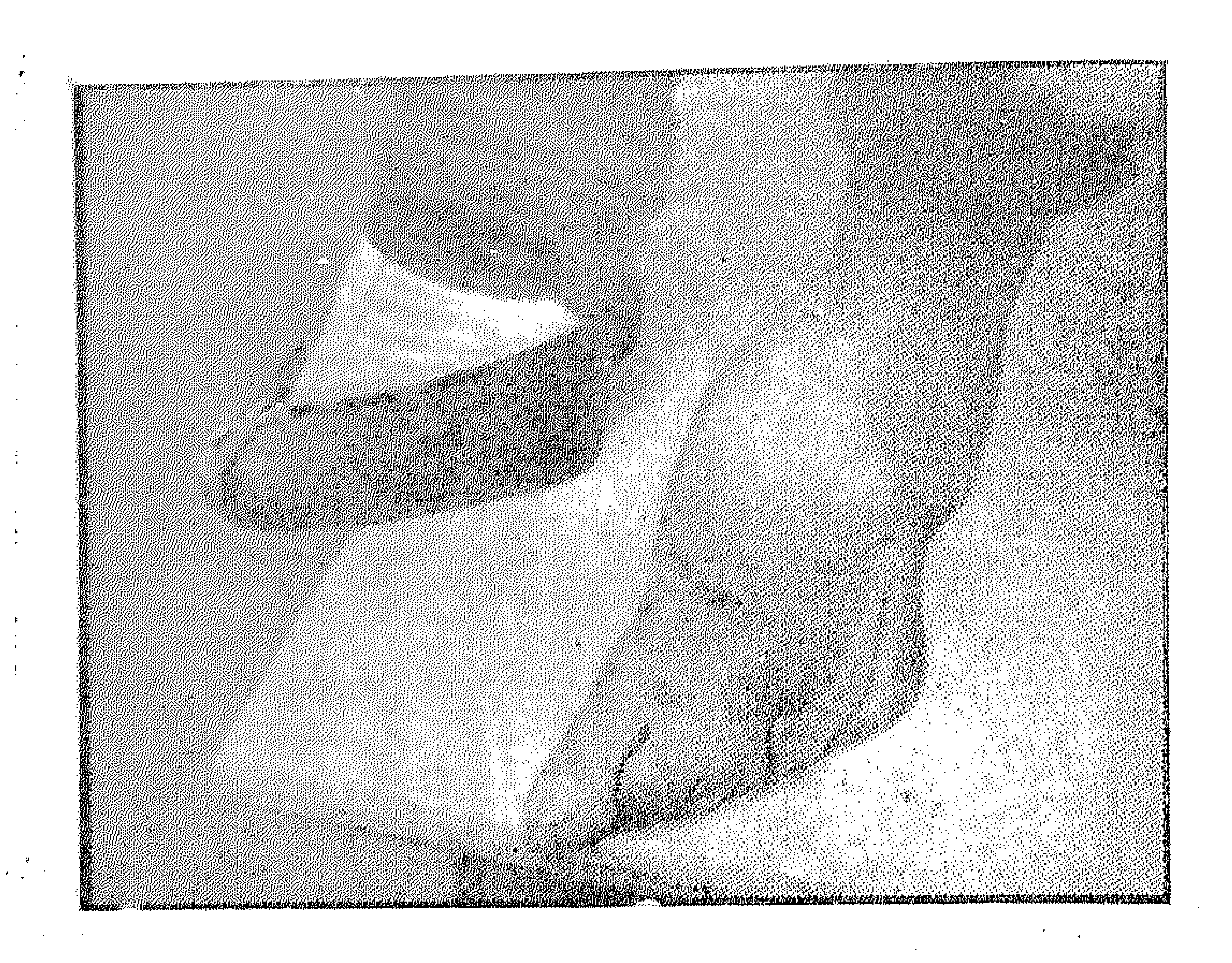
ولقد أحدث انتشار الفقر والعوز فى طول البلاد وعرضها أسوأ الأثر فى أخلاق الناس فأفسدها وأنت تلمس انحلالها فى كل مقام ، فلا أذكر أنى ركبت (ركشا) مرة دون أن يباغتنى سائقها قائلا : أتريد بعض الغانيات من فتيات المانشو ذائعات الصيت جمالا ! إلى ذلك جماهير السيدات اللاتى كن يمسكن بتلابيبنا طوال الطريق إلى درجة المضايقة الشديدة ومنهن من لم يبلغن الحلم وكأن الأجانب هناك بأخلاقهم الفاسدة قد جرأوهم على ذلك

الابتذال ، وطالما كنت أعجب للصغار من الفتيات يسرعن إلىّ طلباً للمعونة المالية وهن فى هندام نظيف لايشعر بالفقر أبداً كذلك كنت ألاحظ أنهم يميلون إلى الغش فى كل شىء حتى فى صرف النقود مذ كانوا يدسون لى بينها ماهو زائف بكثرة عجيبة وقد تعدى هذا إلى حكامهم وضباطهم وجنودهم فعرفوا بالارتشاء إلى حد باعوا معه ذممهم وذمم وطنهم وهذا ميدان شجعه الأجانب بمالهم ليثبتوا أقدامهم فى تلك البلاد

ومن المناظر التى كنت أتألم لها طوال الطريق السيدات اللواتى كن يسرن فى تثاقل وئيد والواحدة تكاد تترنح ولا يتزن جسمها فوق قدميها

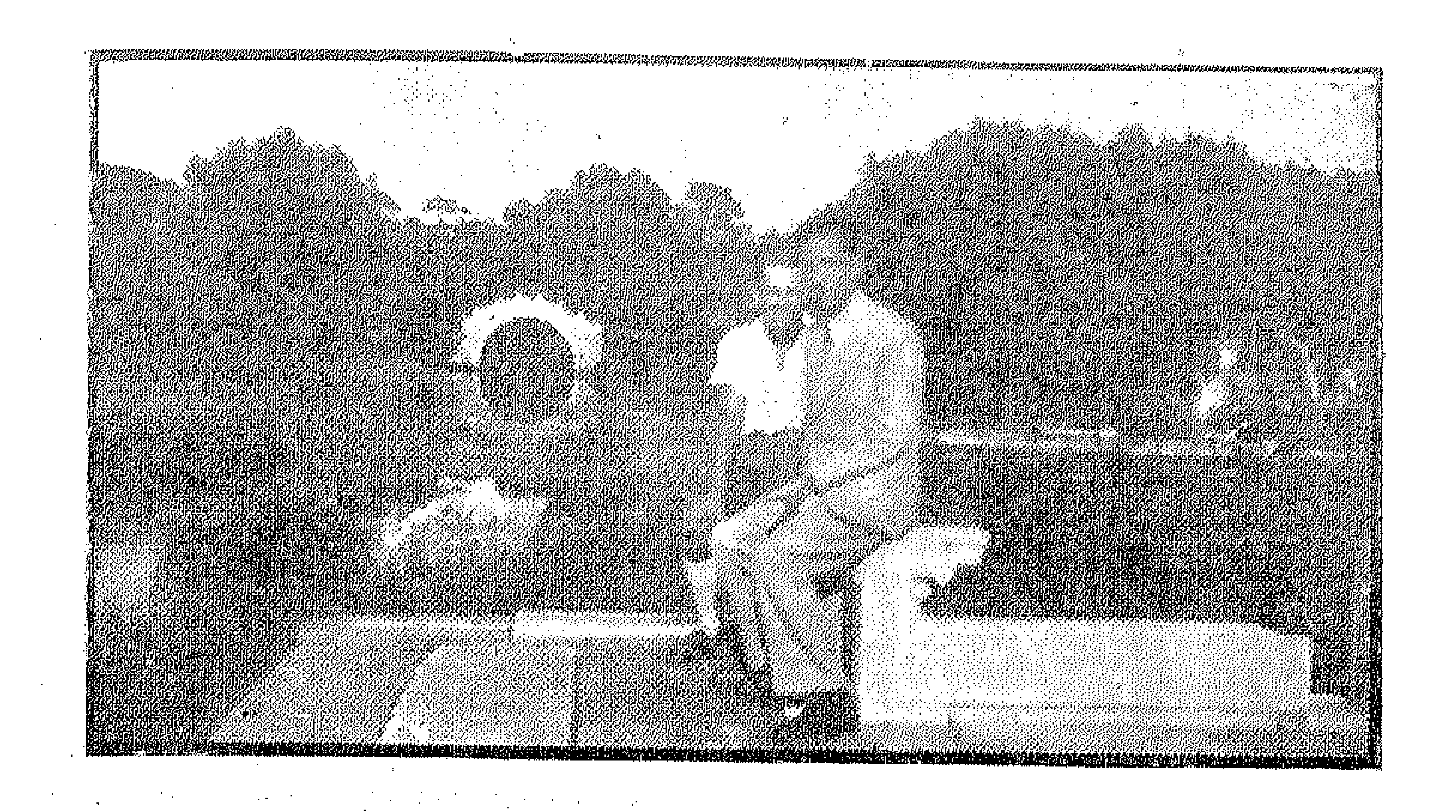
سيدة صينية تفاخر بجمال أقدامها ولا تكاد تتزن فوقها

اللتين لاتزيدان على سبابة اليد طولا وقد انحبس نموهما ونمو عظامهما فكان يخيل إلى انهن يسرن فوق عِصِىّ خشبية دقيقة جامدة وكأن ذلك قد أثر على الساق نفسها فدقت من أسفلها ونحفت إلى حد مخيف وياويلها ان حاولت الجرى فانها تتعثر بشكل بشع والألم يبدو على وجهها ويكاد يكون



مبلغ تشويه أقدام السيدات فى الصين

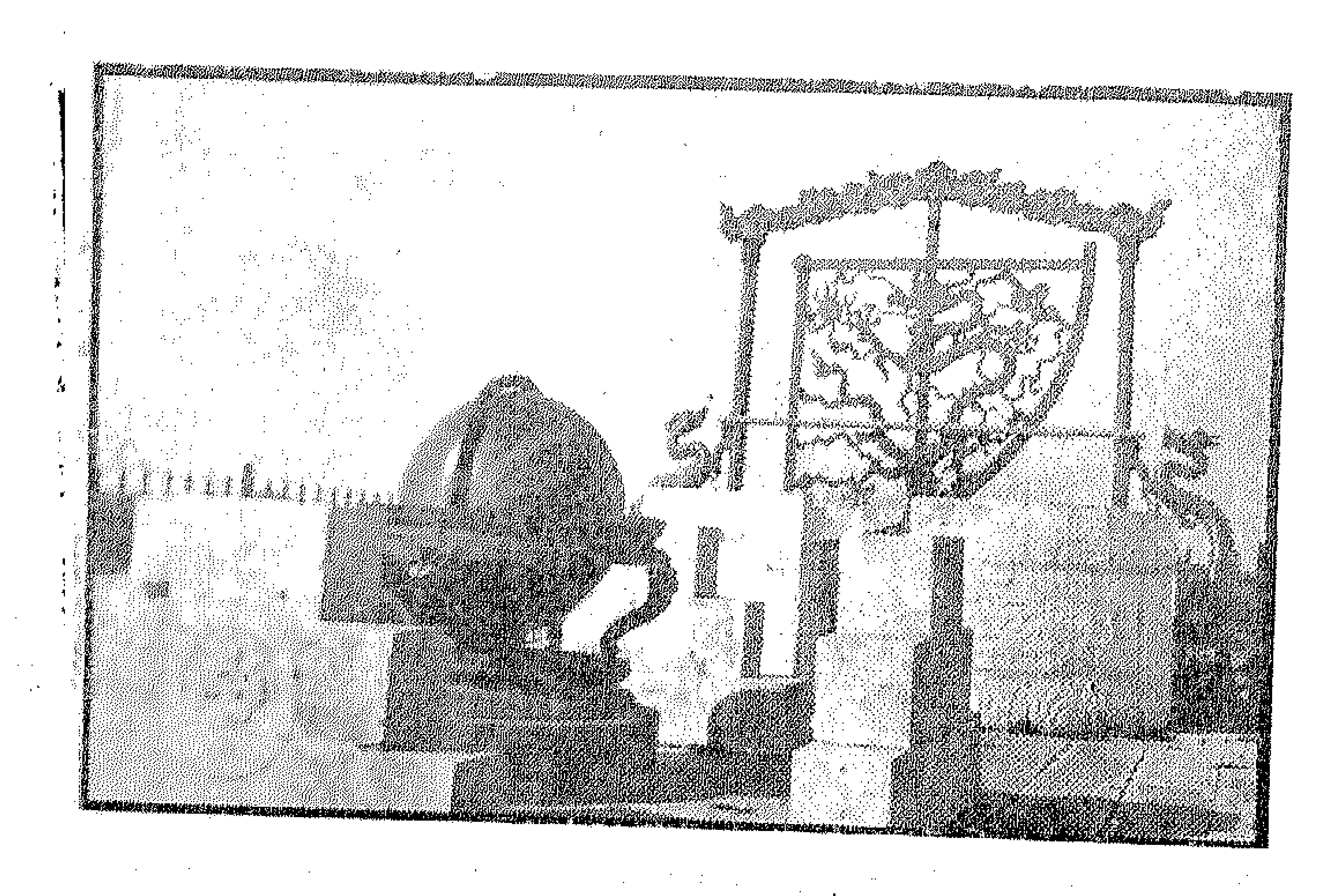
نصف نساء البلاد من هذا النوع والأقدام الصغيرة كانت آية الجمال لديهم وكان يحتم الزوج أن يرى قبل الزواج حذاء خطيبته فان ظهر بعد الزواج أن قدم العروس كانت أكبر من الحذاء الذى أخذه رهينة جاز له الطلاق لذلك كان الأمهات يبالغن فى تشويه أقدام بناتهن وهن صغار ، فكانت تغسل الأقدام بالماء الساخن ثم تلف حولها أشرطة من الكتان لفائف متعددة محكمة وفى كل ليلة تعيد الأم هذه العملية لمدة ثمانية عشر شهراً والبنت تتأوه فى ألم شديد والأم تسترضيها بالهدايا وتمنيها بزوج قريب » ولقد حرمت حكومة الجمهورية ذلك اليوم وفرضت عليه عقوبات قاسية على أن ضعف سلطان الحكومة اليوم وعدم استقرارها شجع كثيراً من



على حافة بعض متنزهات بكين وتبدو القنطرة المحدبة على بعد

الأمهات أن يثابرن على تلك العادة القبيحة ولا يزال الشبان يؤثرون فى السيدات الأقدام الصغيرة كما ثبت لى من محادثة كثير منهم

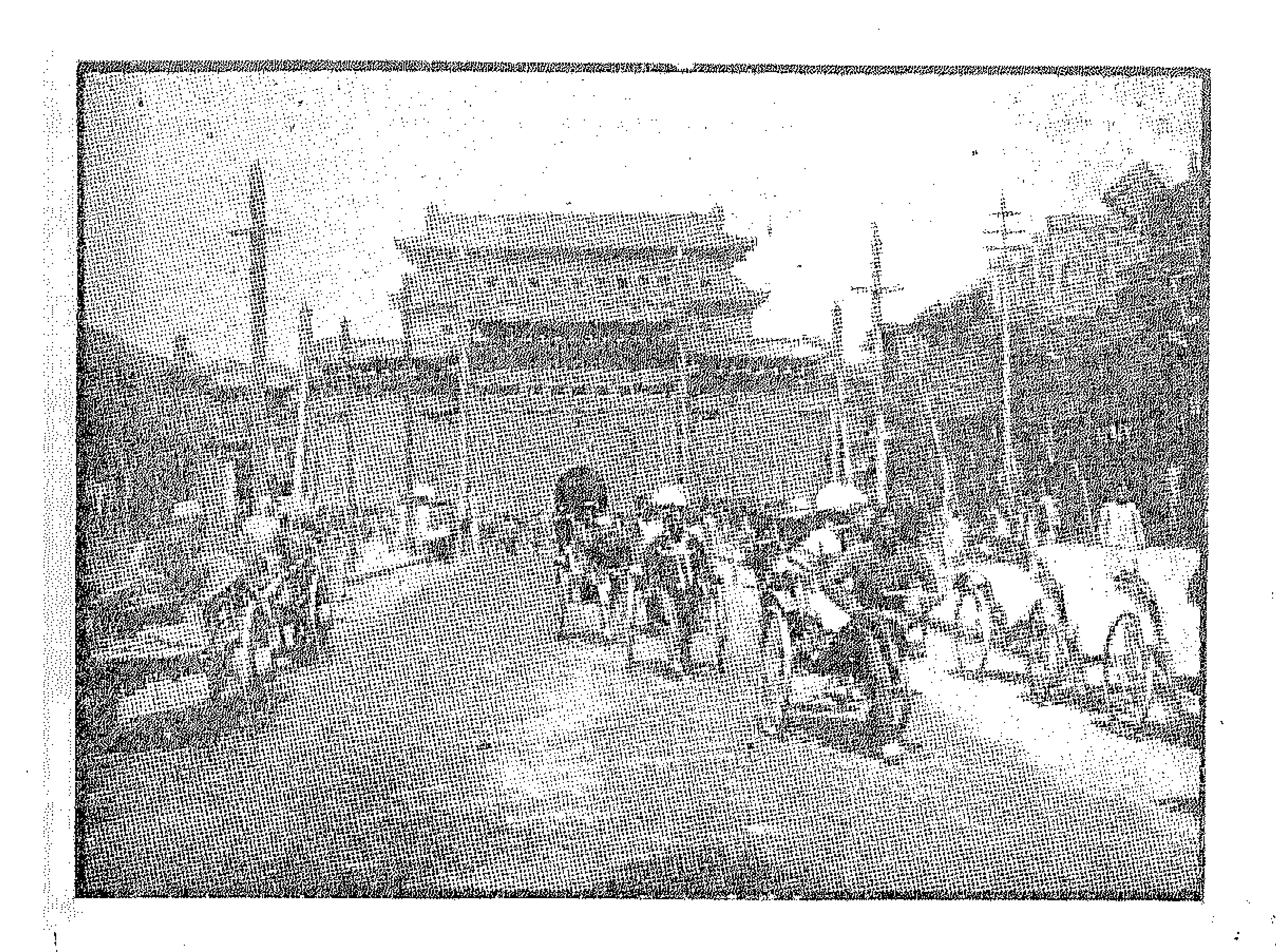
زرت فى ناحية من بكين قصر الشتاء : بحدائقه الفيحاء وبحيراته الممتدة المتلوية تكاد تغص بنبات الماء وبخاصة البشنين فى زهره الكبير هادئ الحمرة أو ناصع البياض وعليها من القناطر المحدبة البيضاء شىء كثير بناه ملوك المنج والمانشو فى هندسة صينية فاخرة ولعل أعجب مابه برجه السامق فى شكل فريد فى نوعه يطلق عليه القوم (برج داجو با الأبيض) به خمسة طوابق يمثل العناصر الخمسة فى زعمهم ، وإلى جوار القصر ربوة تسمى تل الفحم تعلو ٢١٠ قدماً فى شكل مخروطى يحفه الشجر وفوق الذروة مقصورة فى شبه (باجودا) صينية تتخذ اليوم مقهى جلست فيه قليلا فبدت بكين كلها وكأنها غابة كثيفة مغلقة لايكاد يستبين المرء خلالها أسواراً ولا أبنية اللهم



بعض الأجهزة الفلكية فى مرصد كوبلاخان أقدم مراصد الدنيا (بيكين).

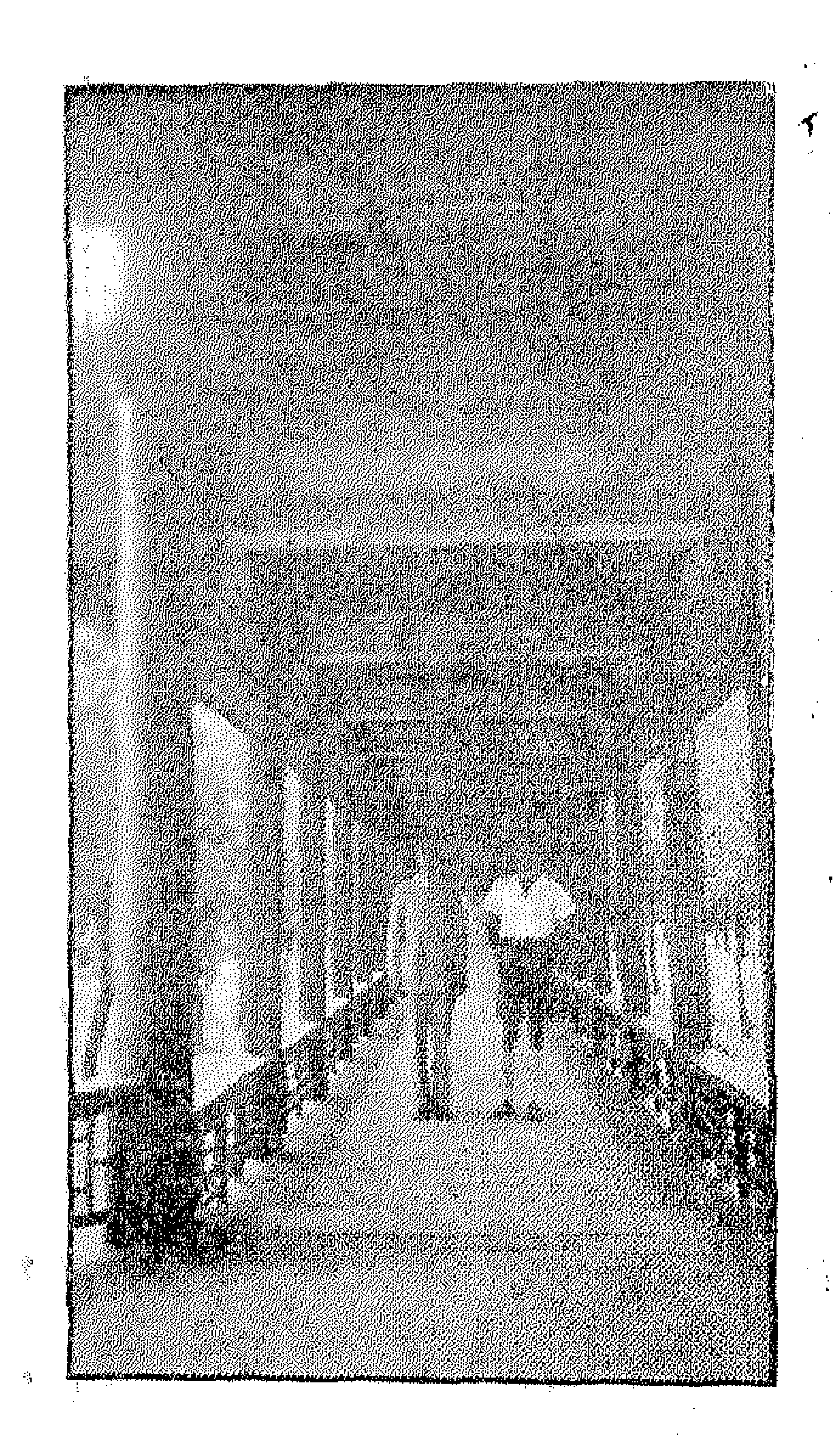
إلا سقوف المدينة المحرمة فى لونها الأصفر البراق ، وكلما نزلت مررت بمقاصير أخرى وتروى أقاصيصهم ان التل أقيم من الفحم الخالص أبان حكم أسرة (يوان) اتقاء خطر الحصار ويظن البعض أنه من الثرى الذى أخرج من بحيرات قصور كوبلاخان القريبة منه

قصدت بعد ذلك مرصد كوبلاخان أقدم مراصد الدنيا أقامه كوبلاخان سنة **١٢٧٩** ويحتوى على مجموعة من الأجهزة الفلكية القديمة فى أشكال عجيبة وحجوم هائلة صيغت من شبه ونحاس فى دقة هندسية بالغة. ومن أجملها المزولة الشمسية والقمرية وآلة السدس والكرة السماوية وتبدو النجوم بها فى بقع بارزة من المعدن الأصفر وتحمل تلك السماء على مجموعة من (التنين) شعار الصين الرئيسى ، وقد احتذاه فردريك الأكبر فشاد أول مرصد فى



(شين من) أخر بوابات سور بيكين وأمامها أسراب (الركشا)

أوروبا على نمطه وضع له أجهزته بعض رهبان الجزويت نقلا عن مرصد الصين ، وكانت طائفة من أجهزة هذا المرصد قد وقعت غنيمة فى أيدى الألمان إبان حرب المصارعين لكنهم أعادوها اليوم، والمرصد يقوم على ركن من سور المدينة الهائل الذى اعتليته بين بوابتى — (شن من) مدخل المدينة الرئيسي (وهاتامن) والسور من أعلاه كأنه الجسر العظيم الممهد تزين جوانبه النوافذ الجميلة وكان ارتفاعه يعادل الطابق الثالث من البيوت الأفرنجية بجواره واتساعه من أعلاه يعادل شارعاً فسيحاً وتنمو فوقه الأشجار فيسير المرء وكأنه وسط الحدائق المعلقة — لبثت أتجول فوقه ساعتين والمناظر من حولى رائعة والذكريات التاريخية لتلك البلاد العتيدة تمر



بالخاطر فيكبر تلك العظمة ثم لا يلبث أن يأسف لزوالها وبخاصة إذا رأى كثيرا من أركان السور قد احتله أجناد الأمريكان والانجليز واليابانيين والفرنسيين ويطل هذا القسم من السور على الحى الأوروبى الذى تقوم فيه دور السفارات

وخير متنزهات بكين المتنزه الأوسط تؤمه الطبقات الممتازة تشرف على جداوله ونقائعه مقاصير المقاهى المنسقة هكذا تمتد طرقهم الخشبية فى أرجاء حدائقهم وتصل ما بينها مماشى ضيقة منسقة سقوفها بديعة الهندسة وهو المتنزه الوحيد الجدير بالذكر فى بكين التى تعوزها المتنزهات و إلى جواره معبد الجرس به أكبر أجراس الدنيا محيطة ٣٤ قدماً وله قصة عجيبة أن الأمبراطور يونج لو لما رغب فى صنعه لم يعجبه رنينه فاستشار العرافين فأشاروا عليه بضرورة صهره ثانية وإحراق غادة عذراء تحته فهدد الأمبراطور صانعه بالقتل أن هو لم ينجز هذا وكانت له بنت ضحت نفسها لانقاذ والدها ولا يزال أهل بكين يسمعون

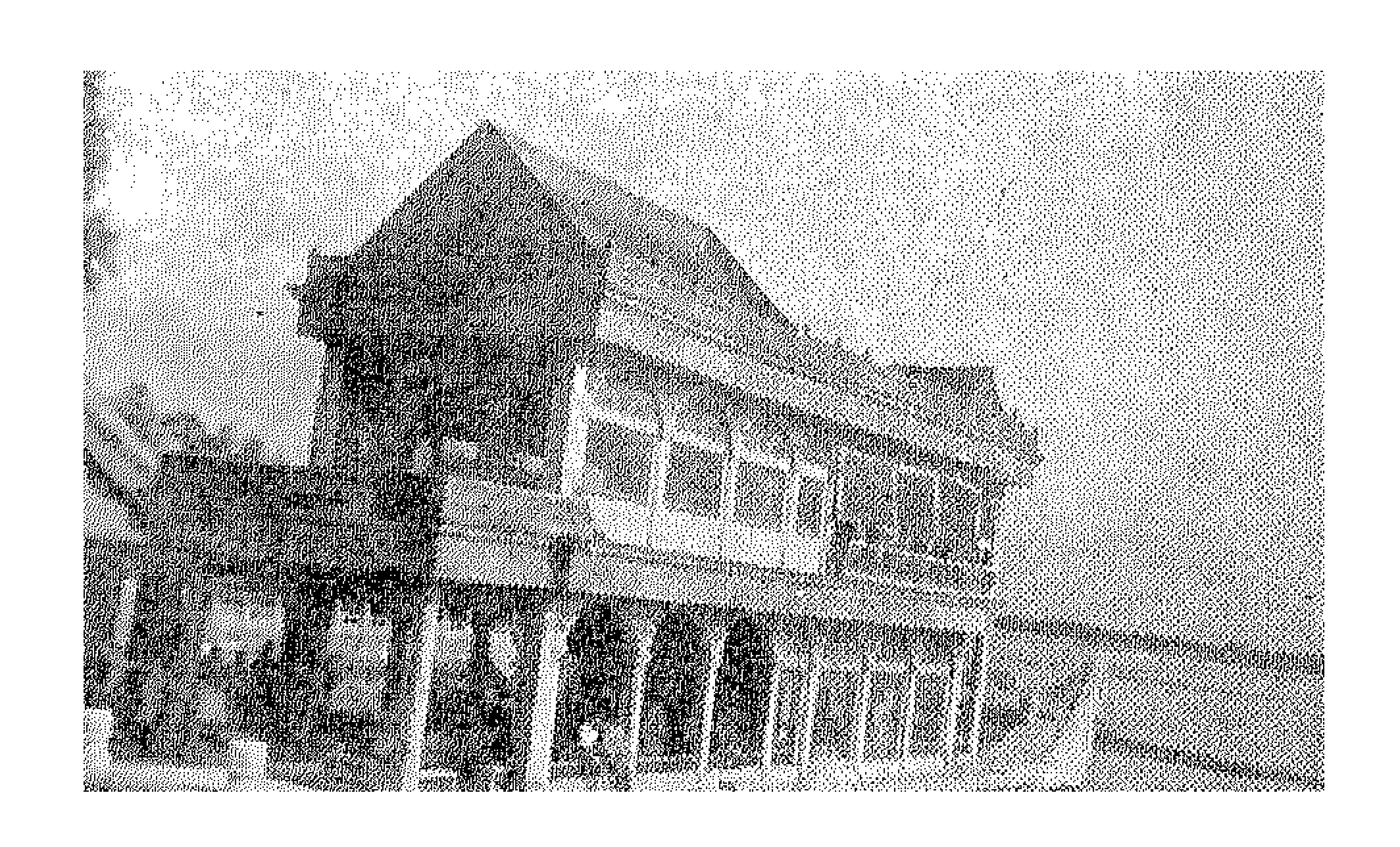


أمام مقصورة الملكة فى قصر الصيف (بكين)

خلال صليله أنات العذراء كلما دق هذا الجرس !

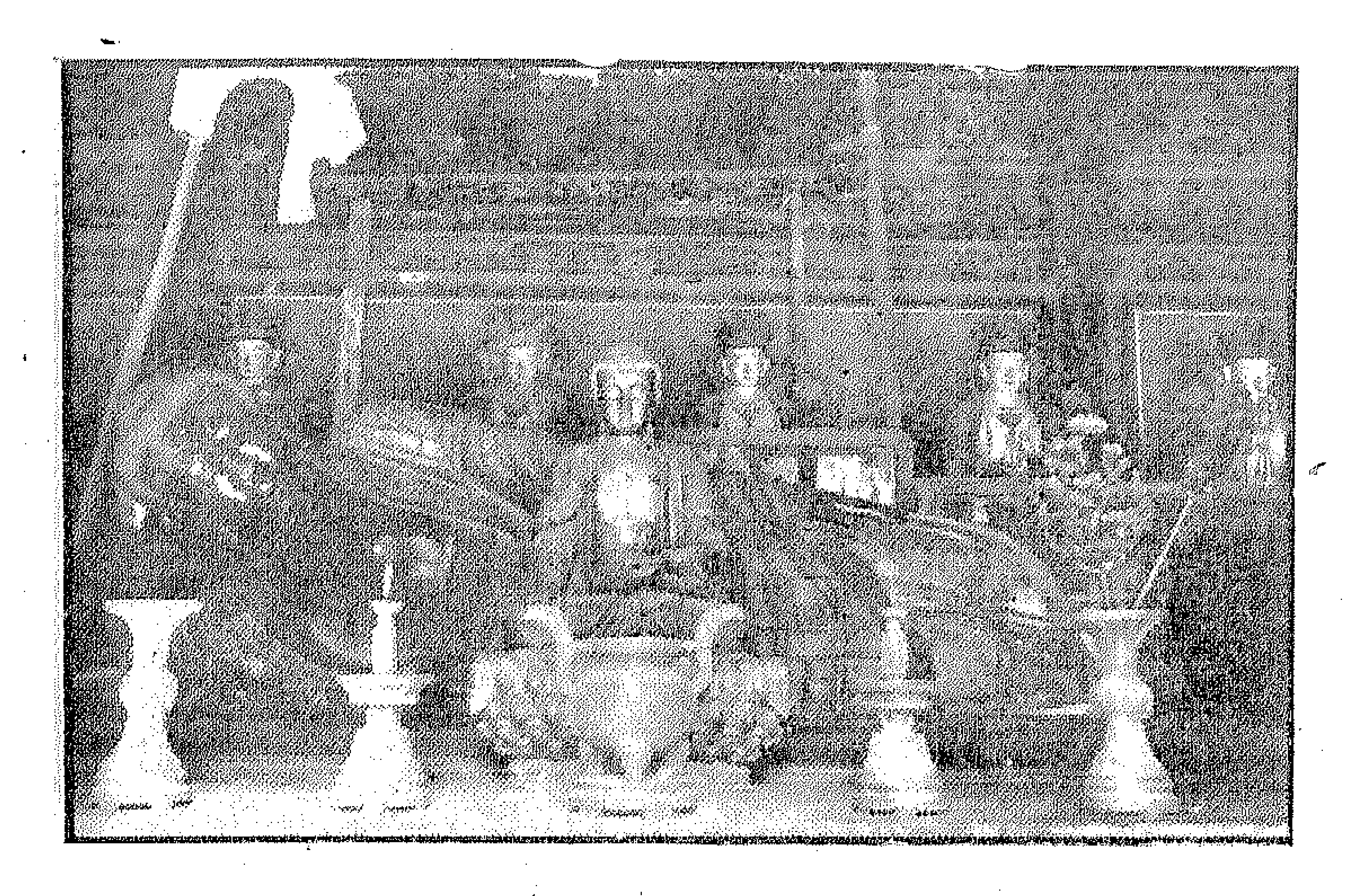
وفى ناحية أخرى من المدينة زرت برج الطبلة الذى شيد سنة ١٢٧٢ وهو تام الحفظ فى رونق جميل وبنيان شامخ يبدو كأنه (الباجودا) الهائلة وفى قمته ثلاثة طبول كانت تدق كل يوم الساعة التاسعة مساء ١٠٨ دقات إيذانا بساعة الراحة وهى على ارتفاع ١٠٣ قدما ومنظر المدينة من أعلاها وقت الاصيل رائع ساحر

قصر الصيف : أقلتنا إليه سيارة وهو يقع على بحيرة فسيحة فى سفح التل الغربى وكانت تتخذه أرملة الامبراطور مصطافاً لها هروباً من حر بكين اللافح وقد غالى القوم فى الاسراف فى تنسيقه بين حدائق وقناطر ومقاصير بعضها فوق الربى والبعض فى الوهاد على حجور النقائع التى تكاد تغص بنبات الماء والبشنين يتجلى بزهره الخلاب هذا إلى الماشى



سفينة من الرخام فى بحيرة قصر الصيف (بيكين)

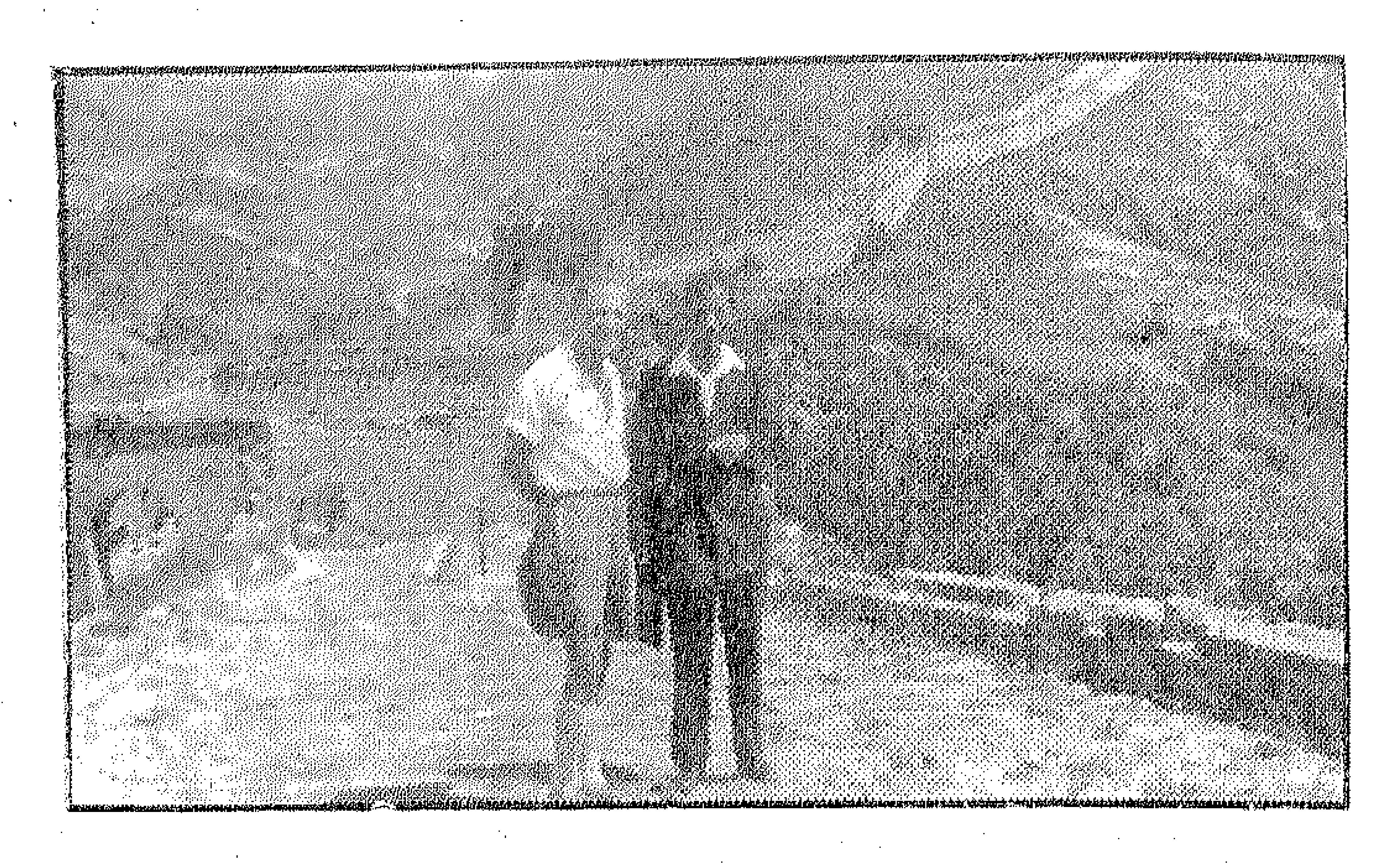
التى تمتد أميالا تحت سقوف من الخزف الصينى البديع أما القناطر فغالبها من رخام ناصع فى شكلها الأحدب العجيب وفى ناحية من القصر زورق من رخام ذو طابقين يقوم على عمد فى الماء فيخيل إليك وأنت به أنك فى سابحة تمخر عباب اليم وسط الزهور البديعة والحديقـة على تنسيقها الرائع تمتد أميالا و يتطلب تفقدها أياماً وخلف القصر ترى فوق الجبل مجموعة من معابد أفخرها معبد الخمسة آلاف بوذا فى أشباحها الرهيبة وقد أخذنا نتجول بالسيارة خلال آثار تلك التلال ومن بينها : نبع اليشب الذى كان يسقى المدينة التتارية وقصورها وحدائقها وحوله ثلاثة أبراج (باجودا) واحدة من (اليشب) والثانية من الخزف والثالثة من الصخر وكلها تتوج ذرى جبلية وكانت الغابات حولها تغص بالوحوش وبخاصة الأنمار لذلك كان يتخذها البراطرة مصادا لهم ومستراضا وفى جانب من التلال : معبد



تمثال بودا النائم فى ضواحى بيكين

بودا النائم يرجع عهده إلى أسرة (شانج) وطوله خمسون قدماً فى أرديته الرهيبة وأقدامه العارية . وهنا كنت أرى الحجاج يقدمون القرابين وبخاصة الأحذية الكبيرة التى يزيد طولها على نصف متر والتى تصف تحت أقدام الإله بعضها من حرير والبعض من جلد أو خوص وفى زاوية من المعبد تمثال (لماركو بولو) الرحالة الأوربى ، وعلى مسيرة ساعة من هـذا معبد السماء الزرقاء يعلو فى عـدد لايحصى من الدرجات فيتوج ذروة الجبل فى رخامه الوضاء وأجمل ما به ردهة الالف بودا

و بعد ثمانى ساعات عدنا إلى بكين وسط حقول زراعية كأنها حقول مصر والقرى منشورة فى كل مكان تعوزها النظافة أما الطرق فرديئة ومتربة والسير فيها متعب للغاية خصوصاً وقد أمطرتنا السماء وابلا كساها أوحالا



يتلوى سور الصين الأعظم بين ربى منغولية المجدبة في كامل روعته

يتعذر معها السير أما الجو فحار مجهد إلى حد كبير بحيث لا يستطيع الانسان الانتقال إلا راكباً وقد كنت أكتب مذكراتى هذه الساعة السابعة مساء وأنا لا أكاد أطيق قميصاً رقيقا يلامس الجسد والأمطار هنا متقطعة وأقل منها فى كوريا وفى اليابان

السور الأعظم (سد يأجوج ومأجوج) : لقد تحقق حلم كنت أتمناه طوال السنين وهو أن تتاح لى الفرصة لزيارة سور الصين أحد عجائب الدنيا وكاد يغلب اليأس الرجاء منه لما أن رفضت جميع شركات السياحة هناك القيام بأية رحلة إليه لأن طريقه أضحى غير مأمون وكانوا ينصحون إلى ألا أذهب خشية اللصوص الذين اختطفوا سيارة بمن فيها من الأمريكان ولم يمض على الحادث أسبوعان . لبثت حائراً ثم اعتزمت الذهاب مهما كلفنى ذلك وقد وفقت الى زميل ألمانى فى النزل هو مدرس بمدرسة (خريين

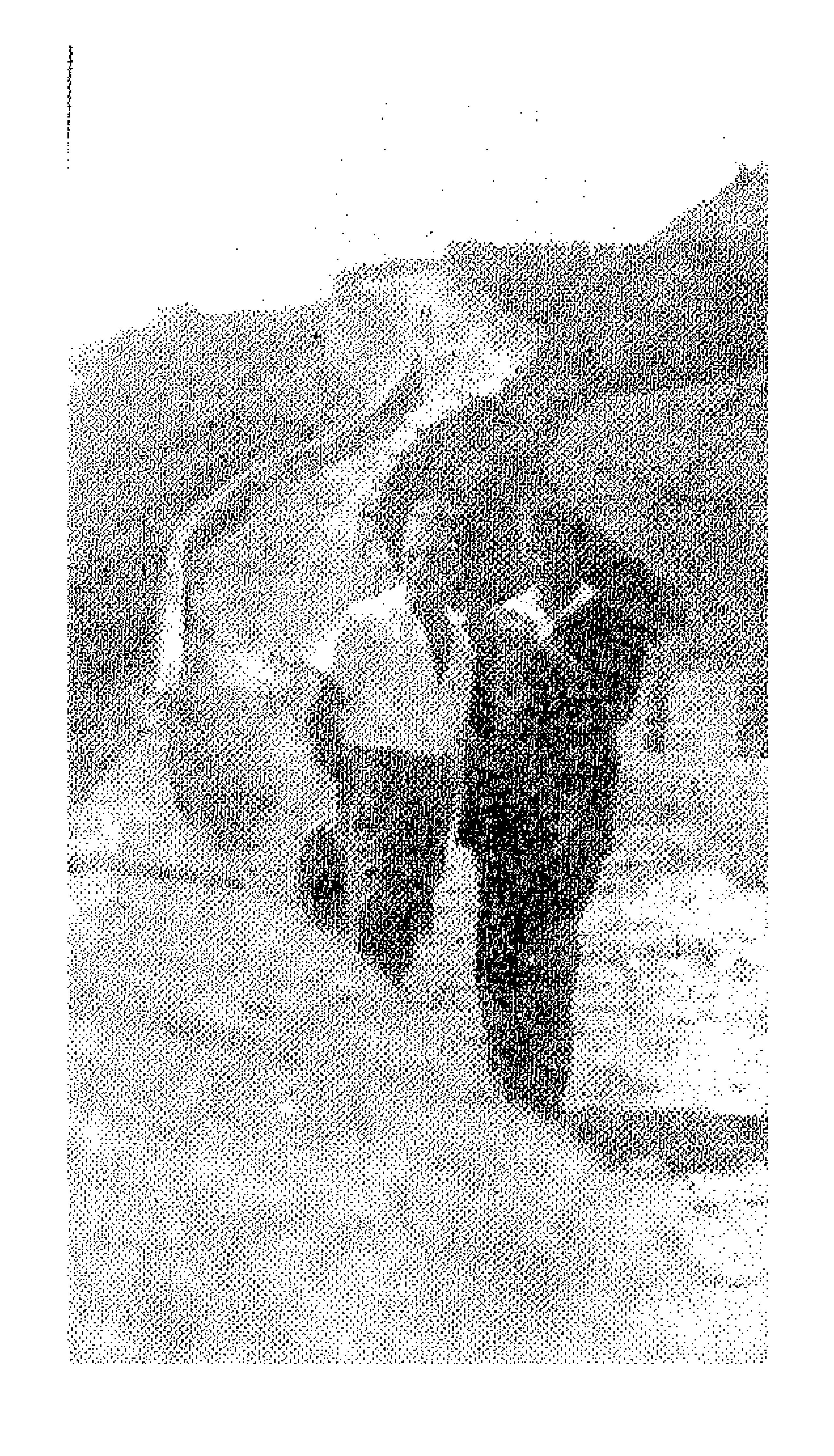


تبدو صحاري منغوليا مترامية وراء السد. وتلك أزياء النساء هناك

حدثته عن السور فرغب في زيارته — ركبنا قطار الضواحي الصغير زهاء ثلاث ساعات وبعد أن اجتزنا محطة نانكاو الهامة أخذ القطار يعلو في جبال معقدة تكسوها الخضرة واخترق بعض الأنفاق حتى بلغتنا السور وكأنه افريز يطوق الجبال ويتبعها علوا وانخفاضاً الى الآفاق . حللنا محطة السور الأعظم وهناك أقلتنا الحمير وسارت بنا في وادي كأنه وادي الملوك صخوره نارية وحره قائظ أدى بنا إلى السور فاعتليناه فبدت روعته في تغضنه وامتداده إلى الآفاق وهو يتلوى كالأفعى وقد لبثت أسير فوقه ساعتين والذكريات التاريخية المجيدة تمر بالخاطر فتكبر القوم تارة وتحط من قدرهم أخرى مذ كان يتجلى جبروت الانسان وبطشه بأخيه الانسان وتسخيره فيما لاينفع ، وقد قرر الخبيرون أن السور أضخم عمل أنجزته يد الانسان يفوق الهرم وحدائق بابل المعلقة وهو يطوق الصين من الشمال مبتدئاً من البحر (عند شاى هاى كواى على خليج لياو تونج) الى ممر كيايو في التبت وطوله في استقامة

١٢٥٥ ميلا و بتعرجاته وشعابه ١٥٠٠ وعلوه يتراوح بين ١٥ و ٣٠ قدماً وعرضه فى أعلاه ١٥ و فى أسفله ٢٥ به ٢٥ ألف برج حربى و ١٥ ألف برج للحراسة، وكأن الصين قد اختصت فى بناء الأسوار حتى قال بعضهم أننا لو جمعنا أسوارهم كلها لطوقنا الكرة الأرضية، أمر باقامته الامبراطور (شى هوانج تى) الذى اعتلى الملك سنة ٢٢١ ق . م ومحا نظام الأقطاع وقسم البلاد الى مديريات و كان كلفاً بالمبانى الضخمة من بينها قصره الذى وسعت ردهته عشرة آلاف نفس رأى هذا العاهل مناماً أنذره ان الخطر مقبل من الشمال وقد أيد التاريخ ذلك فان كل ما قاسته الصين من المغيرين جاء من تلك الناحية فأرغم من الناس ثلث الرجال القادرين فى الصين كلها وكثيراً ما عاقب العلماء وألزمهم بالعمل فى السور لأنهم ناوأوه وقيل أنه أحرق كتب العلم وفلسفة كنفوشيوس لما أن رأى الناس يجلونها و يكبرون العلماء أكثر من إكبارهم للبراطرة ، و يطلق القوم على السور أحيانا اسم (أطول مقابر الدنيا) لكثرة من ماتوا فى بنائه، ولم يتم بناء السور ألا فى عهد ليو پانج من أسرة هان وفى عهد أسرة منج دعم السور وزيد فى طوابيه ولعظم هذا العمل أحاطه الناس فى جميع العصور بخرافات لا تزال عالقة بالأذهان منها أن الامبراطور كان ساحرا ماهرا وكان يمتطى جوادا سماويا اختط طريقه وكان له سوط سحرى استطاع به أن يزيل الجبال و ينظم صرف مياه الهوانج هو وكان يستخدم مردة الجن فى جلب الأحجار و يخال البعض أن كنوز البراطرة دفنت بين طياته والكثير يعتقد

أن السور أقيم سدا فى وجه الجن لا الآدميين ويؤيدون ذلك بكثرة المعبودات البشعة التى توضع على منافذ السور كلها ومما أثار دهشتى أن السور يختط أوعر المسالك إذ يسلك الجبال والربى العاتيةوهذا يتطلب مجهود الجبابرة وقال البعض أن الأبراج كانت تقام أولا ثم يوصل ما بينها وعند ممر نانكاو الذى وقفنا قبالته كان يعلو السور فوق مستوى البحر بنحو أربعة آلاف قدم وفى البقاع التى كانت تتهدده الرمال أقاموا سلسلة من أسوار خارج بعضها فهو فى امتداده هذا غالب ثلاث



فوق سور الصين الاعظم
(سد يأجوج ومأجوج)

صعوبات : الجبال الشاهقة والصحارى الرملية المجدبة وطبقات الأرض الهشة (اللويس) والعجيب أنى لما زرت مقبرة هذا الامبراطور فى مدافن أسرة منج رأيت الناس يقذفونها بالحجارة فخلتهم يذكرونه بانتصاره على الصخور التى أقام بها سوره العظيم على انى علمت أنهم يأتون ذلك حطا من شأنه واحتقارا له مذ امتهن تقاليد أجداده وأهان العلم وأهله حتى أنهم لم يلقبوه

بيانى (السد) بل بعبيد الكتب العلمية ويذهل المرء كيف استطاع الامبراطور أن يزود السور بالجنود لحراسته على طول امتداده ومن العجيب أنه لم يغن عنهم فى الدفاع فتيلا مذ اخترقه جنكيز خان سنة ١٢١٢ وكذلك لم يرد غارات المانشو بعد ذلك، ولا يعزو القوم ذلك الى ضعف فى السور نفسه بل الى خمود الروح العسكرية بين أفراد شعوب الصين الزراعية ، على أنى لما ألقيت على السور نظرة الوداع مر بخاطرى مظهر الهرم الأكبر فبدا السور بجانبه ضئيلا لم يشعرنى بالرهبة والذهول التى يوحيها هرمنا

قمت من بكين مودعاً تلك البلدة التاريخية الجميلة التى يروقنى أن أقيم بها سنوات فهى أصدق ما تعطى الزائر فكرة عن الصين وأهلها ، وقد سلكت سبيلى إلى تين تسن فشنغهاى وكنت من قبل أعتزم الذهاب الى هنكاو ومنها فى رحلة نهرية فى اليانج تسى الى شنغهاى لكن هذا النهر الجبار غدر بالمدينة فأغرقها وأغار على سكة الحديد فتعطلت. سار القطار خلال أراضى (اللويس) الصفراء ذائعة الخصب تلك التى كانت تبدو فى بعض الجهات وكأنها رمال الصحراء تماما ولقد تخلفت فى تين تسن يوما كاملا فلم ترقنى كثيرا لأنها مدينة غالبها أفرنجى عظيم الامتداد آهل بالجماهير الغفيرة من صنوف شتى وهى ثغر تجارى غاص الحركة دائب الجلبة والضوضاء

وقد وقف القطار طويلا على تسنان فو فوق نهر الهوانج هو (الأصفر) زاخر المياه عكر اللون فى تدفق مخيف ذاك الذى عرفه القوم مبعث أشجان الصين منذ القدم لكثرة ما أصابهم وأتلف من أبنائهم ومتاعهم بسبب



تعترض تلك البوابات غالب الطرق فى تين تسن

فيضانه الغامر المباغت على أن فيضه هذا العام كان أقل خطراً من اليانج تسى

وهنا باغتتنا ريح صرصر كأنه أعصار (التيفون) هز أرجاء القطار وسرعان ما أظلم الجو وتفتحت أبواب السماء عن وابل غامر وقصف للرعد مخيف ولم تنكشف إلا بعد ساعتين ، وكنت أرى المزارعين فى الحقول يسيرون وسطها وعلى رءوسهم مخاريط من خوص وعلى جسومهم رداء من قش منفوش يبدو كأنه الفرو الثقيل فيظهر الواحد وكأنه من مردة القنافد المنفرة المضحكة . ضمتنى مائدة العشاء إلى جمع من الشباب الصينى المثقف وكان يقدم لهم الطعام على النظام الصينى وعجبت لما

علمت منهم أن من أحب الأغذية لديهم : زعانف السمك وأحشاءه ولحم الـكلاب والفيران والضفادع والثعابين واوكار طير الخطاف لأنها من مجموعة أعشاب مائية تروقهم كثيرا وأجل اللحوم لحم الخنزير فاذا سمعته يتحدث عن اللحم انصرف إليه و يعجبهم دهنه الثقيل وقد يشرب الرجل منه ثلاث (سلاطين) وعند الطعام تقطع هذه اللحوم كلها مختلطة إلى شظايا صغيرة جدا وتمزج بالحساء وترى الواحد منهم يتصيدها من الأناء بعصيه وقد يمزج الحساء ببعض الأعشاب والخضر الجافة فى غير طهى جيد والعناية بالضيف تبدو فى الأكثار له من الدهن الطافى فوق الغذاء والحساء ويجب أن يناوله المضيف كل ما يطلب بيديه الاثنتين والا عد ذلك من قلة الذوق كذلك يناوله بين حين وآخر ما يتصيده من انائه هو من شظايا اللحم ، وطعام الغنى يطلب أن يكون من الأرز والخضر والخنزير والسمك أما الفقير فالأرز القفار وان لم يتيسر له فالقمح أو الشعير أو الذرة أو بعض الخضر ويندر وجود اللحم لذلك يأكلون لحوم الحيوان الملقاة مهما كان الحيوان وأساس غذاء العمال (والـكولى) نوع من الفول مغذ كاللحم ويختتم الطعام بالحساء (عكسه عندنا)

أما أحب أنواع الحلوى فالـكريز يطفو فى عصير القصب والتسلى بنوى المشمش (واللب) شائع بين الجميع أما الأوانى فكلها من (السلاطين) وليس للسماط ولا (الفوط) وجود قط وفى نهاية الطعام تقدم فوطة مبللة يمسح الجميع بها أفواههم وعجيب أن يشتهر طهاة الصين بلذة ما يطبخون على



أطفال الصين يتناولون الارز وتثير اللحم بالعصى فى مهارة فائقة

أنه لم يرقنى من طعامهم شيء سوى ذاك الخليط من اللحوم المختلفة ولعل تلك الشهرة راجعة إلى أنهم يكثرون من استخدام التوابل والمواد الحريفة بالنسبة لطهاة اليابان

تحدثت إلى هؤلاء الشبان فكانت حماستهم القومية بالغة يصبون جام غضبهم على الأجانب وبخاصة اليابانيين فهم الذين يفرقون بين أبناء الأمة الصينية ويثيرون فريقا على فريق ويمعنون فى اتلاف أخلاق الصينيين بالمال والنساء ويساعدهم على ذلك احتلالهم لمنطقة سكة حديد منشوريا تلك التى يهربون منها الذخائر والأسلحة للثائرين من أهل الصين على أن الحكومة الصينية الوطنية تقبض على الحالة وستوفق قريبا إلى القضاء على تلك العصابات الثائرة التى تجرى وراء المنفعة الذاتية وهم مختلفون فى طريقة

توحيد الصين فالبعض يرى اقامة مجموعة من حكومات مؤتلفة تكون ولايات لها ما للولايات المتحدة الامريكية من السلطان والبعض يرى توحيد الصين كلها فى جمهورية واحدة لأن فى هذه الطريقة الآن خطر ميل رؤساء المقاطعات إلى الاستقلال والدس للغير ومن عقبات قيام حكومة واحدة اختلاف اللغات بين مقاطعة وأخرى ، تلك التى كان يساعدها رؤساء المقاطعات كى يتم لهم استقلالهم ولو تم النصر للحكومة القومية أنقذت البلاد من شفا الافلاس لأن مرافقها اليوم معطلة وكانت قد بدأت حركة صناعية بمعاونة الأجانب وبخاصة الامريكيين لكنها عطلت اليوم لان هم الحكومه منصرف إلى التجنيد وتموين الجيوش التى تؤلف من بين الطبقات الفقيرة وهذه تتخذ الجندية مرتزقا والحكومة لم تؤت بعد السلطان الكافى فتجعل التجنيد اجباريا لذلك لا يتطوع أحد من السراة بل من الفقراء المعوزين

اللغة الصينية : ويرى مثقفو الصين أن لغتهم غنية بأدابها فميدان الشعر زاخر والايجاز فى التعبير الى التعمق فى المعنى من خصائص لغتهم وكنت أرى بعضهم يقرأ فى كتب الأدب وهو مأخوذ من شدة تأثره بالمعانى التى يتلوها ويبالغ بعضهم فيقول ان لهم كتباً تقرأ فى الصيف وأخرى فى الشتاء فتحدث معانيها فى نفوسهم ما تتطلبه مناسبات الزمن ، والتأدب فى الكتابة أمر يراعى بكل دقة فمثلا تبدأ الكتابة هناك من اليمين فى أسطر رأسية (أما اليابانية فمن اليسار وقد تكتب أفقياً أو رأسياً) واذا كان الخطاب للأبوين وجب كتابة الاسم فى أعلى الصفحة الى اليمين ثم يترك هذا السطر

كله احتراما وكلما ذكر اسم الأب أو خطابه فى أى مكان من سطر آخر ترك باقيه إجلالا وهذا يجب اتباعه فى الكتابة لمن هم أكبر سناً ومقاماً اما بين الأصدقاء فيكفى ترك مسافة كلما ورد الاسم، والهوامش تكتب فى أعلى الصفحات والتأدب فى الخطاب يراعى بكل دقة خصوصا مع من هو أكبر سنا ومقاما فمثلا يعدونه منتهى الذوق أن يجرى الحديث بين اثنين كما يلى : كم سنك المشرفة ؟ عشرون عاما ممضة لا خير فيها — ما اسم عائلتك الموقرة ؟ عائلتى الفقيرة تسمى — مامهنتك النبيلة ؟ مهنتى الوضيعة — كم طفلا ماجدا عبقريا عندك ؟ عندي كذا من صغار الحشرات . كم قطعة فضية عندك (يقصد البنات) ؟ ثلاث بائسات . ولغتهم الكتابية رسوم رمزية بسيطة كأن يرسم تخطيط يحكى الأنسان ليدل على كلمة رجل ويرسم طائر ليدل على (عصفور) وهكذا ثم أخذوا فى تبسيطها لكى تلائم الكتابة (بالفرشة) التى تجيد رسم الخطوط أكثر من الاقواس والنقوش لذلك أصبحت اليوم سهلة بالنسبة لما كانت عليه من قبل وللكتابة هناك شكلان عادى دارج تتصل كلماته بلياب متعاقبة وزخرفى يكتب بتكلف وفى رونق جميل ولغة الكتابة يفهمها جميع أهل الصين لكن منطقها يختلف باختلاف الأماكن بحيث إذا خاطب صينى من كانتون أخاه من شنغهاى أو من بكين لم يفهم الواحد الآخر

مثل من الكتابة الصينية المعقدة وهذه بطاقة تقرأ من أعلى لاسفل

لذلك يلجأون إلى الكتابة وفى مجلسى هذا كان أحدهم من كانتون وكان يعرف الانجليزية وآخر من شنغهاى ويتكلم الفرنسية وتعجب إذ تعلم أننى أنا المصرى الأجنبى عنهما كنت أقوم بوظيفة المترجم بينهما على أن العجب يزول إذا علمنا أن الصين بلاد مترامية فكل مقاطعة تفوق مملكة أوروبية فى مساحتها وسكانها إلى ذلك صعوبة وسائل الاتصال فى تلك البلاد

والحكومة الحالية تحاول توحيد لغة الكلام وقد أخذت تنشر لغة (الماندرين) فى المدارس والمصالح فهى اللغة الرسمية اليوم (وكلمة ماندرين معناها الوالى أو الحاكم) وهى أسهل اللغات الصينية مأخذاً فالشخص يكتب ما يسمع بالضبط .

أما فى سائر لغات الصين فانك تجد لغة الكلام ممطوطة لذلك وجب أن تلجأ فى الكتابة إلى التلخيص والايجاز لأقصى حد ممكن وتلك مهمة لا يطيقها إلا المتعلم الكفء وقد وضعت الدولة لتلك اللغة حروفاً أبجدية عددها ٤٢ يمكن تركيب الكلمات منها ، وأعجب ما فى تلك اللغة أن حروفها وضعت لتوحد النطق أعنى أنها جمعت كل مقاطع النطق الصينى ووحدتها فى نغمة واحدة لا تحمل معنى عند الكثير منهم لأن الرموز الكتابية يفهمها الجميع والصعوبة فى اختلاف النطق لذلك كثيراً ما ترى سطراً من الحروف الجديدة يكتب وإلى جانبه آخر من الرموز الصينية ومعنى هذا أن القارىء ينطق بما تدله الحروف الجديدة (الماندرين) ويفهم المعنى من السطر الآخر ويخالون أن بعد مضى وقت معين سيعتاد الناس

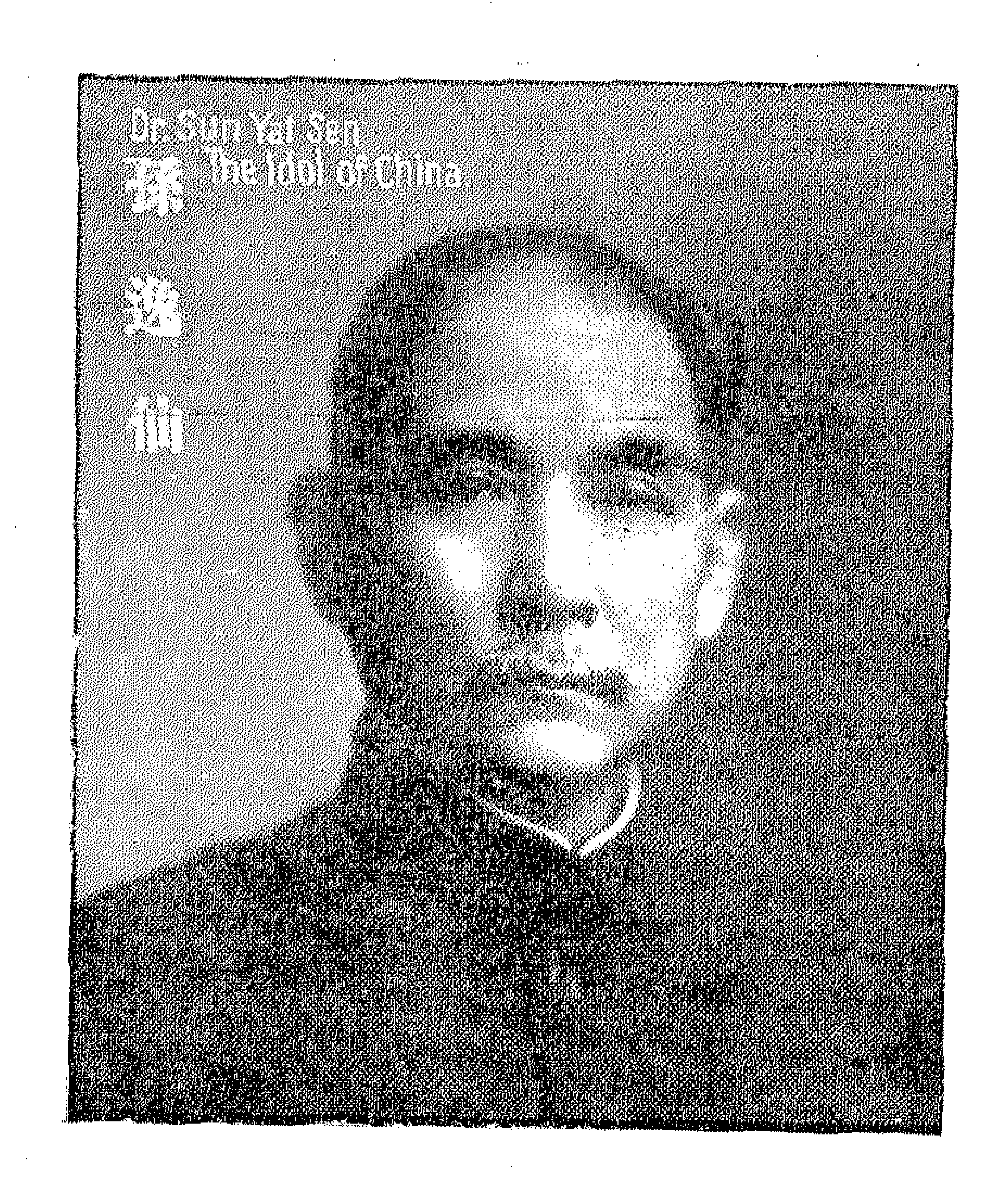
نطقا واحداً فتتوحد لغة الكلام ، وفى الحق أن سائر لغات الصين الأخرى معقدة مجهدة للمتعلم الذى يجب عليه أن يحفظ من رموزها نحو أربعة آلاف كى يستطيع القراءة والكتابة ويزيدها صعوبة أن الكلمة الواحدة قد تكتب على عدة أشكال لتؤدى معانى مختلفة فمثلا (تشى Chi) تكتب على ١٣٥ شكلا لكل واحد معنى مختلف (من معانيها : الفرخ ، ادفع ، تذكر ، عديم البصر) وهى لغة المقاطع حقاً لأن كل كلمة مقطع واحد ، حدث أنى طلبت الى أحدهم أن يكتب لى اسمى بالصينية فتريث طويلا وقطع اسمى إلى (سا بى) فى مقطعين ثم كتب الرمزين

وحساب الشهور لديهم قمرى ولو أن الحكومة الحديثة أدخلت الحساب الشمسى لكن الفلاحين لا يعرفون إلا السنة القمرية وليس للشهور عندهم أسماء بل يحصونها بالنمر (الشهر الأول والثانى الخ) وفى الأساليب الكتابية الراقية يضعون اسم زهرة لتدل على الشهر (تقويم زهرى) وتلك الزهور يكاد يحفظها الجميع بحيث لو كتبت أحداها عرف الواحد منهم الشهر الذى ترمى إليه أما تاريخ السنة فيقاس بالنسبة للحكام كأن يقال مثلا اليوم السادس من الشهر الخامس من السنة العاشرة للامبراطور فلان وهذا العام يقاس بالسنة العشرين للجمهورية وتحسب أعمارهم بالطريقة عينها

كنا نتوقع أن نصل (پوكاو) على الضفة الشمالية ليانج تسى منتصف التاسعة لكنا وصلناها بعد الساعة الواحدة لكثرة مواقف الطريق

بسبب نقل الذخائر والجنود وبذلك نكون قد قطعنا المسافة بين تين تسن وشنغهاى فى خمسين ساعة ، أما الأقليم فغنى جداً بمزارعه وسهوله وأنهاره وكنت ألاحظ تغيراً مستمراً فى لون التربة التى أصبحت هنا سمراء تشوبها حمرة بعد أن كانت فى حوض الهوانج هو صفراء كأنها رمال الصحراء المجدبة على ما بها من خصب شديد وكان المنظر كله مصرياً أما غالب القرى فأكواخ من اللبن أهلها قذرون تبدو عليهم علائم الفاقة وغالب الأراضى ملك لطائفة من الأغنياء يحلون المدن الكبرى وكان القوم فى قذارتهم يعرضون المأكولات من فاكهة وبخاصة الخوخ الكبير الحجم والتفاح والبرقوق والكمثرى والبطيخ كذلك الدجاج المشوى فى لون أحمر وحجم كبير وبعض أنواع من عجين أبيض يتهافت القوم على التهامه وعجبت لرخص المبيعات مذ كانت الدجاجة الكبيرة تباع بقرش واحد وكانت غالب السهول حول القطار غارقة فى لجة تحصر المياه بيوتها وقراها التى كانت تبدو وكأنها الجزائر الصغيرة ، غدر بتلك المسائح الشاسعة نهر اليانج تسى هذا العام فاغرقها فاضحى الملايين بدون مأوى وكنا نمر عليهم يتزاحمون بفلول متاعهم الى الجسور وجوانب المحاط فى شكل يؤلم الفؤاد وقد فتحت الحكومة لهم اعتماداً بثلاثين مليون جنيه للانفاق على أعمال الانقاذ وقد أضحى اليانج تسى الى ٦٠٠ ميل من مصبه بحراً خضما لاشاطىء له وقد أصاب أبلغ الضرر منطقة هانكاو حيث علا الماء ٥٢ قدما ويقال أن فيضه هذا العام لم يقع مثله منذ خمسين سنة

وصلنا يوكاو فبدت مدينة أشبه بمدن المراكز عندنا ثم أقلتنا السابحة عبر اليانج تسى الخضم المائج بمائه الدافق العكر واتساعه الذى يفوق النيل بكثير ورسونا على ضفته الجنوبية فى نانكنج القديمة وما كدنا نبرح السابحة حتى بدت صفوف الركشا وهى غارقة وسط الماء الى نصف ارتفاعها وأنى لى أن أصف لك موقفى وأنا أركب الركشا يجرها رجل يخوض فى الماء الى وسطه وهى تمايل يمنة ويسرة فى اضطراب مخيف ورشاش الماء لا بل وموجه يضرب فى أقدامى وحقائبى حتى أتلف لى منها الكثير ولبثنا نجوب شوارع المدينة على هذا النحو والمياه تكسو الطابق الأول من الدور والحوانيت إلى نصف قامة الرجل بل ويزيد والمدهش أنها كانت مفتحة وحركة البيع والشراء قائمة فى نشاطها العادى والناس يروحون ويغدون خوضا وهم مستسلمون لقسوة اليانج تسى وبعد أن اجتزت سور المدينة القديمة قصدت نانكنج الحديثة (ومعناها العاصمة الجنوبية) وهى عاصمة فاخرة تكاد تشبه شنغهاى قسم كبير منها أوروبى ولعل أجمل ما بها مدفن الدكتور سن بطل الجمهورية ومعبود الوطنيين فهو يقوم فى بناء من رخام تأخذ روعته بالألباب على أن القوم كانوا يحرمون التصوير هناك بتاتا ولم أدر الحكمة فى ذلك ومن آثارها القديمة القيمة برج من خزف أبيض (باجودا) جميل ثم دار الامتحان التى كانت تتسع لعشرين ألف طالب وحائط المدينة الذى يتصل بالحائط القديم



الدكتور (سن يات سن) زعيم النهضة الوطنية

الى شنغهاى (ومعناها على البحر) : قمت إليها فوصلها القطار فى ثمان ساعات وتلك هى المرة الثانية التى أزورها لأنى حللتها أولا بطريق البحر فى طريقى إلى اليابان وقد رست السفينة بها ثلاثة أيام وأذكر أن السفينة ظلت خارج الميناء طويلا تنتظر ارتفاع المد فبدا على بعد الى يميننا مصب يانج تسى الذى يخاله المرء بحراً لاتستبين شواطئه وتبدو أمامه جزيرة مستطيلة وسط مائه العكر الذى كان يحكى ماء النيل أبان الفيض بعد ذلك دخلت السفينة فرعاً يتصل به من الجنوب اسمه هوانج پو وهو وحده يفوق النيل

اتساعاً ، وقد أقيمت أرصفة الميناء على ضفتيه مسافة قطعتها السفينة فى ساعتين وهو يلاقى اليانج تسى وراء شنغهاى بنحو ١٣ ميلا أما الميناء فصاخبة تكاد تغص بجماهير السفن على اختلاف حجومها وجنسياتها ، وقد أذكرتنى فى منظرها العام بثغر روتردام تماماً ومشهدها ونحن مقبلون عليها يحكى بلاد مصر فى انبساط السطح الذى لاتكاد ترى للربى فيه من أثر إلى ذلك الخضرة النضرة التى تمتد إلى الآفاق

بدأت جولاتى فى الأحياء الأفرنجية ودوائر النفوذ الأجنبى وهى قسمان رئيسيان القسم الفرنسى (French Concession) والبوند أو شارع البحر الذى يشمل غالب الجاليات الأجنبية ، وأكبر الجاليات الأجنبية هناك اليابانيون ثم الروس ثم الانجليز والفرنسيون وتلك الأحياء عظيمة رائعة البناء بالغة النظافة والتنسيق تحكى أكبر المدن الأوربية بل تزيد حسناً ولعل أكبر الشوارع (نانكين رود) وشارع (جوفر) والبوند وهى مراكز الحركة التجارية والمالية وكنت أرى البوليس هنا من أجناس عدة ، الهنود فى الاحياء الانجليزية ثم الفرنسيون فى الفرنسية وهكذا على أن البوليس الصينى كان يجانبهم دائما والحركة فى الطرق تسير على أحدث النظم التى فى باريس ولندن ووسائل النقل متعددة وجلها فى أيدى الأجانب من ترام وأوتوبيس ذى طابقين هـذا الى الركشا التى تملأ الآفاق أما (التاكسى) ففى حظائر خاصة وعليك أن تسير إليها طلبا للسيارة إن أردتها وترى فى أرصفة الميناء فى قبالة تلك الطرق الرئيسية البوارج الحربية لكافة

الدول الاجنبية وهذا لاشك مما يجرح كرامة الصين وتتألم له كثيرا والحكومة الجمهورية القومية جادة فى التخلص منها ومن دوائر النفوذ الاجنبي وامتيازاتها وإن كان الأجانب يرمون الصين بعدم الكفاءة فى مباشرة ذلك بنفسها

قصدت الأحياء الوطنية من شنغهاى وهى بقايا المدينة القديمة المسورة ولن أستطيع أن أصور مبلغ سرورى واغتباطى وأنا أسير بين أزقتها التى تحكى خان الخليلى عندنا وتكاد تختنق بلوحات الاعلان المتلاصقة تزينها بقع ملونة من الخط الصينى الواحدة تحت الاخرى وهناك تعرض مصورات البلاد الفنية من تصوير وخرط وترصيع وخيزران ونحاس زخرفى ومصابيح من ورق صينى ملون وفى كل تلك الطرق ترى الجماهير الدافقة متلاصقة متكاتفة فى مظهرهم الصينى البحت، عيون منتفخة وخدود ناتئة وأنوف نصف فطساء وأفكاك بارزة وقامات قصيرة وشعر أسود حالك هادل أما الهندام فللأغنياء والمتوسطين متشابه وكذلك للرجال والنساء وإن كان هندام الرجال أكثر جاذبية والرداء قطعتان سروال يربط فوق العرقوبين وهو للنساء أقصر قليلا لكى يظهر جمال الأقدام الصغيرة المشوهة ! ويعلوه شبه جمازة (جاكتة) قصيرة وفوق هذين جلباب فضفاض طويل الأكمام مفتوح من جانبيه إلى ما تحت الساعد ويشتبك طرفاه بالأزرار وله ياقة عالية تأخذ بمخنقهم رجالا ونساء ويغلب أن يكون من حرير ثمين للأغنياء وتطوى أطراف الأكمام لتقوم مقام الجيوب وإلا حمل أشياءه فى منديل قد يتبعه به خادمه أما الأحذية فمن قماش لا يقى القدمين شر الرطوبة ولعلها



سيدة من (المانشو) فى الزى الصينى

اختيرت كذلك لكيلا تشجع على المشى الذين يعدونه عيبا يلجئهم اليه العوز وغطاء الرأس قلنسوة من حرير أما الفقراء فرداؤهم كأنه البيجاما الفضفاضة من قماش أسود لامع كالجلد وقبعاتهم كأنها أطباق الخوص المخروطية المسننة

دخلنا مقصف الشاى المشهور عند الأفرنج يرجع إلى خمسة قرون مضت وهو مجموعة من مقاصير الخشب تكسوها السقوف الصينية بأركانها المدببة تتقوس إلى السماء وهو يقع وسط بحيرة شاسعة نصل اليه بقناطر تسير فى خطوط متكسرة الى اليمين واليسار لكى تدفع عنهم غوائل الجن الذين كانوا ولا يزالون يخشونه كثيرا والمقصف غاص بالحركة مائج بالناس وهم منكبون على تناول الشاى الصينى الأخضر



فى ناحية من مقصف الشاى فى شنغهاى والى اليمين قنطرته الملتوية

ولا أثر للسكر فيه جلسنا وشربنا ذلك الشاى الذى استمتعنا به وبتلك الجلسة رغم أن المكان تعوزه النظافة، هنا شعرنا بالحياة الصينية التى تغاير حياتنا فى مصر كل المغايرة

والى مقربة منه زرنا معبدين أحدهما لبودا والآخر لكنفوشيوس وهى مظلمة الداخل تضاء بها مئات القناديل ويطلق البخور حول تماثيل بودا تحفها تماثيل حفظته من المردة والتنين شعار البلاد وقد أحرق القسيس لأجلنا سلسلة من أوراق مالية زائفة فداء للآلهة ثم أطلق حزمة من بخور وناولنا إحداها تبركا لأنها تطيل العمر وتسعد الطالع ورأينا هناك امرأة تصلى للتمثال وهى راكعة وراحتاها متلاصقتان تشير بهما الى الآلهة وتعود فتضمهما الى صدرها وتسجد مرارا وهى تتمتم وهناك مقصورة يؤمها النساء اليائسات من

الحمل كى ينفك عقمهن ثم انتقلنا إلى حديقة الماندرين أحد الحكام الاقـدمين يتوسطها قصره فى الخرط الصينى العجيب وبه مقصورة للاستقبال وأخرى المائدة بجانبها مقعد لتدخين الأفيون الذى كان أساساً فى كل بيت وثالثة للنوم وكثير غيرها كلها تقوم وسط النقائع تغص بالسمك الملون



أمام حجرة (تدخين الأفيون) فى القصر القديم لحاكم شنغهاى

والصخور المنثورة وكأنها الجنادل والمنحدرات إلى شجر مزهر جميل مما يدل على حياة البذخ التى عاشها أولئك الجبابرة ، وفى خارج المدينة تقوم (باجودا) هائلة فى طبقات سبع لاتزال من آيات الصين القديمة

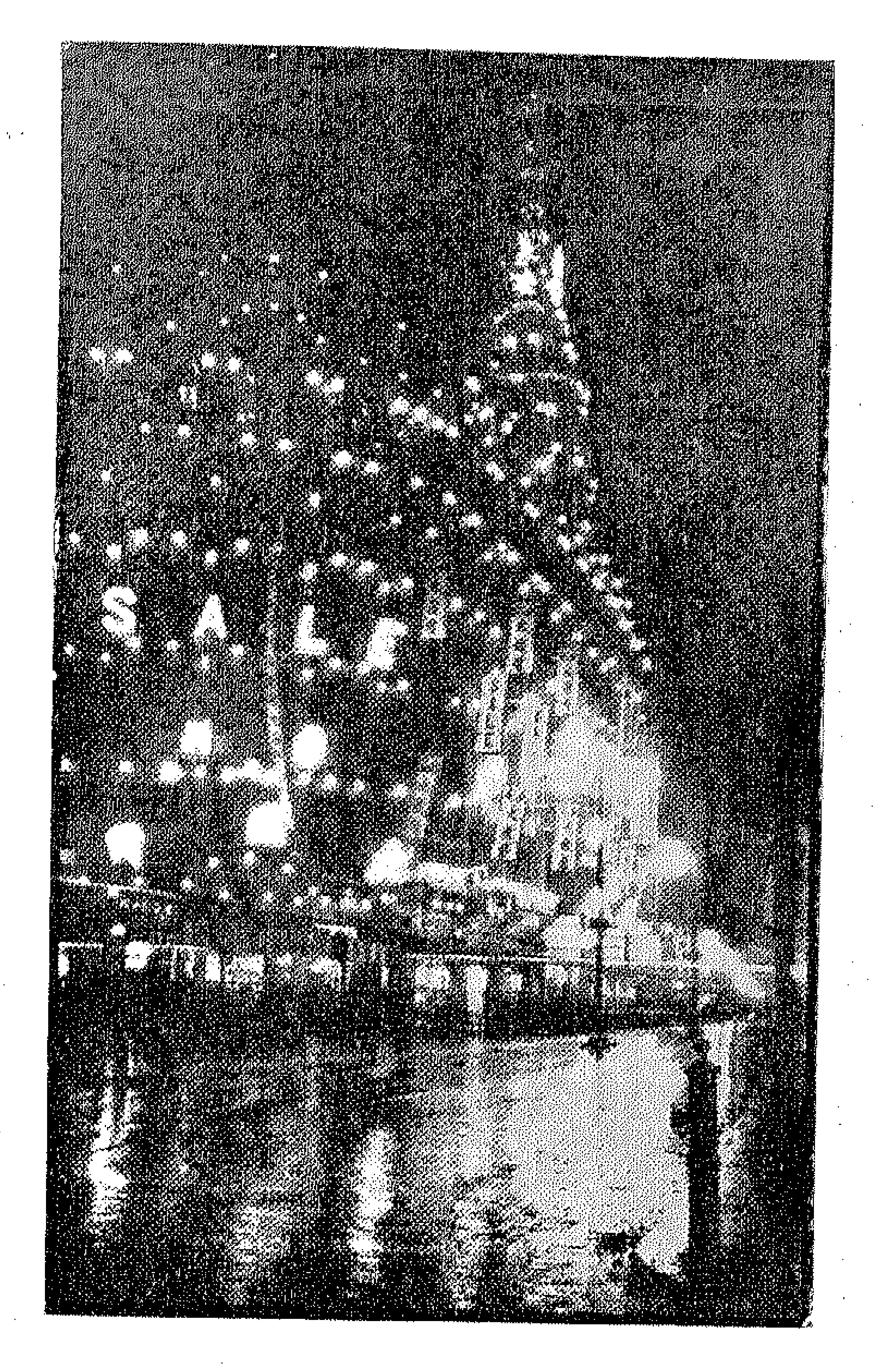
وشنغهاى أثناء الليل تبهر النظر وتثير الدهش من عدة وجوه فالأضواء والثريات ذوات الألوان الخاطفة تظل مشرقة وضاءة طوال الليل وهى فى

اشراق كبير فواجهات الأبنية الضخمة تنقشها تلك الثريات فى أشكال هندسية متباينة حتى فى طرقاتها المختنقة ، وعجيب أن تظل الحوانيت مفتحة وحركة البيع والشراء قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل قد تكون الثانية عشرة أما الجماهير الدافقة من كل صوب فى كثافة تعيق السير فى كل الطرقات فذاك أمر لم أره فى بلد قط حتى ولا فى باريس نفسها وكان يخيل إلىّ أن رواد الشوارع ليلا

(مثل من الابراج الصينية الفاخرة فى شنغهاى)

أكثف منهم نهاراً رغم شدة التزاحم فى المدينة صباح مساء وكلهم سائرون وكأنهم البحر المائج وقد لبثت أجوب تلك الأنحاء إلى الثانية صباحاً ولما تخف كثافة الجماهير ، أما ابتذال النساء فحدث عنه فهو يبدو فى شكل مروع بين أجنبيات — وبخاصة الروسيات — ووطنيات ؛ كل تلك المظاهر جعلتنى أفهم أن للقوم الحق أن يطلقوا على شنغهاى اسم (باريس الشرق) فهى تفوق فى ذلك (باريس الغرب) ويلفت النظر بوجه خاص ميلهم

جميعاً للاختلاف إلى المراقص التى لا تحصى بين أجنبى وصينى وقد دخلت مرقصاً صينياً وهنا تجلى التناقض التام والتصادم بين القديم والحديث فالموسيقى تدق أنغاماً أوروبية والصينيون يخاصرون الصينيات ويعاقرون الخمر وهم يلبسون جلابيبهم الفضفاضة التى تحكى (القفطان) فصور لنفسك منظر شيخ



الاضواء الخاطفة ليلا فى شوارع شنغهاى
(باريس الشرق)

معمم يخاصر غادة ويراقصها ! وهؤلاء هم بالطبع النشء الثائر على الرجعية القديمة ولو أنى أرى فى ذلك كثيراً من التطرف الممقوت ويظهر أن عدوى الأجانب وبخاصة إباحيي روسيا من جهة والحروب الاهلية التى بدأت منذ زمان بعيد هذا إلى تذوق شعب رجعى عتيق لحرية العصر الجمهورى كل ذلك كان سبب ذاك الاندفاع الشائن فى تيار المجون

ومن الاندية الكبيرة التى تجمع بين الألعاب الرياضية والمراهنات — تلك التى يتكالب عليها أهل الصين بمختلف أنواعها — مكان اسمه (أوديتور يوم) لشاب أرمنى الأصل مصرى الجنسية يدر عليه ربحا طائلا وهو يوظف فيه جمهورا كبيراً من هواة الرياضة وقد حذا حذوه كثير من المصريين أصحابه وما كنت أتوقع أن أسمع عن مصرى يغامر بنفسه وماله فى مثل تلك المنشآت فى أقاصى الارض وهذا الشاب (هايج أسديان) مهذب مثقف كان من أساطين الرياضة فى مصر وظل زمانا بطل الملاكمة عندنا وهو من كبار مشجعى الحركة الرياضية اسمه يرن فى أرجاء شنغهاى ويعرفه الجميع مما جعلنى فخوراً أن من المصريين من بدأ يطلب العمل (ولو فى الصين)

أما قيمة شنغهاى التجارية فعظيمة فهى العاصمة التجارية للصين والمصرف الطبيعى لغلات اليانج تسي أغنى أحواض الصين وأكثفها سكاناً ويزيد عدد قاطنيها على مليون ونصف وهى بلدة حديثة العهد مذ كانت قبل سنة ١٨٤٢ مرسى صغيراً لخفاف الزوارق على أن مرفأها عرضة لأن تطمره الرواسب من النهرين لذلك تطلبت التطهير على الدوام وقد كابدت باخرتنا طويلا من قلة العمق حتى أمنت الوقوف على الشاطئ ، وقد أقام القوم سداً عند تلاقى النهرين كى يحول جزءا من تيار يانج تسى ورواسبه الكثيفة إلى البحر مباشرة بدل أن يسيل إلى هوانج بو فيسد الميناء

وقد كنت ألمس الكساد التجارى من أثر الأزمة الحالية مذ كانت المبيعات تعرض بكافة الطرق وبأثمان بخسة خذ مثلا الحرير الذى كان يباع

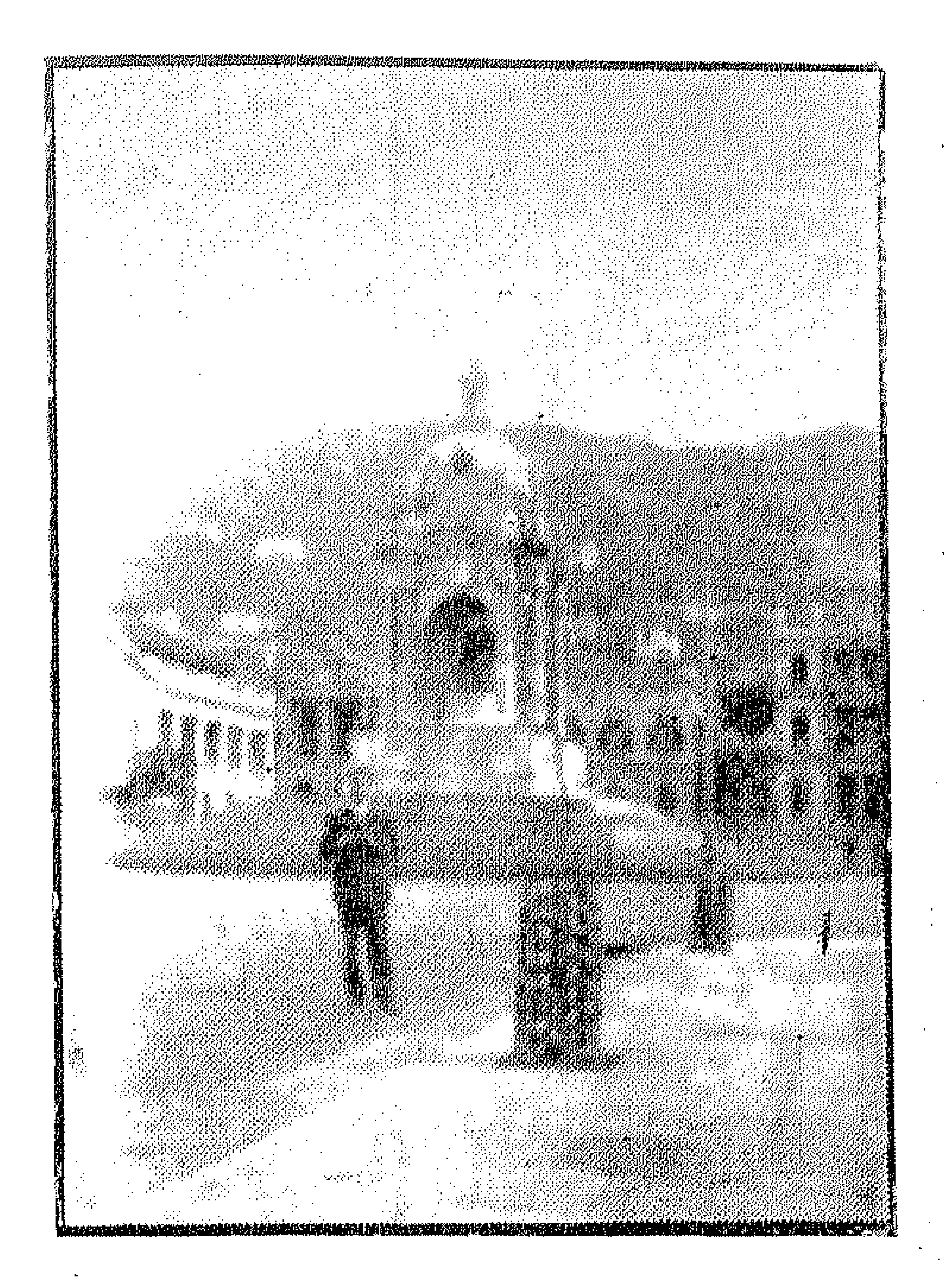
المتر من أنواعه الجيدة الجذابة بما بين خمسة قروش وعشرة ومما زاد الأزمة سوءاً هنالك إهمال الزراعة فى السنوات الأخيرة وهى مورد تسعين فى المائة من الناس لأن المنتجين أصبحوا غير آمنين على أنتاجهم فآثروا إهمال الأراضى الى ذلك كثرة طغيان مياه الانهار وتوالى القحط ونزول سعر الفضة وهى أساس عملة الصين وبخاصة بعد أن فكرت الهند فى العدول عنها إلى الذهب فباعت مقادير كبيرة منها للصين فكان ذلك من أسباب انحطاط سعرها هناك يضاف إلى ذلك الأثر السيء للحرب الأهلية التى أثقلت كاهل البلاد بالنفقات ودعت الى اهمال الانتاج وزاد الحالة سوءً عدم اطمئنان السراة على أموالهم لذلك نقلوها إلى بلاد الشواطىء فتكدست هناك كذلك أوقف الممولون الاجانب إرسال فوائد أموالهم الى بلادهم لكيلا يخسروا فرق التبادل المالى بسبب نزول قيمة النقد الصينى كل ذلك زاد فى تكديس الأموال فانحطت الفائدة وضوعف نزول قيمة النقود الفضية حتى كان الريال يساوى أربعة قروش ونصف

الى هنج كنج : (ومعناها النهر العطر) قمنا مودعين شنغهاى تلك البلدة التى يسميها بعض الأجانب بحق (مدينة الشيطان) أو (مدينة الهوى) لما حوت من مختلف الملاهى وشائن المفاسد الى الجلبة والضوضاء التى لاتخبو ليلا ولا نهاراً . أقبلت السفينة على هنج كنج فى أقل من ثلاثة أيام وفى صباح اليوم العشرين من أغسطس اكفهر الجو وباغتنا بالوابل وماج المحيط الهادى فأوجس الجميع خيفة عواصف بحار الصين ذائعة الصيت تلك

التى ترفع من مياه البحر عمداً تتصل أطرافها بسحب السماء الدكناء فتعبث بالبحر وما يشقه من سفائن ولقد أبرقنا اللاسلكى فى الغداة نبأ السفينة التى أدركتها (بعد أن أفلتنا نحن منها) الى الشرق مناعلى مقربة من جزائر الفلبين فأغرقتها وأمثال تلك العواصف التى يسميها القوم (تيفون) يزيد

تقف السفينة بنا فى مياه هنج كنج
ومن ورائنا صخرتها الشهيرة

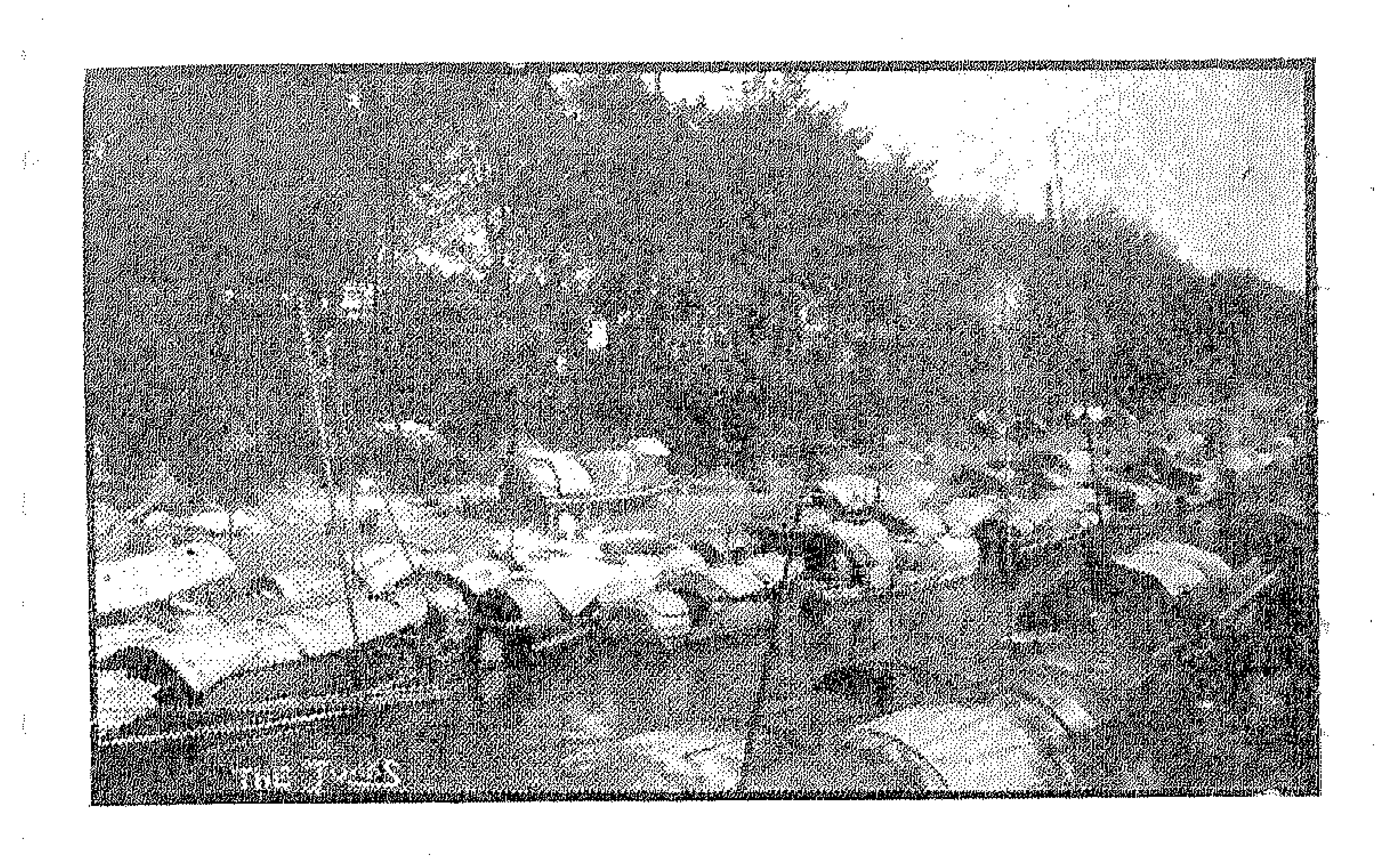
هبوبها فى ذاك الفصل ، تجلت هنج كنج فى صخرة سامقة كثيرة التعاريج يوغل البحر فيها بألسن لا حصر لها تحوطها الربى الخلابة بكثرة نبتها نسقت على جوانبها الأبنية الفاخرة فى مدرجات بديعة وتعلو كثيراً من جوانبها الحصون المنيعة وتقوم المعسكرات العاتية و يقابل الجزيرة من الجانب الاسيوى حى (كاولون) الذى أرغمت الصين على تركه للانجليز ثم يليه من الداخل


فى ميدان فكتوريا بهنج كنج

أقليم كانتون الصينى والبوغاز بين الجزيرة والقـارة هو المرفأ الممدودعظيم الأرصفة نظمت على جوانبها المراسى وقد زودت بالروافع والقضبان تنساب فوقها عربات النقل تسهيلا للتجارة وحركتها صاخبة لا تخبو قط وهى تعد من أجمل مين العالم وأمنعهاموقعاً وأوفرها تجارة مذ تناهز متاجرها أربعة عشر مليونا من الاطنان كل عام ، وغالب الجانب الاسيوى للوطنيين تقابله المبانى الممتازة على مدرجات الربى التى تتألف منها جزيرة هنج كنج الـكبيرة وتوابعها ، طفنا بأرجاء المدينة وكأنها من كبريات بلدان أوروبا بالغة النظام والتنسيق غالب طرقها يعلو فى منحدرات قد نصعدها فى درجات عديدة اعتلينا أهمها الى ترام هوائى (فونكلير) الى ١٣٠٠ قدم ثم أخذنا نسير صعدا فى طرق ثعبانية سريعة المنحدر تنقلنا من ربوة الى ربوة وفى الذروة محطة لاسلـكية هامة تحوطها الحديقة التى حوت مجاميع قيمة

من النبات وأعلى ذروة فى الجزيرة تسمى (جبل فكتوريا) وفى أسفلها يشرف على البحر جمع من تماثيل عظماء الانجليز وفى مقدمتها الملكة فكتوريا، وسكان المدينة من الصينيين وأجناد البوليس من مسلمى الهنود وفى المدينة عدد كبير من الهنود يقوم بالأعمال الوضيعة كالخدم وحراس المنازل وما اليها وغالب الصينيين من طبقة الحمالين (الكولى) أما غالب التجار وأصحاب الثروة فمن الاوراسيين وبخاصة الانجليز ، أذكر أنى قصدت مطعما فاخرا ومعى زميلان من مهذبى الهنود صحافى قدير وطالب يقصد إتمام تعليمه فى أمريكا وما أن أبصر صبية النزل بالهنود حتى صاحوا يرفضون دخولنا مذ لايباح دخول الهنود احتقارا لشأنهم فخرجنا نجرر أذيالنا ولم أستحسن تركهما لأتناول الطعام وحيدا فقصدنا نزلا آخر هو أدنى أبهة من الأول وكدنا نصادف المعارضة بعينها لولا أن ألحفنا فانتحوا بنا ركنا قصيا عن الآكلين كيلا يرانا أحد واعتذروا لنا بأن لديهم من الأوامر ما يمنع دخول الهنود فقال زميلى الصحفى وهو يتحسر أرأيت كيف يعاملنا الأجانب فى بلادنا ! وعيناه تذرفان الدموع

وجو هنج كنج متوسط الحرارة غزير الأمطار التى لم تكد تنقطع زهاء الثلاثة الأيام التى أقمتها بها وان أنس لا أنسى منظر الربى الرائع ابان الليل فكأنه برج سماوى بثرياته الوضاءة تنتشر على جوانبه فى غير حصر ، وكنا نعجب للكثير من السكان الذين يقطنون زوارقهم حتى قيل أن نحو خمسين ألفا يعيشون فوق الماء فى كانتون وهنج كنج ، وفى مؤخر الزورق



تغص أنهارهم وقنواتهم بزوارقهم التي يتخذونها مساكن لهم

قبو من خشب أو قماش ينامون فيه ويعدون طعامهم وترى الأطفال الذين لا يكادون يستقيمون على سوقهم كل يمسك بسنارته أو بسلة من شباك الخيط يدلى بها إلى اليم وسرعان ما يقيمها وبها قنصه من السمك وهو غذاؤهم الرئيسى وتلك المدينة كسائر بلاد الصين مكتظة بالسكان إذ لا تزيد مساحتها على ٣٥٦ ميلا مربعا لكنها تؤوى من السكان ٦٦٢ ألفا احتل الانجليز الجزيرة سنة ١٨٤١ ثم ضمت لها منطقة (كولون) سنة ١٨٦٠ وزيدت مساحتها حتى اتصلت بكانتون.

وعجيب أن تمون أرضها الفقيرة جرانيتية التربة هذه الجموع الغفيرة وعاصمة المستعمرة مدينة فكتوريا التى يطلق عليها اليوم هنج كنج وسكانها وحدها ٣٤٠ ألفاً تتوجها قمة فكتوريا وعلوها ١٨٢٠ قدما ويدير

حكومتها حاكم عام ويعاونه مجلس تنفيذى من تسعة ومجلس تشريعى من أربعة عشر وللمستعمرة نقودها الخاصة وان كانت تتبع نظام النقود الفضية ولذلك كان سعر عملتها قد هبط هبوطا مروعا لسائر بلاد الصين وذلك من حظ الزائر الأجنبي لأنه يجد الحياة هناك رخيصة جدا وهنج كنج كلمة معناها الماء العذب أو النهر المعطر لكثرة مسايلها الدافقة فى خوانق متلوية وكان يسميها البرتغاليون قديما (لادرون) أى جزائر اللصوص لما كان لأهلها من سمعة سيئة فى القرصنة إذ ذاك

وهذا هو المكان الوحيد الذى استطاع الفرنسيون أن يدخلوا منه بلاد الامبراطورية السماوية كما كانت تسمى الصين من قبل تلك التى ظلت محوطة بالاوهام والأسرار والأقاصيص التى زادت البلاد ابهاما ، وكانتون التى تواجه هنج كنج أكثف سكانا ففيها مليون ونصف وهنا بدأت ثورة الصين ضد نظمها القديمة فطرد حكام المانشو وبدأت الجمهورية الحديثة هنا لأن أهلها أقل رجعية من سكان الشمال

قمت من هنج كنج مودعا بلاد الصين تلك التى عرفت بشدة تمسكها بالقديم مذ يوقنون أن أجدادهم بلغوا الكمال كما أيد كنفوشيوس لهم ذلك فالأسلاف هم المثل العليا عند الصينى لذلك قعد عن التجديد وخمد عقله وعجز عن استثمار أرضه الخصبة تلك التى تركت تحت رحمة الفيضانات تارة والجفاف أخرى وأسرف فى قطع الغابات حتى عراها عما كان يقيها شر التقلبات المناخية هناك ، ونظام العائلة هناك يبنى على الرهبة فالرباط العائلى توثقه

التقاليد والدين والقانون لحد جعل الأخلاص للعائلة دون غيرها واجبا وقد قضى هذا على التعاون بين العائلات فلم يحدث فى تاريخ الصين أن أبناءها تعاونوا مرة على اصلاح بلادهم فى أية ناحية ولذلك ثبتوا عند تأخرهم القديم ولعل أسوأ أثر لتلك العزلة وذاك النفور بين العائلات قتل الشعور الوطنى إذ لا يضحى الصينى صوالح عائلته الخاصة فى سبيل الصالح القومى العام ولهذا لا تعطف مقاطعة هناك على غيرها من جاراتها قط مهما أصابها من نكبات ولم يؤلفوا جبهة متضامنة ضد المغيرين والمعتدين سواء من الداخل او من الخارج (وهنا الفرق الرئيسى بينهم و بين اليابانيين) فالعائلة أساسها ألأب وهو شبيه بالآله سلطته لا تعارض حتى لقد كان من حقه بيع أولاده وقتلهم أما الأم فكم مهمل ليس لها على أولادها سلطان وبخاصة الذكور حتى شب الولد لا يستمع إلا لأوامر أبيه أما البنت فمضطهدة بائسة لذلك لا يسأل الوالد أذكرا رزقت أم أنثى بل : أدرة أم طينة؟ والزواج هناك مبكر جدا والعزوبة تكاد تكون معدومة لأن البقاء هكذا جريمة اجتماعية فى ظنهم والقاعدة الزواج من واحدة لكن للزوج الحق فى اتخاذ ما شاء من الخليلات على قدر ثروته فكلما كان غنيا فاخر بكثرة محظياته و بيوته التى ينفق عليها وكثيرا مانرى من السراة من يحوذ عشر نسوة ومن بينهم رئيس الجمهورية الحالى ، والزوجة الرسمية يدفع لها مهر بنسبة ثروتها ومتوسط المهر مائتان من الجنيهات و إذا ما دخلت بيت زوجها دفعت مبلغا مساويا له ويتسلم الزوج المبلغين لاستثمارهما ، والعادة أن العائلات الكبيرة ترفض أن

تعطى فتياتها كخليلات مهما كان مركز الزوج وأقل مايدفع مهرا للخليلة مائة جنيه وكنت أعجب من شبابهم حتى المثقفين وهم يتكلمون عن الخليلات وكأنه أمر طبيعي و بعضهم يؤثرهن على الزوجة لأن فيهن شيأ من الحرية والتجديد وضمان النسل الكبير ! والعادة أن الزوج إذا مات لا تتزوج أرملته بل تظل طول حياتها أما الزوجة فان ماتت فللزوج أن يتزوج من غيرها والميراث يقسم بالتساوى بين الذكور من الأبناء سواء فى ذلك أبناء الزوجة الشرعية والخليلات ، أما النساء فلا يرثن إلا اذا أوصى الأب بغير ذلك والزوجة خادمة لزوجها ولأمه ولا يتحسن مركزها الا اذا وضعت ذكراً فان خلفت أنثى فياويلها والمرأة العقيم يجوز طلاقها و إلا تبنى الرجل أحد أقربائه ولا يتنزل الزوج فيجلس مع زوجته وأولاده إلى مائدة الطعام رغم مالهذا من الأثر فى تربية النشء كذلك لا يجوز أن يأكل الأخوة مع الأخوات إذا بلغوا السابعة ، وإذا أحصى رب العائلة أفراد أسرته أهمل عدد الأناث ، ونساء الطبقة الراقية محجبات لايخرجن إلا محمولات على (الكراسى المعلقة) ويخال البعض أن ذلك راجع الى عادة تصغير الأقدام التى تعيقهم عن السير ، وعند مايرزق أحدهم بمولود يطلق البخور أمام الدار وتعلق علامة خاصة ثم يدثر الطفل بثياب آبائه لمدة شهر لكى تتسرب إليه فضائلهم وبعد الشهر يحلق شعره ويلبس ملابسه الحمراء ويؤخذ رأى المشعوذين فى اختيار طالع سعيد وعندئذ تقام وليمة يقدم فيها النبيذ والبيض المخضب باللون الأحمر إذا كان المولود ذكرا وترسل لكل مدعو بيضة حمراء وعلى المدعوين تقديم

الهدايا والنقود ، والعجب أن الطبقات الفقيرة التي لا تكفيهم مواردهم أن تمون عائلة كبيرة يتخلصون من بناتهم ، وهناك خارج القرية يقوم شبه برج على ربوة يضع الرجل فوقه طفلته ويتركها فيجيء الآخر ويلقى بها إلى داخل البرج لتموت ويضع هو طفلته مكانها وبذلك لايقتل الرجل بنته بل طفلة غيره وهكذا ، وقد اعتاد الخيرون من أصحاب الملاجيء أن يمروا بتلك الابراج وينقلوا ما يجدون من الاطفال الى الأديرة لتربيتهن

والصيني قد خلف فيه فقره وتوالى النكبات عليه الأنانية والفساد والقسوة وهو يرى في كثرة الموتى بسبب الأوبئة أو النكبات مخففا لويلاته وقد علمت أن نسبة الوفيات في الأطفال هناك ٥٠٪ وعدد من هلكوا بسبب الحروب الأهلية الحالية عشرون مليونا لذلك شذ عن الياباني في أنه فقد روح التعاون اللهم إلا في التجارة تلك التي يحتكرها عدد من الشركات التي يناهز عددها مليونا ونصف وهي تتفق على تحديد الثمن الادنى وتحديد الانتاج في جميع البلدان وتحتم النقابة مراعاة الثمن الأدنى أما الحد الاقصى للثمن فيترك لمهارة البائع

وكثيرا ما يتساءل الناس كيف لاتفي مساحة الصين الشاسعة التي تعادل مساحة أوروبا بحاجة أهلها وهي ذات التربة الخصبة والأنهار العظيمة والأيدي العاملة المتعددة التي تقدر بربع سكان المعمورة والكنوز المعدنية الوافرة التي قيل أن الفحم وحده بها يفوق فحم انجلترا عشرين مرة ، كل ذلك ولاتستطيع تلك البلاد تموين أهلها مع أن أوروبا وهي أكثف سكانا وأصغر مساحة تمون شعوبها الغنية المعروفة ويظهر أن السبب راجع الى خمول الصيني رغم ما عرف عنه من صبر عظيم فهو ظل متمسكا بوسائل الانتاج القديمة في الزراعة وأضحت بلاده.

حقلا للأرز فحسب مع انهم أحصوا بالبلاد نحو ١٢ ألف فصيلة نباتية ولم يعن بالصناعة التى يحتقرها الجميع لأنها عمل يدوى دليل الامتهان لديهم وهى دعامة النهوض والغنى فى أوربا وأمريكا واقتنع الملايين منهم بمزاولة مهنة (السكولى) للحمل وجر الأثقال تلك الأيدى التى لو تضافرت على عمل منتج لأتت بالمعجزات الى ذلك عنايته بالماضى فهو يبذل كثيرا على مقابر أجداده ونعش والديه فحياته تفكير مستمر فى الموت وساعد على هذا التأخر نظام الطبقات فالممتازة المحترمة لديهم اثنتان فقط الحكام والأدباء ولا يزال الجاهل يحتقر نفسه ويقدس المتعلمين وهؤلاء هم الأقلية لذلك فقد الرأى العام هناك لأن السواد الأعظم هم العامة والجهلة وانعدمت الطبقات الوسطى رغم أنها خير كابح فى البلاد الأخرى لطغيان الطبقة الارستقراطية لذلك كان لهاتين الطبقتين امتيازات يعترف بها الجميع وهم يحتقرون العامة ويترفعون عن محادثتهم وكثيرا ماركب معى أمثال هؤلاء فى القطار يحوطهم جمع من الأتباع الذين يخضعون لهم خضوعا شائنا وكانوا يصدرون لهم الأوامر فى صيغة الاستعباد الشائن ويصعرون لهم الخد ولا يسمحون بابتسامة لاولئك البائسين ودهشنا مرة لما رأينا أحدهم يمسح لسيده وجهه بقطيلة (فوطة) مبللة ونحن فى القطار وهو لا يكاد يتحرك تيها وعجبا فعلى تلك الطبقات الممتازة تقع مسئولية تدهور البلاد لأنهم بترفعهم طوال السنين عاونوا ذاك التأخر الذي أضحى مضرب الأمثال

﴿ تمت بحمد الله ﴾

فهرس

(صور الكتاب ١٤٠ بحسب هذه الموضوعات)

تاج محل